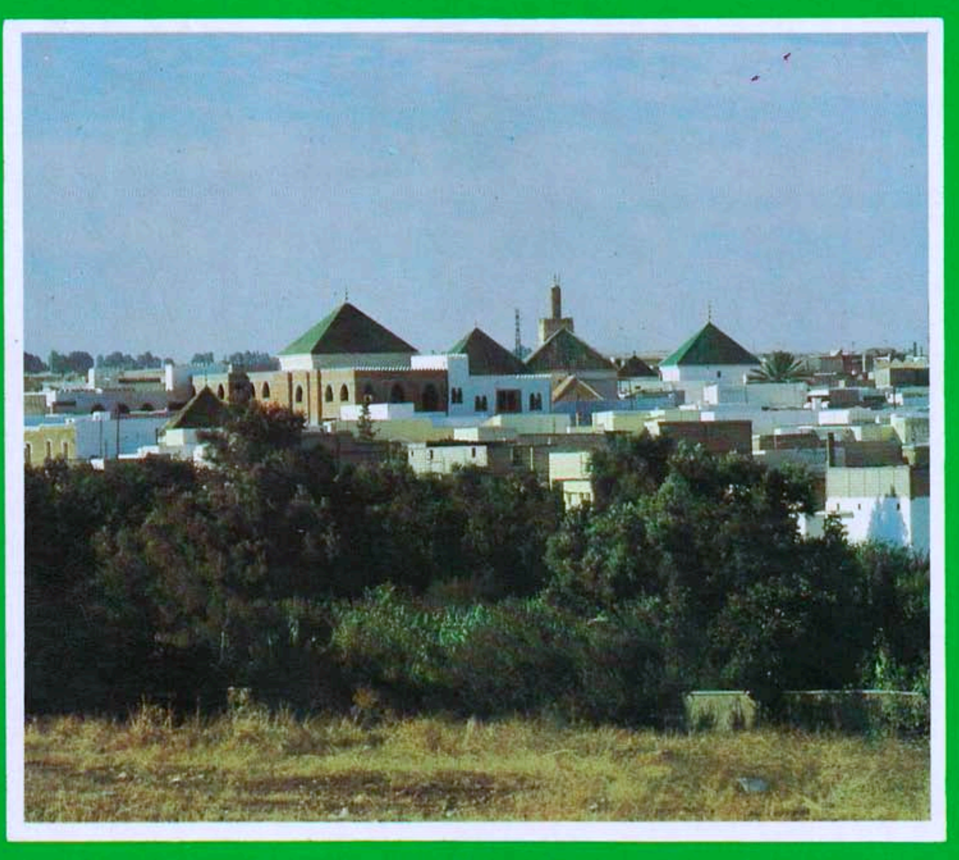
أحمد بوكاري

الزاوية الشرقاوية

زاوية أبي الجعد

دورها الاجتماعي والسياسي



الجزء الثاني

مساهمة في دراسة الزوايا والتصوف بالمغرب (2)

الزاوية الشرقاوية

زاوية أبي الجعد

دورها الاجتماعي والسياسي

ــ من التأسيس ق 10هـ = 16 م

ــ إلى وفاة الشيخ سيدي محمد العربي

1234هـ/1817م

تأليف

الأستاذ أحمد بوكاري

كلية الآداب والعلوم الإنسانية ــ مراكش

الجزء الثاني



الطبعة الأولى 1409هـ/1989م

اهـداء

بمناسبة الذكرى الأربعمائة لتأسيس زاوية أبي الجعد
1008هـ ـــ 1408هـ (الزاوية ـــ المدينة).

«إن احياء ذكرى شخصيات أجهدت نفسها في سبيل وضع معالم وآثار لخلود ذكرها واختراق صداها للزمن الحاضر والآتي.. لهي نفوس وهمم آلت على نفسها أن تعيش مستقبلها من خلال حاضرها، وأن تخلد من الأعمال ما يستعصي على عجلة الزمن والنسيان ؛ فهي بذلك نماذج جديرة بكل تخليد واستحضار».

المؤلـف

مقـــدمة

حاولت خلال الجزء الأول من البحث؛ أن أضع تأسيس الزاوية الشرقاوية في إطاره التاريخي والبشري.. ولاشك أن التطور الذي عرفته الزاوية خلال قرون متوالية؛ أفاد حقيقة من جملة حقائق : وهي أن رغبة الشيخ مَحمد الشرقي في اقامة مشروعه الديني والاجتماعي؛ كانت تتجاوب إلى حد بعيد مع حاجيات الوسط الذي تعاملت معه ووجدت فيه.. وتسير في نفس السياق التاريخي لمغرب القرن 10هـ/16 وما بعده.

تبقى ممارسات الزاوية التعليمية والثقافية؛ والتي كثيرا ما تهمل لصالح موقعها ودورها السياسي؛ إن قيام الزاوية بدور المدرسة العلمية، والعمل على نشر مبادىء الاسلام بالوعظ والارشاد، وبث تعاليم الكتاب والسنة، وإقامة مركز إشعاع فكري يستمد حيويته من المراكز العلمية الكبرى بالبلاد.. كل هذا يعتبر من أبرز اسهامات الزاوية على المستوى الحضاري؛ بهدف توحيد الرؤيا وإشاعة ثقافة الجماعة والإجماع : ومناهضة «ثقافة» العرف والانحراف والفرقة.

لم تكتف الزاوية باسهاماتها الافقية.. بل حاولت أن تسير أيضا في اتجاه عمودي، أو أنها أرغمت على الانجذاب إليه؛ تحت تأثير متطلبات وحاجيات الوسط الذي وجدت فيه.. فكان على الزاوية أن توسع دائرة التعامل معه، بالاستجابة لمختلف التحديات التي تواجهه مادية كانت أو معنوية.. خاصة إذا كانت هذه التحديات تتدرج من البسيط إلى المعقد، ومن الداخلي إلى الخارجي، ومن المعقول إلى ما هو غيبي.. ومهما كان حكمنا على طبيعة ونوعية هذه الممارسات الثقافية التبريرية والملتزمة أحيانا.. فإنها على المستوى السوسيو ــ ثقافي، قد حافظت على ما يمكن الحفاظ عليه من تماسك داخل مجتمع تتهدده عوامل التشتت والإنهيار.. فمثلت العديد من الزوايا قوة دفع ورفض لعوامل اليأس على مستوى الفكر والممارسة.. ضدا عن دعوات دينية وصوفية أخرى تكرس الشعوذة والانهزامية.

انطلاقا من هاته الحيوية التي اتصفت بها العديد من الزوايا، وكما جسدتها مواقف وممارسات العديد من المتصوفة والصلحاء.. نتساءل عن دور الزاوية الشرقاوية في التوفيق بين الأسس النظرية والسلوكية لمذهبها الصوفي والفقهي السني؛ وبين ركام من «الثقافة

والتقاليد الدينية» كما بلورها مغرب القرن 10هـ»16م وما بعده.. والتي ترسخت من خلال ممارسات اجتماعية ومعايشة يومية لقضايا الأفراد والجماعات.

في الجزء الثاني؛ عملت على تتبع دور الزاوية الشرقاوية على المستوى الاجتماعي.. وهي ممارسات تترجم في مجملها واقع وواقعية التصوف والصلاح بالمغرب؛ الذي لم يجد عن وسطه وبيئته بديلا.. فساهمت الزاوية في تثبيت وتدعيم الخريطة الاجتماعية من خلال مجموعة من التدخلات تتمثل في حفظ الأمن وضمان الأحلاف القبلية وتأمين السبل والتخفيف من حدة الأزمات...

وبالمقابل عمل الأتباع على توفير كل الامكانيات المادية اللازمة لها للقيام بمختلف أنشطتها الدينية والثقافية والاجتماعية.. إذ أنه بقدر توسيع دائرة إسهاماتها كما وكيفا؛ ستتحدد قوتها المادية والمعنوية.

انطلاقا من هاته الأهمية الاجتماعية ؛ سيكون حجم حضورها على المستوى السياسي؛ أي موقعها داخل علاقات المخزن (السلطة السياسية) مع الرعية؛ وبصفة خاصة أتباع و«خدام» الزاوية الذين يتوزعون داخل إطار جغرافي وبشري معين يمثل مجال نفوذ مشترك بين الزاوية والمخزن.

لقد سمح طول عمر الزاوية (أكثر من ثلاثة قرون) بتتبع أطوار علاقات الزاوية بالحكم السعدي ثم العلوي مرورا بفترات الأزمات.. مما كان فرصة لبلورة العديد من الممارسات والمواقف، وفي ظروف مختلفة ومتباينة؛ ساهمت ولاشك في تعميق وتوسيع مفهوم الزاوية.

ان الزاوية الشرقاوية من الزوايا التي اختارت أو فضلت أن تكون تابعة لطريقة صوفية سنية كبرى (الجزولية ثم الناصرية)؛ وأن تكون أيضا مرتبطة بالشرعية ؛ مما أكسبها الاستمرارية.. وهي خاصية تشترك فيها مع عدد من الزوايا المحلية أو الجهوية؛ الا أن هذا لا يعفينا من البحث عن ظروف وشروط هذا الاختيار.

إن الاهتمام المخزني بمنطقة نفوذ الزاوية (تادلا)؛ هو الذي دفع بالزاوية إلى أن تكون واحدة من أبرز دعامات التحول بالمنطقة اجتماعيا وسياسيا؛ وبقدر ازدياد الشعور بعدم جدوى القدرة على التحكم في مسار هذه التحولات عسكريا، سيكون اللجوء إلى وسائل أخرى أنجع وأفيد.. فما موقع الزاوية الشرقاوية ودورها في خضم هذه التحولات ؟ ذلك ما سنحاول الاجابة عليه من خلال فصول هذا الكتاب..

والله ولي التوفيق

ذ.أحمد بوكاري

الباب الرابع

○ ○ ○

علاقة الزاوية بالقبائل

مثلت البادية وقبائلها المجال الخصب، لبلورة نشاط الزوايا والصلحاء بصفة عامة، نظرا لوجودها (أي القبائل) خارج الاهتمامات الرسمية المباشرة من الناحية الدينية والثقافية بالمقارنة مع المدن والمدن العواصم مثل فاس ومراكش؛ مما أعطى للزاوية حرية التعامل والعمل لتأمين حاجيات هذا الوسط دينيا وثقافيا واجتماعيا.

الباب الرابع

○ ○ ○

علاقة الزاوية بالقبائل
أو
دور الزاوية الاجتماعي

الفصل الأول : مقومات هذه العلاقات

الفصل الثاني : المجال القبلي لنفوذ الزاوية

الفصل الثالث : القبائل كمورد اقتصادي

الفصل الأول

○ ○ ○

مقومات هذه العلاقات

أولا : الجانب الديني والروحي

ثانيا : مساهمات الزاوية الاجتماعية

الفصل الأول

مقومات هذه العلاقات

أولا : الجانب الديني والروحي :

عندما أنشأ أبو عبيد الله الشرقي زاويته، حرص على أن تكون مركزا دينيا وعلميا مشعا، إلا أن المشكلة التي واجهته تتمثل في منافسة زوايا أخرى مماثلة في المنطقة، بحكم ما يمثله إنشاء زاوية جديدة من منافسة مادية ومعنوية، ولذلك كان نجاحه منوطا بمدى توفقه في خلق قطب توجه ديني وروحي، يتنامى مع الزمن مجال استقطابه للقبائل، التي ترى في الزاوية أو «الصالح»، تجسيدا ملموسا لمعتقداتها وتصوراتها وإحساساتها الدينية، وما تتضمنه من معاني السمو أو الغموض.

إن الزاوية ــ كما رأينا ــ تقوم بمهمة التعليم ونشر الثقافة الاسلامية، وبث المعتقدات الصحيحة أو القريبة منها، في وسط يجد صعوبة في تحقيق ذلك ؛ إلا أن الأهم في العلاقة بين الجانبين، الصالح والقبيلة كأفراد وجماعات هو : إلى أي حد استطاع الصالح أن يستقطب ويجسد إهتماماتهم وتصوراتهم الدينية ويؤمنها لصالح الجانبين ؟

إن الفرد قد لا تكون له حاجة إلى شيخ التربية الصوفية، وقد لا تتوفر لديه إمكانيات الجلوس إلى حلقات الشيخ الفقيه والعالم، إلا أنه ليس بوسعه أن يتحرر من حاجته المادية والمعنوية لمثله ورموزه الدينية والروحية؛

مومنا ومقتنعا بإمكانيات «الولي» غير العادية للتحكم في قوى الطبيعة أو تصريفها وشرح ما غمض منها وتدليل ما ظهر صعب المنال .. ومن تم كان كل تصور ديني أو روحي لقوة هذا «الرجل الصالح» يمر عبر مجموعة من الممارسات الاجتماعية الملموسة، كما توضح ذلك سيرة هؤلاء الصلحاء وتراجمهم ومناقبهم، والتي لن يكون لها معنى إذا حذفت منها ديناميكية «الكرامة» أو «البركة». إنها القوة الفاعلة والخارقة للعادة التي تعطيه الخصوصية وتجعله يتحول من «وسيط» في المفهوم الصوفي النظري إلى شخص يقصد لذاته في المفهوم العملي للصلاح ؛ سواء عن اختيار منه أو اقتناع وقد تجبره على ذلك «الارادة الشعبية الدينية» التي تفترض في «صالحها» الاحاطة الشاملة للاستجابة لكل تطلعاتها في هذا الميدان، وبذلك يتحول الصالح إلى خدمة حاجيات وسطه على سائر المستويات، وهذا بدوره يؤمن له كل إمكانيات الاستمرار والتواصل المادية منها والمعنوية؛ كما تفسر ذلك العديد من الحكايات والخرافات والمناقب والممارسات والطقوس، فيما يعبر عنه بـ «الميثولوجيا الدينية» المحلية، تلحم كلا من الزاوية والاتباع ؛ وكما تدل على ذلك بعض الألقاب والصفات التي شاع ترديدها ــ ولازال ــ حول صلحاء زاوية أبي الجعد، وفي مقدمتهم الشيخ الشرقي، إذ تنعته بـ «قنديل تادلا» و«سلطان الصالحين» و«وصاحب الجمهور» و«مول النوبة والدور» وغيرها.. وهي عناوين لأحداث ومفاهيم حية نسجت في الماضي ولازالت خيوطها مستمرة في الحاضر.

ثانيا : مساهماتها الاجتماعية المتعددة :

إن الولاء للصالح بمختلف الاشكال والممارسات التي تعبر عن ذلك، تجعل الشخص يُتطلع إليه كأمل وملجأ ومنقد، حينما تختل المقاييس والموازين في نظره، سواء منها ما هو على المستوى الفردي أو العائلي أو القبلي واحيانا على مستوى البلاد برمتها، كما يتضح ذلك من خلال تطبيقات هذا التصور[*].

أ ـــ إطعام الطعام : اشتهرت الزوايا في المغرب بصفة عامة، بإطعام الطعام للوافدين وعابري السبل، والمقيمين على السواء، بل إن أهمية ما يطعم بها يدل فعلا على أهميتها بالنسبة لسواها.. وأن ازدياد نشاط زاوية أبي الجعد في هذا الميدان جعل شيخها يوظف شخصا مختصا ومسؤولا عن ضيوف الزاوية عرف بـ «المقدم» مثل المقدم عبد الرحمان السوسي ومحمد بن أبي يعزى الغرباوي في عهد سيدي صالح [1] ولاشك أن أصول الشخصيتين القبلية له دلالاته بالنسبة لهذه المهمة الدقيقة.

وإطعام الطعام، كان يسير وفق ترتيب اجتماعي يراعي مكانة وأهمية الضيف.

> «فكان يطعم في زاويته كل من وفد عليه من العامة والخاصة وخاصة الخاصة، مثل الأشراف والعلماء والقواد وأعيان القوم.. فكان يطعمهم ما يناسبهم.. وأما العامة، فطعام الدار كيفما يسره الله من قمح أو شعير، ويزيد من السوق الخبز والتمر..[2]».

(*) تدخل الزاوية ذو الطابع السياسي أرجأناه إلى الباب الخامس.

(1) المعداني : الروض، ص 184.

(2) العبدوني : اليتيمة، ص 61.

وكان الشيخ محمد الصالح يمول عدة حوانيت، ويأخذ منها حاجيات الزاوية من سمن وزيت وعسل وغير ذلك[3]، ولم يكن يكتفي بالاطعام، بل يكيل لضيوفه علف دوابهم أيضا[4].. ومع هذا كان يقول :

«إنا لا نعطي طعاما ولا نخدم زاوية، وإنما أصون عرضي وأكرم ضيفي..[5]».

وتبرز أهمية هذا النشاط الاجتماعي عندما يحل بالناس وباء أو مجاعة وقحط، إذ تتحدث المصادر عن مساعدات الزاوية الهائلة لجموع الجائعين، وتجندها للتخفيف من وطأة ذلك، اذ أقام الشيخ المعطي بن الصالح «فرانا للخبز في السوق للمساكين والجائعين.. وكان عاملا قدورا في السوق يطبخون فيها الحريرة ويطعمونها لعباد الله..[6] وتتواتر عند الناس إلى اليوم، أخبار موائد الطعام التي اشتهر بها الشيخ العربي بسبب القرب الزمني، دون أن ينسوا تعيين بعض الأماكن التي كانت تلجأ الزاوية إلى الاطعام فيها عندما تضيق رحابها بالوافدين، [7] وهو فعلا ما تؤكده المصادر، إذ تشير إلى غنى هذه الشخصية التي تذكرنا بثروة الشرقي [8].. ذلك أن الشيخ العربي كان يستعين ببعض نساء أسرته لتحضير موائد الطعام، كما اتخذ عدة مطاحن بأبي الجعد ونواحيه لطحن الحبوب.

---

(3) المصدر السابق، ص.62، 63.

(4) المصدر السابق، ص.63.

(5) المصدر السابق، ص.64.

(6) العبدوني : اليتيمة، ص.278.

(7) وهو ما يعرف بدرب أو ممر «الصابة» (صابة سيدي العربي) درب مسقف توجد في حائطيه الأيمن والايسر أماكن جلوس في شكل حوانيت من النوع القديم (الدكانات).

(8) كما أشرنا إلى ذلك في خطاب أبي المحاسن الفاسي وخطاب الامام أحمد المنجور الفاسي. فقد كان الشيخ الشرقي يلقب بـ «لخواجة» وبـ «حاتم الطائي».

«فترى إبله وبغاله يوما بيوم، يأتون إليه بالدقيق»(9).

وكان يلجأ أيضا لشراء ما يحتاج إليه من الخبازين، حتى اشتهرت زاويته بذلك وغيره في مختلف أنحاء بلاد المغرب(10).

وإذا كانت هذه الأعمال تصاغ في إطار كرامات وبركات هؤلاء الصلحاء الذين لا يشتكون الخصاص.. إلا أنه يمكن استشفاف حالات من الضيق المالي والغذائي، تعرضت لها الزاوية في بعض الأحيان، وهي ترتبط بحالات ضيق عام شمل منطقة نفوذ الزاوية ومنهم «الخدام» أو «الاتباع»(11).

ب ـــ الايواء : يرتبط بالاطعام الايواء، فمن جملة مرافق الزاوية الرئيسية، بيوت للوافدين والمقيمين من فقهاء وزوار وطلبة وغيرهم، وقد عرفت بدورها توسعا تبعا لتوسع نشاط الزاوية وازدياد أهميتها وشهرتها.

لم يكتف الشيخ محمد الصالح بتوسيع أماكن إقامة الطلبة والهيئة العلمية العاملة في مدرسة الزاوية، بل خصص دورا مهيأة لعلية القوم من علماء وموظفين، كما كانت لابنه محمد المعطي دار «معدة لأهل فاس»..(12).

حرص أشياخ الزاوية على أن يوفروا كل شروط الاستقرار والاقامة الملائمة، حتى لا يشعر ضيوفهم من أهل الحضر بكبير تغير في أسلوب حياتهم الاجتماعية المتطورة بالنسبة لوسط الزاوية القروي، بل اعتبر الشيخ محمد الصالح ذلك من وسائل إغراء اطره العلمية الاجنبية عن الوسط

---

(9) الشرقاوي ع : الفتح، ص.212.

(10) المصدر السابق، ص.197، 203.

(11) المعداني : الروض، ص.227.

(12) الشرقاوي : الفتح، ص.174.

التادلي حتى تستفيد حلقات الزاوية العلمية من ثقافتهم. وفي عهد الشيخ العربي بنيت مساكن جديدة إلى جوار مسجد المولى سليمان الذي تم انجازه في هذا الابان، والتي لازالت معالمها إلى الان.

ج ـ **التمريض والعلاج** : لقد جمع «الصالح» بين معالجة النفس والبدن.. بل ان حالات عصبية ونفسية مستعصية إلى يومنا هذا، تجد حل عقدها في رحاب وأجواء الأضرحة..

إن بعض صلحاء زاوية أبي الجعد، كانت لهم فعلا معرفة ودراية بالطب النظري والعملي، مما جعلهم يجمعون بين استعمال العقاقير الطبية والتمائم[13]، «فبركة» الصالح علاج متعدد الوظائف، له مفعوله السحري في الحالات العادية والمعقدة، فهو يدفع أذى الجن و«عين البشر الحاسدة»، كما ييسر الاخصاب الجنسي، ويلجأ إليه أيضا في حالات أخرى مثل الشلل[14].

شكلت زاوية أبي الجعد، بالاضافة إلى ما سبق، في أوقات عصيبة مثل الفتن والحروب والوباء، ما يشبه «المارستان» يجمع بين العمل الخيري والعلاج.

«فاذا خرج (الشيخ المعطي) في ذلك الوقت ووجد فيهم عريانا كساه، واذا وجد جائعا أطعمه وسقاه، واذا وجد «مكشطا» اعطاه احد أثوابه، واذا وجد مجروحا، أمر أصحابه بإنزاله في

---

(13) اشرنا فيما سبق إلى ثقافة سيدي صالح وابنه المعطي الطبية.

(14) يقصد ضريح محمد الشرقي ومحمد الصالح اليوم لعلاج حالات متعددة (تعددي) في حين تخصص ضريح محمد المعطي في علاج الأمراض العقلية والعصبية وكذلك ضريح ابنه سيدي العربي، ويعالج سيدي الحفيان الأمراض العقلية ولحفدته اليوم (بركة) علاج «داء الكلب» (السعار)، وسيدي علي بن سعيد لعلاج العقم، ولالة هنية (امراض النساء) الخ... وهذه التخصصات لم نعثر لها عن صدى في مصادر الزاوية المكتوبة.

مكان يليق به، وأمر بدوائه وغطائه ومأكله ومشربه حتى يبرأ، وإذا مات كفنه ودفنه..»[15].

د ــ طلب الغيث : إن الاعتقاد في قرب الشيخ من السماء يجعل لطلبه ودعائه مكانة وأهمية دون سائر البشر، ومن تم كان اللجوء إلى الأولياء الاحياء من أشياخ زاوية أبي الجعد، للتوسل إليهم والتوسط بهم لطلب الغيث، عندما يضيق الناس، ويشعرون بخطر الجفاف والقحط والفناء يدب إلى البهائم والنبات والعباد، وهي عادة جرت عليها قبائل الزاوية منذ أمد بعيد.

«ففي زمن أبي القاسم والد الشيخ الشرقي، كان «الخدام» «من بني سجدال وورديغة وغيرهم.. يعمدون إليه في طلب الغيث فيغاثون، وفي قضاء حوائجهم، فيجدون بركته فيما يطلبون..»[16].

واستمر الأمر على ذلك المنوال في بقية الخلف، فقد كانت القبائل التادلية، تستدعي الشيخ محمد الصالح وتستضيفه وتحتفي بمقدمه مع أصحابه راغبة منه ومتوسلة إليه أن يجتهد في الدعاء والطلب إلى مولاه ليعم برحمته عباده وأوطانه[17]، وأحيانا أخرى يفدون عليه في زاويته «ليستسقوا به» فيذهب معهم إلى ولي الله سيدي السايح[18]، بأحواز المدينة، لتتظافر جهود وبركة الصالح الحي والصالح الميت حتى يستجيب الله لدعواتهما وتوسلاتهما.

وتحفظ لنا المصادر العديد من قصائد محمد الصالح في التضرع

---

(15) العبدوني : اليتيمة، ص277.

(16) العبدوني : اليتيمة، ص.113.

(17) المصدر السابق، ص.269.

(18) المصدر السابق، ص.371، وتوجد قبته على ضفة نهر «تاخزريت» ويسمى اليوم «واد سيدي السايح» على بعد حوالي 3،5كلم من أبي الجعد من الناحية الشرقية.

والتوسل والتذلل إلى الله عز وجل في هذا المقام، نذكر منها :

يارحيما بالمومنين إذا ما	صار صم الجبال دكا كثيبا
هالنا الجوع باد خلق كثير	ودوى ما عهدنا منه رطيبا
عظم الأمر يا عظيم علينا	انهكتنا الذنوب نهكا غريبا
وغذا الناس طائشين حيارى	ما نرى من نراه الا كئيبا
هالنا ما نراه فيمن نراه	حين يبدي على المعاش النجيبا
آه من فتية أذابو فؤادي	لم يطيقوا من الهزال دبيبا

إلى أن يقول :

فالغياث الغياث، إنا هلكنا	يا شفيع العصاة، غوثا قريبا[19]

وسجل الشيخ المعطي في أحد أحزابه، حالة أخرى معاكسة للسابقة، تتمثل في ذهول الناس وحيرتهم عندما.

«طغى الماء على القيعان والفلوات وبطون الأودية والشعاب وانفطرت السماء.. وغارت النجوم.. وسقطت السقوف على حيطانها، والبيوت على سكانها.. وغرقت الحيوانات في فلواتها والطيور في أوكارها.. وآلت الدنيا بعمارها إلى خراب.. وأنشبت المنية أظافرها، وصارت الخلائق حيارى كأنهم بعثوا ليوم الفصل..»[20].

فلجأ إلى ربه، نيابة عن عباده، متوسلا وضارعا إلى مولاه أن يرفع بلاءه ويكف غضبه.

---

(19) المعداني : الروض، ص.281.

(20) مقتطف من حزب اللطف والفرج.

هـ ـــ أداء الديون على اصحابها :

إذا كان أتباع أو خدام الشيخ مّحمد الشرقي، يلجأون إلى «بركته» طلبا للغنى ورفعا للفقر[21] فإنه في عهد حفيده محمد الصالح، كانت تتم فعلا مساهمات عملية في هذا الاطار، إما بتقديم أموال أو دواب أو كميات من الزرع لبعض الأصحاب والخدام للقيام بالأعمال الفلاحية.. وأكثر من هذا نجده يدفع ديون بعض الشخصيات المهمة في الوسط التادلي لها مكانتها القبلية أو أهميتها العلمية وأحيانا الصوفية، كما هو الشأن بالنسبة لمحمد بن العلامة والمرابط محمد ابن عبد الرحمان الصومعي، الذي قدم على الشيخ الصالح قائلا :

«عليَّ ديون، وثقل علي أمرها، وخفت على نفسي الفضيحة من أربابها، وتباع أملاكي في قضائها، وليس لي غيرها. فصاح الشيخ وقال له : قف خلص الله عليك..»[22].

وهذا التدخل المالي للزاوية، لا يقتصر على الأفراد بل يشمل أحيانا قبيلة برمتها، ونعني بها القبائل التابعة لنفوذ الزاوية. كما حدث بالنسبة لقبيلة «آيت عتاب» في عهد الشيخ العربي.

«وكان طالبهم المخزن بمال كثير، فدفعه عنهم، وأبرأ ذمتهم»[23] الا أن هذه التسهيلات المالية، لم تكن عطاء نهائيا، بل في شكل سلف عليهم اداؤه عندما تتحسن احوالهم وظروفهم المادية.. وقد يحدث ان يتقاعس أحدهم عن الأداء، كما حدث بالنسبة للقبيلة السالفة الذكر، ومن تم تصدق عليها، وتتعقبها (لعنة الصالح).

---

(21) العروسي : المرقي، ص.209.

(22) المعداني : الروض، ص.264.

(23) الشرقاوي : الفتح، ص.283.

«فلم يخلصوه، فسلط الله عليهم القائد محمد بن الطالب الهنتفي وتولى عليهم واستعملهم في شاق الأعمال، حتى كانوا يحملون الجير على اكتافهم..»[24].

و ـ **التوسط بين القبائل** : (الصلح والتحكيم)

إن من أهم وظائف الزاوية، قيامها بدور الحكم والقاضي للفصل في مشاكل القبائل المتواجدة في مجال نفوذها واشعاعها.. وهي مهمة تسند إليها عن اختيار واقتناع ورضى الأطراف المتقاضية، نظرا لما يرمز له «الصالح» من حياد واستقامة، وتجسيد للحقيقة والحق والعدالة الدنيوية والأخروية.. بدليل إجماع القبائل على اختلاف مشاربها على زيارته وتقديره والتماس نفحاته و«بركته»، وتنافسها في مرضاته.

ويتدرج عمل «الصالح» في هذا المجال، من الصلح بين الأفراد لحل نزاعاتهم حول بعض العقارات[25] أو حل مشاكل تتعلق بالزواج والطلاق، وتوزيع التركات، بل وأيضا بالقبض على المجرمين والمذنبين وتسليمهم إلى السلطات المخزنية القريبة من الزاوية[26].

إن أبرز هذه الممارسات هي التي تحول دون توسيع دائرة الخرق والتمزق في البنيان القبلي، خاصة في فترات السيبا، عندما تتعطل الأحكام المخزنية، مما يجعل للصالح أهمية كبرى في الحفاظ على ثروات البلاد البشرية، وهو الدور الذي قام به بصفة خاصة الشيخ محمد المعطي في

(24) اشارة إلى قولة سيدي العربي المشهورة : (ان خلصتموني يجعلكم الله مشبكات الدير، وان تقاعدتم عليه، الله يجعلكم حمير الجير».
ـ الشرقاوي ع. المصدر السابق، ص.283.

(25) المعداني : الروض، ص.194.
ـ الشرقاوي ع. : الفتح، ص.283.

(26) المعداني : المصدر السابق، ص.174.

زمن الفتن والتمزق الذي عرفته البلاد، بعد وفاة المولى اسماعيل، والذي استمر زهاء ثلث قرن من (1139هـ إلى 1171هـ) ذلك أن الشيخ محمد المعطى.

«بذل نفسه في طاعة الله، وفي الصلح والمهادنة بين العباد.. في تادلا وتامسنة ودكالة.. وهو يتردد في ذلك مع خاصة أولاده وأصحابه، وكل بلد وصلها أمره ينفع فيها بين عباد الله الصلح والمهادنة وتخرجها العداوة..»[27].

إن صلحاء زاوية أبي الجعد، كانوا إلى جانب ذلك، يتوسطون لدى القبائل لتأمين وضمان استقرار الأفراد والجماعات بين ظهرانهم، بل تصبح لهؤلاء مكانة خاصة بين هذه القبائل، تستمدها من إنعام الشيخ عليهم، باعتبارهم من خاصة اصحابه و«أهل ضمانته» ؛ كما أنه يسهر على سلامة مجال قبيلة أو جماعة ما.. تضطر إلى الهجرة والانتجاع إلى أماكن أضمن وأوفر عطاء لماشيتها ومعاشها[28]، في إطار علاقات تكامل وتبادل المصالح بين القبائل؛ حيث يكون «للصالح» الدور البارز في عقد هذه الاتفاقات وضمان سريان مفعولها؛ وتعرف هذه التحالفات باسم «طاطا»[29] أو «تاظا».

(27) العبدوني : اليتيمة، ص.28، وهناك اشارة لحالات مماثلة.
— المصدر السابق، ص.284، 301، 302..

(28) الشرقاوي ع : الفتح، ص.178.

(29) سنعود إليها عند الحديث عن قبائل بني زمور وعلاقتها بالزاوية.



زاوية الصومعة قرب مدينة داي (بني ملال الحالية)

ويلاحظ في مقدمة الصورة 1) الصومعة التاريخية التي تنسب إليها الزاوية. 2) مدفن الشيخين : أبو عثمان سعيد امسناو والشيخ أحمد بن أبي القاسم الصومعي وباقي أفراد أسرته.

الفصل الثاني

○ ○ ○

المجال القبلي لنفوذ الزاوية

أولا : عوامل تكوينه

ثانيا : خدام الزاوية

أ) قبائل تادلا

ب) قبائل الشاوية

جـ) قبائل دكالة

الفصل الثاني

المجال القبلي لنفوذ الزاوية

إن علاقات زاوية ابي الجعد بقبائلها، سواء منها الدينية أو الثقافية أو الاجتماعية، لا تفهم أبعادها وأهميتها إلا من خلال المجال الذي شمله نشاطها.. بيد أن هذا المجال بدوره تدخلت عدة عناصر في تكوينه، دون أن نغفل عامل الزمن الذي ساهم في تثبيت وتدعيم هذه المكتسبات وتنميتها.

أولا : عوامل تكوينه :

أ ــ **الاستقطاب الصوفي** : إن تأسيس زاوية أبي الجعد جاء كعملية تتويج لنشاط صوفي قديم عرف به أجداد الشرقي[30].. فهناك على الأقل ثلاث شخصيات في سلسلة أجداده، اثبتت حضورها كصلحاء في المنطقة : سيدي عمر، سيدي الزعري، ثم أبو القاسم والد الشرقي، الذي تعترف له المصادر بمكانة مرموقة في التصوف الجزولي الشاذلي بمنطقة تادلا. بل إن زوجته هي ابنة سيدي حمزة أحد الأشراف والصلحاء بالمنطقة، كما أنها بدورها كانت تختلف إلى أشياخ زوجها طلبا لنفحاتهم وبركتهم ولسلوك الطريق على يدهم.

---

(30) حول أجداد الشرقي. وتفاصيل هذه الأحداث، انظر الباب الأول المتعلق بظروف تأسيس زاوية أبي الجعد.

ويمكننا تلمس خصوصيات هؤلاء الأعلام، من خلال قبابهم المنبثة عبر القطر التادلي، وكذا ما تحيطهم به عامة الناس وخاصتهم إلى اليوم من مظاهر الاحترام والتقدير.

اكتسب هذا الارث الصوفي، أهمية وبعدا جديدا في مطلع القرن 10هـ، الذي شهد حركة «صوفية» ذات آفاق واسعة، لما مثلته من قوة دافعة ومحركة داخل المجتمع المغربي، سواء تعلق الأمر بتعبئة السكان ضد خطر الغزو المسيحي، أو تهيء الظروف الملائمة لتجديد هيكل البلاد السياسي..، وإلى هذه الفترة يعود تأسيس زاوية أبي القاسم على ضفاف أم الربيع قريبا من القصبة التادلية الحالية، وبعده بقليل أسس ابنه مّحمد الشرقي زاويته الأولى في منطقة الدير (ازرارق)، قبل ان ينتقل إلى منطقة أبي الجعد، حاملا معه مضاضة ومرارة مضايقة بعض صلحاء المنطقة له؛ فتأسيس زاوية أبي الجعد شكل مرحلة أولية لانطلاق طموحاته في المنطقة التادلية برمتها، وهذا ما تؤكده سلسلة الاصطدامات بينه وبين شيوخ المنطقة وزواياهم، مثل زاوية الصومعة، وزاوية دلاء، وزاوية تاستاوت[31] قرب تاغية حيث يوجد ضريح أبي يعزى يلنور.

وبإلقاء نظرة على مواقع هذه الزوايا، تظهر حقيقة الحصار شبه التام المضروب على زاوية أبي الجعد من الناحية الجنوبية والشرقية والشمالية.. وهو وضع رفضه مّحمد الشرقي وواجهه، وعمل على تغييره بكل امكانياته ووسائله، مما جعله يتجاوز اطار زاويته شيئا فشيئا ليشرع في عملية شبه «غزو» صوفي لنفوذ الزوايا المنافسة، بل ليتحول من ذلك إلى شيخ ينازع في مكانته ومنزلته شيوخ في مستوى أبي المحاسن الفاسي وغيره.

إن مكانة الشرقي الجهوية والوطنية قد تم الاعتراف الرسمي بها من

(31) انظر القسم المتعلق بعلاقة زاوية أبي الجعد بصلحاء تادلا (الجزء الأول).

خلال محاولات «الاختبار والامتحان»، ولاشك أن التعبير الرمزي لهذه المكانة، هو ما وصف به من «قطبانية»، وما يرتبط بهذا المنصب من امكانيات مادية ومعنوية، أثارت فضول إن لم نقل إنكار بعض معاصريه؛ بسبب تعارض «الغنى والثروة» مع منبع التصوف وجوهره الذي يقوم على الزهد في الدنيا والترفع عن اغراءاتها، وقد كان دفاع الشرقي عن مكانته هاته ومسلكه في الحياة الصوفية؛ أنه رجل.

«يُصلح دِينَه بدُنيَاه»

ان الأزمة العامة لمغرب القرن 11هـ/17م، لم يكن بإمكانها القضاء على جهود الشرقي وانجازاته مدة نصف قرن تقريبا؛ فلا عجب أن تقرن ذاكرة أهل تادلا، بين صلاح الشرقي وملك احمد المنصور الذهبي.

«لا سلطان بعد أحمد ولا صلاح بعد مَحمد»

إنه الارث الذي أوجد مع الزمن من يحييه ويرممه، ذلك أن حفيده محمد الصالح لم يجد صعوبة في تجديد رسم زاوية جده، وبعث اشعاعها في مختلف انحاء البلاد في وقت خفتت فيه منارات علم وصلاح في المنطقة[32]، إلا ان محمد الصالح لم يكن يرغب في أكثر من أن يكون أحد الصلحاء الأوفياء التابعين لشيخ الطريقة الناصرية آنذاك وهو الشيخ أحمد ابن ناصر، وهذا لم يحل بينه وبين ادعاء الأحقية في وراثة قطبانيته وطريقته بعد وفاته (عام 1717/1129)[33]، باعتبار أن زاوية أبي الجعد الناصرية، كانت أكثر من غيرها مؤهلة لتحمل هذه المسؤولية.

وتتوضح أبعاد هذا الاستقطاب الصوفي، في عهد محمد المعطى

(32) نعني بها على الخصوص الزاوية الدلائية التي تم تحطيمها عام 1668/1079.

(33) توفي شيخ الزاوية الناصرية احمد الخليفة عام 1129هـ في حين تأخرت وفاة محمد الصالح إلى عام 1139هـ. انظر حول هذا : الباب الثاني من الجزء الأول.

الذي شرع فعلا في إقامة أسس طريقته الخاصة به، مؤكدا على اصالتها وعدم تبعيتها، وقد غذت هذا الاتجاه أحداث مغرب ما بعد المولى اسماعيل، التي جعلته يوسع دائرة نشاطه ونفوذه حتى سهول وشواطىء المغرب الغربية (دكالة وعبدة) وحتى أعماق الأطلس المتوسط (ادخسان = خنيفرة)، بل إن قراءة بعض أسفار الذخيرة وجدت طريقها إلى رحاب جامع القرويين، ووصلت شهرتها إلى حواضر الشرق الاسلامي.

إن التوسع الديني والصوفي لزاوية أبي الجعد، وما ترتب عنه من إمكانيات بشرية ومادية، خلق وضعية حرجة للزاوية ازاء السلطة المركزية والجهوية في عهد شيخها محمد العربي والسلطان سيدي محمد بن عبد الله. وهو ما سوف نتعرض له مستقبلا.

ب ــ الشرف السلالي :

يرجع البعض أصل الشيخ محمد الشرقي إلى قبيلة بني جابر، القبيلة العربية الهلالية التي اشتهرت بمنطقة تادلا.. ويظهر أن مشكل النسب، لم يكن يطرح أي عائق لمؤسس الزاوية، ولا ليأخذ هذا العامل بعين الاعتبار، إذا وضع ازاء عنصر الصلاح.. وهذا لم يمنع الشرقي من خلق قاعدة قبلية، تيسر سريان نفوذه، بسبب وضع منطقة تادلا الخاص دينيا وبشريا. إذ لجأ إلى التصاهر مع القبائل المهمة بالمنطقة، مثل قبيلة بني ملال[34] وقبيلة بني عمير[35]، وتجعل الرواية الشفوية أبناءه الأحد عشر ــ على الأقل ــ كلهم من أصل أمهات مختلفات، فهم إخوة من الأب فقط. وحسب أسطورة تتحدث عن ظروف تعمير منطقة أبي الجعد[36]، فانها تشرح ما

(34) العروسي : المرقى، ص.41.

(35) Eickelman; (1973); pp.206-215

(36) المرجع السابق، ص.202، 205.

جمعه الشرقي في شخصه من علاقات دموية بين قبائل متعددة من سكان تادلا العليا والسفلى (بني زمور، بني سجدال أو شكدال، اسماعلة)، مع اعطاء أهمية خاصة للقبيلة الأخيرة باعتبارها أحد فروع القبيلة الورديغية الكبرى التي عاش بين ظهرانها أسلافه(37).

ويظهر أن عنصر الشرف السلالي في عهد الدولة العلوية، أصبح يمثل إحدى الركائز الاديولوجية للدولة الجديدة، والمجتمع المغربي برمته قد تجاوب مع ذلك سواء كقبائل أو عائلات ومنهم «الأسر المرابطية»، فراح كل حسب طريقته ينسج شجرة النسب التي توصله بأحد فروع العائلات الشريفة بالمغرب، مما اضطر السلطان المولى اسماعيل إلى التدخل لحسم الخلاف(38). في حين أن زاوية أبي الجعد لم تدع النسب إلى أحد أبناء أو أحفاد الخليفة علي بن أبي طالب.. ذلك أن مؤرخي الزاوية، اكتفوا بالتأكيد على ثبوت النسبة العمرية (نسبة الخليفة عمر بن الخطاب)، وشيوعها في الوسط التادلي بالرغم من عدم اشتهار الشيخ الشرقي بذلك، وعدم التفاته إليه، عكس ما حدث في عهد الأحفاد، الذين اضطروا لمواجهة ايديولوجية بايديولوجية مماثلة أو مشابهة.. مبررين ذلك بأنه مجرد رد على من أنكر أو طعن أو حتى من وقف من ذلك موقف شك.. وأنهم اضطروا إلى ذلك اضطرارا، لأن الشارع نهى عن التفاخر والتباهي بالانساب «إن اكرمكم عند الله اتقاكم» وأن الاتكال على النسب دون العمل جبن وتقاعس(39).

---

(37) العبدوني : اليتيمة، ص.110.

(38) امر المولى اسماعيل بجمع الأشراف في ديوان خاص بهم، وتكرر نفس العمل في عهد السلطان محمد بن عبد الله. انظر :
— ابن سودة : الدليل، ج1، ص.97، 98، 99.

(39) العروسي : المرقي، ص.90، 94.

فقد رفع الاسلام سلمان فارس   وقد وضع الكفر الشريف أبا لهب

بل ان الاتكال على النسب دون العمل، كالتصوف بلا علم.. كلاهما مكر وخديعة. كما قال الشيخ محمد الصالح.

وقد اغتنم «منظرو الزاوية»، قضية النسب، لتأكيد روابط الزاوية الدموية بالقبائل التابعة لنفوذها. فاعتبرت عدة قبائل ورديغية «عمرية» مثل أولاد بحر وأولاد سمير، أو غير ورديغية مثل بني سجدال[40] وهذا التمييز يعطي لهذه القبائل مكانة خاصة بين القبائل الاخرى التي لا تمتلك هذا الشرف مثل بني عمير وبني مسكين وقبائل الشاوية المحادية لها.

إن الوسط القبلي للزاوية لم يكن في حاجة إلى مجادلات نظرية للاعتراف بشرف أشياخ الزاوية، ذلك أن الدفاع عن «عمرية» الزاوية لم يكن أكثر من ترديد لصدى الضجة التي أحدثتها قضية الشرف السلالي في مغرب المولى اسماعيل ومن جاء بعده.. وأنها ــ أي الدفاع عن عمرية الزاوية ــ تعبر عن حيوية وغيرة للتصدي لأية محاولة خارجية تريد النيل من تُراثها أو الانتقاص من شهرتها؛ ومنه مجال نفوذها القبلي، فعملت الزاوية جهدها على ربطه بها في إطار علاقات روحية واجتماعية متعددة الجوانب، كما عززت وجودها بالعديد من المريدين والمتخرجين الذين انتشروا في مجال نفوذها كدعاة وفقهاء ومربين في إطار صلحاء محليين أكثر قربا من الأتباع لتلبية حاجياتهم الانية في انتظار حلول موسم الحج السنوي إلى الزاوية الأم.

(40) العبدوني : اليتيمة، ص.121 ــ 135.
ــ القادري م : النشر، ج1، ص.80 (المحقق).

ج ــ دور الزوايا التابعة :[*]

تعددت الزوايا التابعة للزاوية الأم بأبي الجعد، بل إن أماكن اقامتها تُعتبر علامة بارزة لتحديد أبعاد ومجال نفوذ الزاوية.. ويظهر أنه من الصعب حصر عددها وأماكن تواجدها بصفة شاملة ودقيقة، خاصة إذا كان عددها قد بلغ في عهد الشرقي وحده حوالي اربعمائة (400) زاوية، إلا أن هذه المراكز الثانوية لم تكن لتحل محل الزاوية الأم، بل كانت استمرارا وامتدادا لنشاطها ونفوذها الديني.

1 ــ زاوية آل القيرواني بآيت عتاب :

تتلمذ بعض أفراد هذه الأسرة على الشيخ الشرقي، ومنهم سيدي عبد الحق القيرواني الذي كان من أول الوافدين على زاوية أبي الجعد الأولى، بل ساهم إلى جانب شيخه في بناء بعض مرافقها خاصة مسجد الزاوية..، وعندما ظهرت عليه معالم الصلاح أشار عليه بتأسيس زاويته في قبيلة آيت عتاب التي دفن بها عند وفاته بالجبل المسمى بـ «تعزيط»[41].

ومنهم أخوه : «أبو محمد صالح» الذي تأخرت وفاته عن أخيه، وعندما أراد أن يرث ماله عارضه «فقراء سيدي مَحمد الشرقي» إلى أن تدخل الشيخ قائلا لأصحابه :

«دَعُوه يرث مال أخيه.. الشريعة غلبت الحقيقة».[42]

(*) يعتبر هذا القسم تكملة لما جاء في الجزء الأول عن تلامذة ومريدي الزاوية.

(41) العروسي : المرقى، ص.291.
ــ الشرقاوي ع : الفتح، ص.185.

(42) العروسي : المصدر السابق، ص.292.
ــ الشرقاوي ع : المصدر السابق، نفس المكان.

ويقصد السكان قبر سيدي عبد الحق لقضاء الحوائج لاسيما ذوي الجنون.. ومن صلحاء الأسرة أيضا سيدي عبد المنعم أخو الشخصيتين المتقدمتين(43).

2 ــ زاوية محمد بن سليمان الشاوي الزياني :

يعتبر محمد بن سليمان من أخص تلامذة الشيخ الشرقي «وهو من أولاد العباس دفين «عين شعرا» موضع بتامسنا وقبره بها معلوم اليوم، عليه قبة عظيمة ومزارة للناس..»(44).

وكان محمد بن سليمان من جملة الذين تدخلوا لحل خلاف ابناء الشرقي حول الوراثة.. فقد أقر للغزاوني بالأحقية والأسبقية(45)، وتنسب إلى الصالح ابن سليمان اسرة مرابطية تعرف بـ «اولاد بن سليمان» لازالت إلى اليوم وسط قبيلة اولاد زيان(46). كما نمت حول ضريحه قرية وسوق تجاري تطور إلى ما يعرف اليوم بمدينة ابن سليمان.

3 ــ زاوية سيدي حجاج بالشاوية.

هو أبو العباس سيدي أحمد حجاج الشريف الحسني، من مشاهير أصحاب الشيخ ومريديه، اشتهرت زاويته في حياته بكثرة الأذكار(47)، ويوجد ضريحه وسط قبائل «مزامزة» غرب مدينة سطات الحالية. وقد تم

---

(43) العروسي : المصدر السابق، نفس المكان.

(44) المصدر السابق، ص.301.

(45) الشرقاوي ع : الفتح، ص.185.

(46) Villes et tribus du Maroc; Casablanca et Chaouia. Tome : 2, Paris (1915); p.61, 62, 63.

(47) العروسي : المرقى، ص.299، 300.

إحياء نفوذ زاوية أبي الجعد في المنطقة في عهد كل من الشيخين محمد المعطي وابنه محمد العربي، الذي أنشأ زاوية باسمه في المنطقة، عرفت بزاوية سيدي الحاج العربي بأولاد عروس[48].

4 ــ زاوية سيدي أحمد البدوي :

هو أحمد البدوي بن عبد السلام بن الشيخ الشرقي. خرج من زاوية أبي الجعد على ما يظهر في منتصف القرن 11هـ/17م، إلى البادية المجاورة، واستقر بقرية «تارماست»[49]، على ضفة أم الربيع بتادلة، وأقام زاويته هنالك والتي اشتهرت بالاذكار واطعام الطعام[50]. وعندما توفي دفن بها ثم استقر بعض ابنائه هنالك من بعده، في حين هاجر البعض الاخر.

5 ــ زاوية سيدي عبد القادر البدوي :

هو أبو محمد عبد القادر[51] بن أحمد البدوي السالف الذكر، أحد احفاد الشيخ الشرقي، تخرج من زاوية والده، وسلك طريق التصوف على يده قبل أن يخرج مهاجرا إلى دكالة التي أنشأ بها زاويته وكان عابدا ناسكا ومجذوبا، وحين أحس بمرضه قال لبعض تلامذته : احملوني إلى تربة جدي الشيخ الشرقي، لأدفن بها. وفي الطريق ازدادت حدة المرض عليه، مما جعله يشير على أصحابه بالتوقف، مخاطبا إياهم بملحونة جاء فيها :

(48) Casablanca et Chaouia T.2, p.282.

(49) كلمة بربرية تعني أكلة بالخبز المفتت مع الزيت أو السمن (الرفيسة)، كما تعني (المعروف) أي الطعام الذي يحمل للصالح (الزاوية) أو المسجد.

(50) حول ترجمته : العروسي : المصدر السابق، ص.287.
ــ العبدوني : اليتيمة، ص.142.
ــ الشرقاوي ع : الفتح، ص.136.

(51) حول ترجمته : العروسي : المرقي، ص.288.
ــ العبدوني : اليتيمة، ص.143.

السَّايْرِيـنْ رَيْضُوا عْلِـيَ رُوسْ الخَشَبْ والحْبَالْ عَطْبُونِ
حَطُّونِي حَتَّى تَوْفَى المنِيَا وِينْ مَانَدَتْ تُرْبَتِي دَفْنُونِي

فتوفي ودفن ببلاد «العلوة» من تامسنا، ويعرف قبره وضريحه بـ «سيدي عبد القادر بوخلخال»[52].

6 ــ زاوية سيدي محمد بن الصالح العميري :

يعتبر محمد بن الصالح العميري من الفقهاء الصلحاء الذين تخرجوا من زاوية أبي الجعد، وتتلمذوا على شيخها محمد العربي، وهو من جملة المريدين الذين أشار عليهم الشيخ بتأسيس زوايا قرآنية ببلادهم[53] (بني عمير بتادلا)، والتي أصبحت عامرة بطلاب العلم وحفظة القرآن.. وقد شكلت الزاوية نواة لتجمع عمراني وسوق تجاري عرف باسم «سوق أربعاء لفقيه بن صالح».

7 ــ زاوية سيدي الحاج التاغي :

هو الفقيه الصالح الحاج التاغي الحمراوي، أسس زاويته القرآنية بإشارة من شيخه محمد العربي[54]، وقد اشتهرت في عهد مؤسسها وفي عهد أبنائه من بعده كمدرسة ومركز لتعليم القرآن ودراسته وتفسيره في بلاد الشاوية، وبقيت تحتفظ بهذا الدور خلال القرن 19م[55] بل إن ابن الشيخ محمد العربي وخليفته كان يدرس بها في صغره[56]. وتوجد إلى الجنوب من قصبة ابن احمد ببضع كلمترات.

(52) الشرقاوي ع : الفتح، ص.182.

(53) المصدر السابق، ص.194.

(54) المصدر السابق، نفس المكان.

(55) Casablanca et Chaouia; T.I, p.226.

(56) الشرقاوي ع : المصدر، ص.287.

د ــ زوايا أخرى :

إن تقارير مطلع القرن الحالي، تشير إلى صعوبة إحصاء الزوايا الشرقاوية أو التابعة لها، بسبب كثرتها وتعددها، إذ أن نفوذ زاوية أبي الجعد الديني شمل معظم بلاد المغرب[57]. ومما هو جدير بالاشارة في هذا الصدد، هو وصول النفوذ الشرقاوي إلى غرب البلاد، ابتداء من أحواز الرباط وسلا إلى منطقة الغرب، على أننا سنتطرق إلى المنطقة الساحلية المحادية للشاوية ودكالة فيما بعد.. ويمكن إرجاع مد هذا النفوذ إلى :

ــ دور بعض مريدي الزاوية، خاصة سيدي أحمد بن خضراء، وسيدي قاسم بوعسرية.

ــ دور بعض أبناء الزاوية الديني والعلمي، أمثال سيدي محمد بن لمفضل دفين سلا[58].

ــ أهمية العمل الجهادي الذي قام به بعض أبناء الزاوية في المنطقة، ذلك أن زاوية أبي الجعد لم تكن فقط مركزا دينيا وعلميا بل كانت مقراً لاعداد المجاهدين وتعبئتهم لصد المحتل الأجنبي الذي يُهدد السواحل الغربية، ذلك ان اسم «بوعبيد الشرقي»، كان مقرونا مع اسم «مولاي بوشتة الخمار» كشعار لبعث وشحد حماس المجاهدين[59] (جماعات الرماة). وهو ما يفيد المشاركة الفعلية والفعالة للزاوية وابنائها واتباعها في الغزوة الكبرى (معركة وادي المخازن) 1578/986. واستشهاد بعضهم

---

(57) حسب Cimetière هناك على الأقل، 10 زوايا بالشاوية، و10 بدكالة و2 بالسراغنة و1 بمراكش، و1 بالرباط، و1 بمكناس، 2 بفاس، الخ. دون ذكر اسمائها.. الا ان الأهم في رأيه : أربع زوايا بتادلا وزاويتين في الشاوية. Cimetière; (1913), p.266 -.

(58) من تلامذته وأصحابه، عبد الله العوني، الولي الصالح دفين سلا والذي توفي عام 1095هـ (الناصري : الاستقصا، ج 7، ص.108).

(59) - M.Bellaire-Le Gharbe; in AR.MR. -XX, p.43-44 et 243

مجاهدا في سبيل الله ومدافعا عن البلاد والعباد. ويستدل على ذلك بمجموعة من القباب الشرقاوية المنبثة على طول الساحل في شكل قلاع ترصد تحركات العدو، نذكر منها :

ـ قبة سيدي أحمد بن غفور الشرقاوي بالغرب قرب سوق الأحد (أولاد جلول)

ـ قبة سيدي علي بن غفور الشرقاوي ما بين «المرجتين» قرب عين فلفل (الغرب)(*).

ويرتبط بهاتين الشخصيتين ثلاث قبائل مرابطية تنسب إلى شرقاوة ببلاد الغرب وهم : أولاد خليفة، لبحارة، المناصرة، والتي هي في الحقيقة قبائل مجاهدة، كانت تدافع عن شاطىء البلاد الغربي من مصب نهر سبو إلى مدفن مولاي بوسلهام(60).

ويمتد نفس الدور الجهادي لشرقاوة إلى أحواز الرباط وسلا كما يفهم من القباب التالية :

ـ قبة سيدي ابراهيم بن عجال غرب المعمورة، ويكون مع ضريح سيدي عبد الله بن أحمد أشهر مجاهدي شرقاوة وسط قبائل بني عامر(61).

ـ قبة سيدي حميدة الشرقاوي، وهو المشهور بين بني حسن بكونه كان مولعا بركوب الخيل(62)، ولاشك أن لهذا الولوع دلالته فيما يخص عمليات الجهاد..

(*) المرجع السابق، ص.257.

(60) M.Bellaire - Le Gharbe-- p.286-314 -.

(61) Villes et tribus du Maroc. Rabat et sa region (1918); Tome I. p.255, 256 -.

(62) المرجع السابق، ص.257.

ــ قبة سيدي الحاج أحمد الشرقاوي المعروف باسم «سيدي بوغابة» قرب المعمورة (المهدية)[63] وهو الثغر الذي عانى الكثير من ويلات المحتل الايبري منذ مطلع التاريخ الحديث.

إن وجود أسر شرقاوية عديدة في كل من فاس ومراكش والرباط وسلا[64]، ما هو إلا تعبير ملموس عن الاشعاع الديني المتعدد الأوجه، إذ عجزت الزاوية والمناطق المحيطة بها أن تستوعب امكانياته البشرية، مما دفعها إلى توسيع دائرة هذا النفوذ بشريا في مختلف مناطق البلاد.

إلا أن الذي يهمنا بعد هذا، هو ما يعرف بـ «الخدام» نظرا لدورهم الاقتصادي المباشر بالنسبة للزاوية الأم.

---

(63) المرجع السابق، ص.278.

(64) تحتضن المدن المذكورة رفات شخصيات شرقاوية صوفية ودينية عرفت واشتهرت بنشاطها في هذا المجال، نذكر منهم :

ــ عبد السلام الشرقاوي وعمر بن المكي الشرقاوي دفيني الزاوية المعطاوية الشرقاوية بفاس (السلوة، ج1، ص.193، 194، 195)

ــ سيدي محمد بن الصالح الشرقاوي دفين حومة ابن صالح بمراكش.

ــ سيدي محمد المعطي بن عبد الخالق الشرقاوي دفين جنان العفو، أمام باب الدباغ، مراكش.

ــ سيدي الغزواني بن البغدادي الشرقاوي، دفين الرباط بجوار سيدي مغيث.

ــ سيدي محمد المفضل الشرقاوي دفين سلا. وغيرهم.



إن التواجد الشرقاوي روحيا وبشريا يتجاوز إطار هذه الخريطة، كما هو الشأن في فاس ومكناس وسلا والرباط وبلاد الغرب.

ثانيا : «خدام» الزاوية(*)

تقاس أهمية زاوية ما.. بأهمية مجال نفوذها من الناحية الجغرافية والبشرية والاقتصادية، ذلك أن الاتباع أو «الخدام» يمثلون الاطار العملي لتبلور نشاطات الزاوية المختلفة، كما أن هؤلاء الاتباع في نفس الوقت، يعتبرون مصدر استمرار الزاوية ــ المؤسسة، لما يوفرونه لها من امكانيات مادية ومعنوية لتسهيل ماموريتها وضمان سريان مفعولها، كتعبير عملي عن مدى تجاوب الطرفين : الزاوية والخدام.

نشأت زاوية أبي الجعد في منطقة تادلا، التي مثلت قاعدة أولية لتمركزها ثم لانطلاقها في مرحلة ثانية، ذلك أن نفوذها شمل معظم وسط بلاد المغرب، بما في ذلك السواحل والسهول الغربية، خاصة الشاوية ودكالة.

أ ــ قبائل تادلا :

عرف القطر التادلي تقلبات بشرية هائلة، بسبب الموقع الاستراتيجي للمنطقة كممر رئيسي يربط شمال البلاد بجنوبها، بالاضافة إلى امكانيات الدير الطبيعية المغرية، مما جعل التنافس بين سكان الجبال والسهول مستمرا على مر العصور. خاصة عند وصول قبيلة بني جابر أحد فروع القبيلة الهلالية العربية للمنطقة، بعد أن ظلت تادلة لعدة قرون مجالا متكاملا لبرابرة الجبل، يسهلون إليه في مواسم معينة.

ومن أهم هذه القبائل العربية المتفرعة عن بني جابر، نذكر[65] : قبيلة

(*) يجب الاستعانة بخريطة نفوذ زاوية أبي الجعد، المثبتة في الصفحة 40 وكذلك خريطة تادلا في مطلع ق. 10 (16م)، ص. 55 من الجزء الأول.

(65) هناك من يجعل قبائل تادلا قبل وصول بني جابر تتكون من : ورديغة، السماعلة، بني خيران، بني زمور، كطايا، بني معدن، بني عمير، بني موسى، بني مسكين (؟). فلا

بني عامر (أو بني عمير)، وبني موسى، وورديغة... وهي قبائل لازالت إلى اليوم في مجالات مختلفة، حول نهر أم الربيع، بعد أن طرأت عليها بعض التغييرات نتيجة وصول موجات عربية جديدة أواخر القرن 8هـ، وبداية القرن 9هـ، ونعني بها على الخصوص قبيلة بني ملال[66] في البداية، ثم قبائل «بني زمور» في مرحلة متأخرة.. لذلك سنحاول التعرض لهذه القبائل من خلال علاقاتها بالزاوية، وتبعا لأهمية هذه الروابط وتطورها تاريخيا ودينيا.

ـ ورديغة :

يقول عنها ابن خلدون، انها من أصل عربي هلالي، وأنها من أشهر القبائل المتفرعة عن بني جابر[67]، وترجع اهميتها لكونها المجال القبلي الذي استقر به اجداد أبي عبيد الله الشرقي، كأشراف ورجال صلاح منذ القرن 9هـ على الأقل[68]. ويدخل تأسيس كل من زاوية أبي القاسم على ضفة أم الربيع وزاوية ابنه الشرقي قريبا من ذلك كمحاولة لتجاوز هذا الإطار بهدف توسيع القاعدة البشرية للأسرة المرابطية، ومع ذلك

يبقى حسب هذا الرأي من بني جابر إلا الدلالة اللغوية والجغرافية لا غير (!).
ـ التقي العلوي : أصول المغاربة. مجلة البحث العلمي. ع : 35 (1405 = 1985) ص.417، 418، 419.

(66) وصلت بعض فروع هذه القبائل ذات الأصل المعقلي إلى تادلا في حياة ابن خلدون ثم تتابع وصولها بعد ذلك، لتكون مع قبائل اخرى تجمع «كيش مخزني» تحت اسم «ايت الربع» في عهد الدولة العلوية، ويتكون من القبائل الاتية :
بني ملال ـ المعادين ـ كطاية ـ سمكت. في مواجهة للقبائل الجبلية.
ـ تاريخ ابن خلدون، مجلد 6 (القسم الأول) بيروت، ص.118.
ـ Massignon (L); Le Maroc...; p.177 .-
ـ Histoire du Maroc (1967); p.243 .-

(67) تاريخ ابن خلدون مجلد 6، ص.58، 66، 67.

(68) العبدوني : اليتيمة، ص.124، 132.

بقيت قبائل ورديغة تمثل أقرب «خدام» الزاوية وأكثرها تمسكا بشيوخها مما دفع صاحب اليتيمة إلى ربطها دمويا وسلاليا بالزاوية خلال القرن 12هـ/ 18م[69].

أثارت هذه العلاقة الحميمة بين القبيلة والزاوية تخوف المخزن، مما جعله يقدم على ترحيل بعض فرقها إلى الغرب.

«من غير اختيار منها، ورحلت حتى وصلت إلى المعمورة من بلد بني حسن..»[70].

إلى أن تدخل الشيخ لكسب رضى السلطان وعفوه عنها.

وخلال بعض سنوات الجدب، يتدخل الشيخ أيضا، لدى قبائل تامسنا، لتسهيل انتجاعها مع ماشيتها طلبا للكلأ والمرعى، متكفلا بالسهر على سلامة وأمن بلادها إلى حين عودتها[71]

وترجع أهمية هذه القبيلة إلى كونها توجد في موقع وسط بين تادلا والغرب، ولذلك كانت ممرا تجاريا للقوافل الرابطة بين موانىء البلاد الغربية وداخل البلاد على الأقل منذ القرن 12هـ/18م، فكانت الضامنة لسلامة وأمن هذه القوافل، مما يسر على الزاوية القيام بمهمة الخفارة (الزطاطة)[72]، خاصة عندما تزايدت أهمية التبادل التجاري مع الخارج في تلك الفترة وبعدها.

أشار ابن خلدون إلى زعامة القبيلة الورديغة في عصره في منطقة تادلا.. إلا أن عمليات الزحف والاستيطان القبلي بالمنطقة زحزحت ورديغة عن موقعها الجغرافي والسياسي والقبلي في آن واحد.. بيد أننا نجدها زمن

(69) المصدر السابق، ص.113، 132، وكذلك الفتح 121.

(70) الشرقاوي ع : الفتح، ص.121، العبدوني ص.24.

(71) الشرقاوي ع : المصدر السابق، ص.178.

(72) العبدوني : المصدر السابق، ص.303.

الأسرة العلوية تستعيد مكانتها بفضل قوادها وعمالها المخزنيين الاكفاء؛ وقد وجد بعضهم مساندة معنوية ومادية من طرف شيخ الزاوية آنذاك. واحيانا اخرى وقع تصادم بين القائد الورديغي والشيخ الشرقاوي(*).

تعتبر ورديغة كذلك حلقة وصل بين الزاوية وباقي أتباعها في بلاد الشاوية وخارجها، وكان أشياخ الزاوية منذ مّحمد الشرقي في غنى عن توجيه مريديهم وتلامذتهم لاقامة زوايا فرعية بالمنطقة مكتفين بما هو موجود بها من قباب ومزارات (اجداد الشرقي واخوه سيدي عبد العزيز بوادي زم)، خاصة عندما اعتبرت القبيلة كلها من «أصل عمري»، وهذا لم يمنع استقرار بعض العائلات الشرقاوية بالمنطقة مثل «اولاد سيدي عبد النبي». كما كان أشياخ الزاوية يشيرون على بعض الخاصة من اصحابهم بالاستقرار بين ظهران قبائل ورديغة عند تنازعهم مع قبائلهم أو فرارهم من مضايقات المخزن أو واجباته(73).

وإبان فترة الاضطرابات التي عرفها مغرب ما بعد المولى اسماعيل، نشب صراع دموي بين ورديغة والشاوية، أدى إلى تقهقر الأولى واحتماء زعمائها بـ «حرم» زاوية أبي الجعد، قبل أن تتلقى مساندة قبائل تادلية أخرى، وتحقق الانتصار عليها في مرحلة لاحقة(74).

ــ ق. بني سجدال (بني شكدال).

تعتبر من القبائل التادلية المتفانية في خدمة الزاوية خاصة فرقة «العجالنة» التي زارها الشيخ محمد الصالح في احد أيام الربيع لقضاء بعض حوائجه. فصادف ان ضاق الناس درعا بتأخر المطر، فلجأوا إليه

(*) سنفصل الحديث في ذلك في القسم السياسي الموالي.

(73) المعداني : الروض، ص.154.

(74) العبدوني : اليتيمة، ص.305.

لطلب الاستسقاء «وهم خدام أبيه وجده»[75]، كما كانت للزاوية علاقات اقتصادية (مشاركة) مع بعض أعيانها وخاصتها.

ولقبيلة «بني شكدال» إلى اليوم مكانة خاصة في الوسط التادلي، اذ يعتبرون كشرفاء وأهل صلاح، ويؤكد هذا ما كتبه صاحب «التشوف الصغير» عن بعض الصلحاء السجداليين بالقطر التادلي، فقد رفع نسبهم جميعا إلى عمر بن الخطاب[76]، وهذا ما أكده من بعده مؤلف اليتيمة[77]، إلا أن هذا لم يحل دون ولائهم للزاوية، كما يظهر ذلك من خلال اعداد «زوارهم»، واستمرار انتشار أذكار وأوراد الزاوية بها، خاصة أحزاب الشيخ محمد المعطى[78].

ـ ق. بني عمير :

من القبائل الهلالية المستقرة بتادلا، وقد حرص الشيخ الشرقي على ربط هذه القبيلة بالزاوية برابطة التصاهر إلى جانب الصلاح كما فعل مع قبيلة بني ملال المجاورة لها، فهم «أخوال ابنه الشيخ الغزواني» الذي بعثه مع وفد منهم للتدخل لدى المخزن أو ممثليه، حتى يرفع عنهم سطوته ويمسك جنده.. ثم تواصل تأكيد هذه الروابط في الفترات الموالية لوفاة الشرقي، إذ كان يوجد من بين طلبة ومريدي الزاوية عدد من أبناء قبيلة بني عمير، نذكر منهم على الخصوص الفقيه الصالح : محمد بن الصالح العميري السابق الذكر.

---

(75) المصدر السابق، ص.269.

(76) الصومعي : التشوف الصغير، الورقة، 35، 86.

(77) العبدوني : المصدر السابق، ص.125.

(78) من تقارير إحدى الزيارات الميدانية.

ــ ق. بني زمور :

يظهر أن اسم «بني زمور»[80] كان يعني في مرحلة أولى احدى القبائل العربية التادلية المتنقلة ما بين الجبل والسهل، قبل أن يطلق هذا الاسم على تجمع قبلي متعدد الأصول، اتخذ كمجال له منطقة هامشية أقل خصبا، ما بين سفوح الأطلس المتوسط شرقا، وبلاد ورديغة غربا.. وهي منطقة كانت في الأصل مخصصة لانتجاع برابرة الجبل ثم أصبحت مشتركة بينهم وبين أحد فروع قبيلة ورديغة فيما بعد، كما يستدل على ذلك من أسماء بعض المعالم الجغرافية الرئيسية بمنطقة قبائل بني زمور، مثل : تاخزريت، بوكروم، تاشرافت الخ[81]. وكانت هذه القبائل تحت رحمة هجومات سكان الجبل، خاصة في فترات انعدام سلطة مخزنية رادعة.

أدت عمليات الدفع القبلي الجبلية خلال القرن 18م إلى تأثيرات واضحة في وضع هذه القبائل، فقد دفعت بمجموعة منها شمال أبي الجعد حتى المشارف الجنوبية للهضبة الوسطى، كما تسربت مجموعات قبلية جديدة إلى المنطقة، مما زاد من حدة التقسيمات وتنوعها وهي ظاهرة تنفرد بها هذه القبائل المحيطة بالزاوية دون غيرها من القبائل التادلية، وكانت أحد العوامل في ضعفها وغياب عنصر التماسك الدموي بينها لتحل محله اتفاقيات واحلاف يسمونها بـ «طاطا».

لم يرد ذكر لعلاقات هذه القبائل بالزاوية الا في وقت متأخر، بالمقارنة

---

(80) زمور أو أزمور، كلمة بربرية تعني شجيرات الزيتون البري، وتعرف باللهجة المحلية بـ «الجبوج» وهي من النباتات الكثيرة بالمنطقة، وهذه التسمية ربما قد أطلقها عليهم بربر الناحية مثل إسم بني ملال = ابناء أو أولاد الثلج (البياض).

(81) أسماء لأودية موسمية شمال أم الربيع تمر في مجال قبائل بني زمور، وتعني على التوالي : النظرة المريبة، المرابط، الشرفاء.

مع القبائل (الخدام) السالفة الذكر.. وقد حاولت «أسطورة شرقاوية»[82] حول الخدام، أن تحشر هذا الاسم (بني زمور) ضمن أسماء القبائل التي دعاها الشرقي لتعمير البلاد التي سكنها.. إلا أن الرواية الشفوية تلك لم تعطها أهمية في عملية الاختيار أو الانتقاء التي قام بها الشيخ، مما يشرح ان اسم «بني زمور» أصبح حقيقة في مرحلة لاحقة من حياة الزاوية.

ان احدى فرق بني زمور ــ حسب المصادر المكتوبة ــ وهي «بني مقرين»، كانت نازلة بوادي تاخزريت في نقطة جد قريبة من أبي الجعد على طريق قصبة تادلا.. الا انها كانت هدفا لتعديات وهجومات برابرة الجبل، الذين استغلوا حالةِ الاضطراب السياسي في منتصف القرن 12هـ/18م لتوسيع دائرة انتشارهم في سهل تادلا إلى ما وراء أم الربيع.. وامام عجز قبيلة بني زمور لصد هذه الغارات، لاذت بشيخ الزاوية باكية شاكية حتى يتدخل لديهم وينصفهم من ظالميهم[83].

وتربط الرواية الشفوية بين استقرار معظم هذه القبائل وبين تدخل الشيخ محمد العربي لتسهيل ذلك الاستقرار وضمانه، وتوفير المجال الرحب للقيام بأعمال الرعي والانتجاع، فقد زاره وجهاء فرقة «آيت يح» من بني زمور لنفس الهدف فكان دعاؤه لهم : «الله يرزقكم قوة آيت امالو أعني البربر..»[84] وبالطبع فان الشيخ بامكانياته الذاتية والخاصة قد حقق لهم مبتغاهم.

«حتى كانت لهم الخيل الجيدة والابل الفريدة.. واتسع مسرحهم ومرعاهم..»[85].

---

(82) Eickleman; (1973), pp.202-205.

(83) العبدوني : اليتيمة، ص.284.

(84) الشرقاوي ع : الفتح، ص.276.

(85) نفس المصدر المكان.

وهي اشارة إلى ما وصلت إليه قبائل بني زمور في عهد الشيخ المذكور من قوة ومناعة لم تبلغها من قبل، مما جعل السلطات المخزنية، ترى في هذا التحالف خطرا لا يجب السكوت عنه والاطمئنان إليه، فكان أحد العوامل التي أدت بالسلطان مولاي محمد بن عبد الله إلى تخريب الزاوية ونفي شيخها وطرد الغرباء عنها.. ويؤكد هذا قولة ابناء الزاوية فيهم :

«وأما معرفة بني زمور كافة، فهم سيفي على عدايا..»(86).

ان دور صلحاء أبي الجعد في حياة هذه القبائل «بني زمور» المحيطة بها بالغ الدلالة، كما يظهر ذلك من أنواع الاحلاف والتعاقدات التي يربطونها مع جيرانهم من البربر والعرب أو بين بعضهم البعض. فقد كان «الصالح» الشرقاوي الضامن لها سواء كان حيا أو ميتا.. بحيث عوضت ضعفها المادي بقوة روحية ومعنوية تستمدها من صلحاء زاوية أبي الجعد، ولعل هذا تشرحه بوضوح مناطق توطين فرق بني زمور الرئيسية، التي تتخذ من الزاوية نقطة انطلاق لمجالاتها في شكل مروحة، مركزها زاوية أبي الجعد، فقد حرص كل من «أولاد كواوش» و«أيت الصالح» و«النواصر» و«بني عيسى» على أن يكون لكل منها تماس مع «الحرم» دون ان تتجاوزه أو تخترقه(87)..

واذا كان للزاوية فضل ظهور التجمع القبلي لبني زمور واستمراره، إلا أنه مع ذلك ظل مفككا يفتقد الوحدة والتماسك، في شكل فرق قبلية مستقلة قائمة الذات، تربطها بالفرق الأخرى سواء من بني زمور أو من ورديغة أو من البربر، روابط تقوم بالدرجة الأولى على المصلحة المشتركة خاصة الرعي والانتاج في إطار اتفاقيات (طاطا) تعقد في ضريح أحد الصلحاء بأبي الجعد، أو يباركها شيخ الزاوية المعاصر.

---

(86) مخابرة شفوية لأحد أبناء الزاوية.

(87) انظر خريطة : زاوية أبي الجعد وسط قبائل بني زمور. ص 50.

وخلال بعض الفترات العصيبة (السيبا خاصة) نجد عددا من هذه الفرق من (بني زمور) تتخذ من «حرم» الزاوية مخزنا لاقواتها (أمراس) لضمان عيشها.

زاوية أبي الجعد وسط قبائل بني زمور

حدود قبائل بني زمور

القبائل والفرق

أسواق اسبوعية

1/250.000

ـ قبائل الدير التادلي :

سبقت الاشارة إلى محاولة الشيخ الشرقي تأسيس زاويته الأولى بدير تادلا قريبا من الجبل، بعد ان استقر قبله والده أبو القاسم بجوار أم الربيع.. إلا أن فشله في ذلك لم يكن نهاية لمشروعه في مد نفوذ زاويته إلى المنطقة المذكورة، كما يستدل على ذلك بالعديد من هذه القبائل العربية والبربرية؛ مثل بني ملال وأيت سري وبني معدان التي تقصد ضريح سيدي بلقاسم بالقرب من قصبة تادلا، أو زاوية ابنه محمد الشرقي بأبي الجعد.

وقد ساهم في عملية الاستقطاب الديني لهذه المنطقة الأجداد والأحفاد على السواء.. فبعد تأسيس زوايا فرعية، بكل من آيت عتاب (آل القيرواني) وبني موسى (تارْمَسْتْ) نجد وفدا تادليا من كبار القوم وعليتهم يتوجه إلى رباط الفتح، طالبا عودة محمد المعطي ابن عبد الخالق لتعمير زاوية جده الشرقي في مطلع العهد العلوي[88].

كما أن محمد الصالح الابن لم يخف قلقه وانزعاجه ازاء أية منافسة محتملة من بعض صلحاء المنطقة مثل سيدي محمد الصومعي[89] أو سيدي يوسف أحنصال[90].. في حين أن محمد بن يوسف الدلائي أحد صلحاء المنطقة وفقهائها نصح أهل تادلة بمحبة شيخ الزاوية محمد المعطي وخدمته.

---

(88) العروسي : المرقي، ص.270.

(89) المعداني : الروض، ص.221.

(90) العبدوني : اليتيمة، ص.190. حين سمع محمد الصالح بوصول ركب من سلا إلى أبي الجعد متوجها لزيارة سيدي يوسف المذكور صاح قائلا : «ذئب غوت في الجبل وأكلته كلاب الوطا» وعلق صاحب اليتيمة على ذلك بقوله : «وكان ذلك منه إشارة لما وقع له يوم قتل بقصبة تادلا..».

«ولو فعلتم ذلك لم يتعد عليكم إنس ولا جان، ولا شيطان ولا سلطان إلا ما شاء الله»[91].

واذا كان محمد الصالح قد حرص على دفع نفوذ الزاوية إلى ما وراء وادي العبيد في اتجاه احواز مراكش مروا بقبائل السراغنة التي كانت تحتفي به غاية الاحتفاء[92].. فان ابنه محمد المعطى حرص على دفع نفوذ الزاوية في نفس الخط ولكن في اتجاه أحواز فاس بخلق نواة تصوف شرقاوي معطاوي في ادخسان (خنيفرة) وهو نفسه الذي نصح أصحابه في بعض أوقات الجفاف والقحط بالتوجه إلى دير الجبل حيث يتوفر الماء[93]، في حين اتخذ محمد العربي من بعده قرية «بَزْوَ» (بْزُو اليوم) ملجأ وقرارا بعد نفيه من زاويته.

نستفيد مما سبق حرص الزاوية على تأمين وجودها وتركيز دورها على محورين : الأول عمودي؛ بموازاة خط التجارة والمرور الرابط بين مراكش وفاس عبر تادلا. الثاني أفقي يسير من تادلا العليا، فتادلا السهل والدير في اتجاه الجبل في محاولة لتأمين موارد الزاوية وتنويعها على المستوى البشري والجغرافي؛ وفي نفس الوقت تأكيد حضورها المادي والمعنوي في هذا المجال التادلي الواسع والمتنوع.

ان نفوذ الزاوية في المنطقة الجبلية التادلية بما في ذلك الدير القريب منها، بقى مع ذلك هشا وغير متجذر إلى حد بعيد.. اذ يختلف هذا التأثير من قبيلة لأخرى، كما أن معالم الصلاح الموجودة في المنطقة (زوايا تابعة، قباب الخ..) توجد في هامش المنطقة قريبا من وادي العبيد أو أم الربيع بحيث لا يمكن مقارنة هذه الوضعية بما هو عليه الحال بقبائل

(91) المصدر السابق، ص.173 ــ 174.

(92) المعداني : الروض، ص.205.

(93) المصدر السابق، ص.197.

تادلا العليا أو السهل مثلا.. ويفسر هذا بدور المنافسة الدينية المحلية، دون اغفال طبيعة المنطقة التي تتميز بعدم الاستقرار البشري والسياسي، كما يوضح ذلك تعدد شفاعات صلحاء الزاوية الشرقاوية لدى سلاطين الوقت أو توسطهم بين قبائل السهل وقبائل الجبل[94]. وهي المهمة الدقيقة والحيوية التي ستزيد من تدعيم نفوذها ووجودها وزيادة أهميتها إزاء القبائل والمخزن على السواء..

ب ــ قبائل الشاوية :

الشاوية قسم من منطقة «تامسنا» الكبرى التي كانت تتسع لتشمل أيضا دكالة وتادلا[95].. وقد عرفت هذه المنطقة حركة تعمير وتعريب مهمة ارتبطت بوصول هجرات عربية هلالية على عهد الموحدين.

> «فنقل جمهور هؤلاء القبائل إلى المغرب ممن لهم كثرة وشوكة.. فنقل العاصم ومقدم من بطون الاتبج، ومعهم بطون ونقل جشم هؤلاء الذين غلب اسمهم على ممن معهم من الاحياء وانزلهم تامسنا»[96].

أصبح اسم تامسنا فيما بعد يطلق فقط على المنطقة الممتدة بين أم الربيع وأبي رقراق لا غير[97]، وهو المجال الذي سكنته قبائل الشاوية وحمل اسمها؛ تحاديه من جهة الداخل قبائل ورديغة وبني مسكين. ويطلق اسم الشاوية على خليط قبلي متعدد الأصول بعضها «عرب وبعضها زناتة

(94) العبدوني : اليتيمة، ص.284.

(95) يعني ابن خلدون بتامسنا : «البسيط الافيح ما بين سلا ومراكش أواسط بلاد المغرب..».

ــ تاريخ ابن خلدون، ص.58.

(96) نفس المصدر والمكان.

(97) الوزان : وصف افريقيا، ص.153.

وبربر غير أن لسان الجميع عربي..»[98] وساهم في هذا التمازج عامل الزمن وتوالي العصور وما عرفته هذه القبائل من كوارث بسبب المجاعات والحروب وايقاع الملوك بهم أو نقلهم من مكان إلى آخر..[99].

وحسب أول تقسيم إداري لقبائل الشاوية أواخر القرن 17م، نستفيد أهم المجموعات والفرق المكونة لها. وهو كالتالي :[100].

اولا : اولاد بورزق :
- مزامزة
- كدانا
- اولاد سعيد
- اولاد بوزيري
- أولاد سي بنداود
- زناتة

ثانيا : أولاد بوعطية :
- مزاب
- مذاكرة
- اولاد حريز

ثالثا : شهاونة :[101]
- مديونة
- أولاد زيان
- زيايدة

---

(98) الناصري الاستقصا، ج 4، ص.67.

(99) نفس المصدر والمكان.

(100) Casablanca et les Chaouia (1915); Tome 2; p.4.

(101) حسب مخطوط نشر المحاسن والمآثر لرجال الشاوية المشاهير : للقاضي العربي ابن قاسم العزوزي (معاصر)، فان شهاونة تضم بالاضافة إلى مديونة، أولاد زيان، زيايدة ؛ كلا من قبيلة زناتة وقبيلة غرب الرباط. (دار النيابة : عدد 11 ص.48).

الا ان السلطان المولى اسماعيل عدل هذا التنظيم وجعل اساسه الدواوير، لتسهيل جباية الضرائب.. فقسمت قبائل الشاوية إلى مائة (100) دوار، نصفُها في القسم الأول والنصف الثاني موزع بالتساوي بين القسمين الثاني والثالث، وهو التنظيم الذي بقي ساريا إلى منتصف القرن 19 (1861)(102).

تأثرت قبائل الشاوية في مطلع التاريخ الحديث بحركة البعث الديني التي عرفها المغرب منذ القرن 9هـ/15م، بسبب مجاورتها للشواطىء الأطلسية، التي كانت هدفا لعمليات الغزو الايبيري.. ويفسر هذا بالعديد من القباب والأضرحة التي تأوي رفات عدد من المجاهدين والصلحاء الذين عملوا على تجنيد القبائل وتقدمها بهدف الجهاد والاستشهاد(103)، كما هو الشأن بالنسبة للولي الشهير علي بن عثمان الشاوي الذي استشهد خلال إحدى المعارك بين المسلمين المغاربة والنصارى بالقرب من أصيلا حوالي 940هـ(104). وكما يستدل على ذلك مما تخلف منها من طوائف دينية جهادية تعرف بـ «الرماية» أو (الرْمَى) ذات الولاء الصوفي لزاوية أبي الجعد أو الزاوية الناصرية(105)..

ومن صلحاء الشاوية المنتسبين للطريقة الجزولية نذكر : محمد ابن داوود الشاوي الذي انتقل في آخر حياته إلى الدير التادلي، وتوفي ودفن به، والذي كانت له علاقات أخوة دينية وصوفية مع والد أبي عبيد الله الشرقي.

أولى صلحاء زاوية أبي الجعد قبائل الشاوية اهتماما خاصا، كما يظهر ذلك من كثافة وشمول النفوذ الديني لهذه الزاوية عبر سائر انحاء هذه

(102) المرجع السابق، ص.4، 5، 6.

(103) Casablanca et les Chaouia, T.I p.226.

(104) ابن عسكر : الدوحة، ص.34، 35.

(105) Casablanca et les Chaouia, T.p.227.

المنطقة. فقد تأسست بها في عهد أبي عبيد الله الشرقي ـــ على الأقل ـــ زاويتان مهمتان فرعيتان، من طرف بعض أخص تلامذته ومريديه، ونعني بهما : محمد بن سليمان باولاد زيان، وسيدي حجاج «بمزامزة». وظهرت أبعاد هذا التأثير من خلال موقف محمد الصالح الذي عارض تعيين القائد غانم على تامسنا[106].. إلا أن صراعات القبائل بعضها ببعض، كانت تجعل نفوذ الزاوية في حرج، خاصة إذا تعلق الأمر بإحدى القبائل الشديدة الارتباط بالزاوية مثل «ورديغة» التي لجأت إلى حرم الزاوية فرارا من صولة الشاوية.. وحين كلمهم بعض أولاد الشيخ الشرقي بالعدول عن عتوهم وفسادهم كان ردهم أن

«امتنعوا، واتفق رأيهم أن برحوا في أسواقهم على أولاد الشيخ سيدي مَحمد الشرقي، يخرجون من تامسنة..»[107].

إلا ان لعنة الصالح وغضبه تعقبتهم في شكل كوارث طبيعية أو حملات مخزنية مما أرغمهم على الاسراع لطلب عفوه وصفحه[108].

ويقترن بعهد الشيخ محمد العربي (المتوفى 1234/1818) أكبر نشاط صوفي شرقاوي بالشاوية كما يتضح ذلك من خلال عدد الزوايا الفرعية الشرقاوية التي تم انشاؤها مثل زاوية سيدي التاغي بمزاب وزاوية سيدي الحاج العربي باولاد عروس ناحية سطات.. بل إن الأسطورات المحلية تنسب إلى أبي عبيد الله الشرقي أو حفيده محمد العربي أصل استقرار عدد من الفرق والعشائر، سواء كانوا من الاتباع (الخدام) أو من الأسرة الشرقاوية نفسها وسط قبائل الشاوية، كما هو الشأن في أولاد أحمد

(106) المعداني : الروض، ص.161.

(107) العبدوني : اليتيمة، ص.309.

(108) المصدر السابق، ص.310.

قرب لمذاكرة أو عند «بني ورا» في أقصى شمال الشاوية[109]، في حين أن بني براهيم (مزاب) يزعمون الانتساب إلى المرابطين الشرقاويين، ويوجد ببلادهم حوالي خمسة عشر (15) مدفنا لصلحاء من زاوية أبي الجعد[110] وهذا العدد يعتبر كافيا لاضفاء صفة المرابطية والصلاح عليهم من طرف القبائل المجاورة.. وينطبق هذا الوضع نفسه على قبيلة أولاد حريز التي يوجد بها عدد من القباب الشرقاوية مثل سيدي المكي، وسيدي الغزواني، وسيدي العياشي[111]..

وقد كان من نتائج هذا الحضور الصوفي والديني، أن بقيت هذه القبائل متمسكة بالتعاليم الاسلامية، محافظة على استمرار وحيوية معتقداتها الدينية، بالمقارنة مع قبائل أخرى تفشت فيها الشعوذة ومظاهر الفساد الخلقي في شبه غياب تام لتعاليم الاسلام، كما هو الشأن بقبيلة الزيايدة[112]، وتستأثر قبيلة أولاد سعيد بنفوذ مرابطي شرقاوي كبير كما يتضح ذلك من عدد الزوايا والقباب والأسر الشرقاوية في كل من كدانة، واولاد سعيد «موالين الحفرة»، حيث توجد كل من «زاوية الحوارثة» نسبة إلى سيدي النية بن سيدي الحارثي أحد أبناء الشرقي وزاوية «سيدي المير» وزاوية أخرى بأولاد عبو[113].

إن تركيز زاوية أبي الجعد على قبائل الشاوية له عدة دوافع.. فاذا كانت بعض الزوايا والقباب ترجع إلى ظاهرة الجهاد والبعث الديني التي شارك

---

(109) Casablanca et les Chaouia, t.2. p.63.

(110) المرجع السابق، ص.181.

(111) المرجع السابق، ص.92، 93. وهي نفس الأسماء التي حملها أبناء وأحفاد الشرقي المدفونين بأبي الجعد.

(112) المرجع السابق، ص.60.

(113) المرجع السابق، ص.214، 227، 230.

فيها الصلحاء الشرقاويون بشكل فعال منذ القرن 10هـ/16م، إلا أن تزايد أهمية الشاوية كمجال لعبور قوافل التجارة على الأقل منذ منتصف القرن 18م، يشرح أبعاد هذا الاهتمام والتركيز، لتأمين دور الحراسة والخفارة التي عرفت بها زاوية أبي الجعد واشتهرت خلال القرن 18م وبعده في اتجاه الدارالبيضاء (انفا) أو في اتجاه الجديدة (لبريجة) وأزمور(114) اذ ان نقط الزوايا والقباب الشرقاوية في الشاوية تجد امتدادها ثم نهايتها في بلاد دكالة في كل من قبيلتي «أولاد فرج» والحوزية(115) القريبتين من الساحل(116). هذا إلى جانب ما يعبر عنه هذا الوجود المرابطي الشرقاوي من التحام وارتباط مادي ومعنوي بين هذه القبائل والزاوية الأم، اذ تعد قبائل الشاوية وإلى اليوم من أهم «خدام» الزاوية كما تعبر عن ذلك القولة المشهورة للشيخ الشرقي :

«مَعْرِفَةُ الشَّاوِيَّة مَايَا (من الماء) وَمَرْعَايَا (من المرعى)»

كما انه يمكن التساؤل : إلى أي حد يعتبر هذا الوجود المكثف للأضرحة والمزارات والأسر الشرقاوية؛ علامات بارزة لظاهرة الاستقرار القبلي ورسم حدوده.. إذ أن انشاء الزوايا واستقرار الصلحاء في هذه المناطق وغيرها من العلامات المادية الدالة على ذلك.

ج ـــ قبائل دكالة :

لقد كانت علاقات زاوية أبي الجعد بدكالة اكثر استقرارا واستمرارا من علاقاتها بالشاوية، فلم ترد أية إشارة لحدوث ما يمكنه أن يغير صفو المودة بينهما، كما حدث بالنسبة لبعض قبائل الشاوية، وبالتالي لم يكن تركيزها

(114) العبدوني : اليتيمة، ص.297.

(115) Villes et tribus du Maroc, les Doukkala (1932), p.134.

(116) انظر خريطة خدام الزاوية، ص. 40.

عليها بالشكل الكثيف.. ويفسر هذا إلى حد كبير بالموقع الجغرافي والوضع القبلي لهذه المنطقة[117] التي يغلب عليها الانسجام وقلة التجزؤ بالمقارنة مع الشاوية.

يعود الوجود الديني للزاوية الشرقاوية بدكالة إلى وقت مبكر، فقد كانت تصل منها إلى الشيخ الشرقي كميات مهمة من الهدايا والفتوحات[118].. وأقام حفيده عبد القادر بن أحمد البدوي ــ على ما يبدو ــ أول زاوية شرقاوية مهمة بالمنطقة[119]. ويفهم من المصادر أن اهتمام الزاوية بدكالة تزايد في حياة محمد المعطي، نتيجة حالة الفوضى والاضطراب السياسي والاجتماعي، التي عرفها مغرب ما بعد المولى اسماعيل، إذ توجهت جموع من المجاهدين من الزاوية وقبائلها لرباط ازمور بقصد الجهاد يرأسهم أبو العباس أحمد بن عبد الكريم العبدوني أحد إخوة مؤلف كتاب اليتيمة[120] بل إن الشيخ محمد المعطي توجه بنفسه خلال نفس الفترة مع جماعة من أصحابه وخاصته في موكب حافل إلى القطر الدكالي بغرض الصلح والمهادنة بين العباد، كما كان يفعل في تادلة والشاوية[121] فتلقاه علماء وأعيان وفقراء دكالة وعامتهم بكل مظاهر الاحترام والحفاوة..

وسجل ابن عبد الكريم أحداث هذه الزيارة وتفصيلاتها بقلم المعاين المشاهد والحاضر، اذ كان من جملة المرافقين.. فجاءت مذكراته معبرة كل التعبير عن مكانة هذا الولي الشرقاوي وأهميته في تلك البلاد.

---

(117) انظر الخريطة السالفة ص. 40.

(118) العروسي : المرقي، ص.304.

(119) الشرقاوي ع : الفتح، ص.182.

(120) العبدوني : اليتيمة، ص.280، 287.

(121) المصدر السابق، ص.280.

«واجتمعت عليه جموع كثيرة من خلق لا عدد له وعدة وخيول كثيرة.. وقضى لهم من الحوائج ما شاء الله أن يقضي.. ولقنهم ما يحتاجون إليه من سنن الشريعة المحمدية.. فكان عندهم ذلك الوقت عيداً عظيماً، ومهرجاناً كريماً.. وانتشرت في الناس كثرة الأذكار.. فكلمهم على الصلح والمهادنة بينهم وبين «عَبْدَة» فقالو : حبا وكرامة»[122].

ثم انتقل بعد ذلك إلى عبدة يرافقه كبار رجالات دكالة، وكان اعتناء هذه القبيلة الثانية لا يقل عن سابقتها سواء منهم سكان البادية أو حاضرتها آسفي[123].

وفي حالات أخرى عديدة كان الشيخ المعطي يكتفي بإرسال رسائله إلى هذه البلاد أو غيرها، فيلقى من أهاليها الاذان الصاغية[124]، كما هو الشأن عندما بلغه تجاسر بعضهم على حرم الولي الصالح أبي شعيب الصنهاجي (مولاي بوشعيب)، فكتب إليهم الرسالة التالية :

«الى الأخ في الله والمحب في ذات الله الحاج علي بن (بياض) ومن معه من أعيان دكالة، أخص منهم بوشعيب بن علي، وعامر بن يوسف، وعبد الخالق العمراني، أعانكم الله ورعاكم.. أما بعد، أرشدكم الله وهداكم ومن سوء العواقب وقاكم، بلغنا وأنكم جمعتم الجموع وحشدتم الجنود.. وخضتم حرم الولي الصالح والقطب الواضح.. أبي شعيب أيوب بن سعيد الصنهاجي نفعنا الله وإياكم ببركته.. أوصيكم وأحذركم.. من التجاسر على حرمه وهتك الستر على من لجأ إليه، واحتمى بحماه.. أعاذنا الله

(122) العبدوني : اليتيمة، ص.301، 302.

(123) المصدر السابق، ص.302.

(124) المصدر السابق، نفس المكان.

وإياكم من عداوة أوليائه، وسلك بنا وبكم مسالك أحبائه وأصفيائه..»[125].

ومن خلال تصفحنا لخريطة الصلاح بدكالة، نتبين مدى التكامل الذي تمثله زوايا دكالة الشرقاوية مع مثيلاتها ببلاد الشاوية[126] اذ أن احداها توجد بأولاد فرج على ضفة أم الربيع في الجهة المقابلة لاولاد سعيد الشاوية، في حين أن الثانية بالحوزية في فحص ثغر أزمور كقلعة لنشر تعاليم (الدين الاسلامي وصد غارات المحتلين المسيحيين المتحصنين بميناء «البريجة» (الجديدة)، التي لم يتم تحريرها إلا في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله العلوي عام 1768/1132)، هذا إلى جانب بعض القباب الشرقاوية المنبثة في مختلف قبائل دكالة، إلا أنها لا تعادل في شيء كثافة الوجود الشرقاوي بالشاوية دينيا وبشريا؛ نذكر منها :

ـــ مزارة لالة منانة الشرقاوية، في اولاد عامر[127].

ـــ مزارة سيدي البغدادي الشرقاوي في أولاد بوزرارة[128]

ـــ مزارة سيدي الشرقي الشرقاوي في أولاد بوعزيز، ويرجع أصل هذا الاخير إلى أبي محمد عبد السلام بن الشيخ الشرقي[129]، دفين أبي الجعد.

ويلاحظ إلى اليوم أن عدد خدام الزاوية من قبائل دكالة لا يمكن مقارنته بعدد الخدام من قبائل الشاوية مثلا.. إلا أن العديد من أتباع «الزاوية البوعزاوية» (نسبة إلى مولاي بوعزة دفين تاغيا) يضطرون إلى زيارة ضريح

---

(125) من وثائق المرحوم الحاج الشرقي الشرقاوي.

(126) انظر خريطة نفوذ الزاوية، ص. 40.

(127) Les Doukkala, T.I p.148.

(128) المرجع السابق، ص.150.

(129) المرجع السابق، ص.156.

الشيخ الشرقي، ولو لوقت قصير، قبل وصولهم ضريح أبي يعزى، بسبب شيوع وتمكن قولة مشهورة تنسب إلى الشيخ الشرقي، يفيد معناها :

«ان ما يمنحه الشيخ أبي يعزى يزيله الشيخ الشرقي وأن ما يعطيه هذا الأخير لا يزيله أحد..».

الفصل الثالث

○ ○ ○

القبائل كمورد اقتصادي للزاوية

أولا : أنواع الموارد.

ثانيا : موارد أخرى تكميلية.

الفصل الثالث

القبائل كمورد اقتصادي للزاوية

يصعب تحديد مقدار مداخيل الزاوية ومواردها المادية، بسبب انعدام سجلات خاصة بذلك، أو وجود تنظيم مالي واضح؛ ذلك أن وظيفة الزاوية الدينية تفرض عليها عدم الاهتمام الكلي بـ «متاع الدنيا الزائل» باعتباره وسيلة لا غير، للقيام بوظائفها الدينية والاجتماعية المتعددة إزاء روادها من «خدام» وفقهاء وطلبة.. بل إن ما يقدم إلى الزاوية لم يكن بالشيء القار والمحدد، فهو يرتبط بطبيعة المواسم الفلاحية والأوضاع الاجتماعية والسياسية السائدة، كما أن ما يدفعه الأتباع لم يكن يخص شيخ الزاوية وحده، بل يتعداه إلى باقي أبناء الزاوية من سائر الفروع[130].. الا ان هذا لم يمنع من وجود شكل معين للتنظيم المالي والاقتصادي للزاوية، من ذلك منصب «المقدم» الذي كان مكلفا بالائتمان على ما يصل إلى الزاوية من حبوب وغلل وماشية، ثم تصريفها بعد ذلك في أوجهها، خاصة ما يتعلق بالاطعام[131] بالاضافة إلى مقدم آخر ينظم علاقات الزاوية الاقتصادية الخاصة مع بعض الأصحاب والخدام في إطار المشاركة[132].

---

(130) العبدوني : اليتيمة، ص.309.

(131) كان عددهم غير قار، فمنهم من كان يتفقد مزروعات الزاوية مع أصحابها كما رافق أحدهم الشيخ محمد الصالح في رحلته إلى مراكش للاشراف على مصارفه وضيوفه.. في حين بقي مقدم آخر مكلف بنفس المهمة بالزاوية.

(132) المعداني : الروض، ص.186.

أولا : أنواع الموارد :

عندما زار الشيخ محمد المعطى دكالة؛

«أقبلت عليه عباد الله بالزيارات والهدايا والفتوحات والصدقات..»[133].

إن أنواع هذه الموارد، بالرغم من اختلافها، لا تعدو في نهاية الأمر أن تكون ترجمة لما يقدم للزاوية كمدخول نقدي أو عيني. ومع ذلك فهناك فروق — مهما كانت بسيطة — في التصور والتبرير لدى الخدام يستمد منابعه من العلاقات الدينية التي نسجت منذ أمد بعيد بين الأتباع والصلحاء.

أ — «الفتوحات» :

ففي زمان أبي عبيد الله الشرقي، كان يرد عليه من «الفتوحات» ما لا يعلم عدده إلا الله[134].. وأنه وردت عليه مرة من ناحية دكالة وحدها «سبعون قنطارا من السمن»[135] مما يفيد أن هذه الفتوحات تعني كل ما له علاقة بالزيارة أو الهدية أو الصدقة. مما يجعلنا نتصور مقدار ما كان يصل إلى الزاوية من المواد الاخرى، مثل الحبوب وغيرها.. سواء من دكالة وباقي المناطق التي تدخل تحت نفوذ الزاوية في كل من الشاوية وتادلا.. إذ يعبر الأتباع بواسطتها عن اعترافهم وتعلقهم بالشيخ وإقرارهم لبركته في الحرث والماشية..

---

(133) العبدوني : المصدر السابق، ص.306.

(134) العروسي : المرقي، ص.304.

(135) المصدر السابق، نفس المكان.

ب ـــ الصدقة :

تعني الصدقة الزكاة، كما تفيد كل عمل له طبيعة إحسانية وخيرية إلا أنه بالنسبة لمصادر الزاوية قد جاء يفيد أيضا معنى يشبه الندر أو «الوعدة»

«لكن ترفدون عشرين كبشا صدقة، فتطوعوا له بذلك..»[136].

ولاشك ان تصدق الاتباع وغيرهم بأموالهم للزاوية ما هو في الحقيقة الا تصدق لصالح المساجد وحلقات العلم، وللطلبة والمساكين وعابري السبيل.. باعتبار ما تمثله الزاوية من تجسيد لذلك من خلال نشاطاتها الدينية والاجتماعية المتعددة.. وبذلك كثرت إشارات المصادر إلى أنواع هذه الصدقات والهبات في مناسبات عديدة مثل تقديم دواب من أجل أعمال الزاوية الفلاحية، أو تحبيس أرض أو عين أو أشجار مثمرة لمساعدة الزاوية في مهامها، وهو ما يعرف بـ «الوقف» في الأسلام.

ج ـــ الهدية :

عندما خرج الشيخ محمد المعطي إلى ورديغة بطلب من تجار بني عمير بسبب ما أصاب قافلتهم العابرة لبلادهم من نهب وسلب، تعرض له في طريقه «القائد الرضي» بثور مليح وأهداه إليه[137]، مما يفيد أن الهدية يقصد منها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، الاعتراف بمكانة الشخص المقدمة إليه، أو طلب عفوه وصفحه أو تجنب غضبه، وذلك فهي في الغالب تتم من الأسفل إلى الأعلى ولا يكون العكس، واذا حدث فهو يقدم في شكل «انعامات وجوائز» التي منها ظهائر التوقير والاحترام التي يمنحها

(136) المعداني : الروض، ص.153.

(137) العبدوني : اليتيمة، ص.303.

الملوك والسلاطين إلى شيوخ الزوايا أو لبعض أصحابها المقربين، كما قدمت الهدايا إلى الزاوية بغرض الحصول على عفو من المخزن أو تجنب انتقام منتقم وأحيانا لتيسير الحصول على منصب ما، مثل «المشيخة أو القيادة» أو على الأقل تزكيتها من طرف شيخ الزاوية[138].

د ــ «الـزيــارة» :

تمثل «الزيارة» النموذج المثالي لهذه العلاقات المادية بين الزاوية وخدامها.. بل ان اسم «الزيارة» اخذ شيئا فشيئا يطغى على سائر المعاني السالفة، ويظهر أن أصلها الديني والصوفي يرتبط بطبيعة العلاقة بين المريد والشيخ، إذ يحرص كل منهما على استمرار التواصل والتزاور، لكي يستمر مفعول وقبس شيخه النوراني فيه، وقد اتسع هذا المدلول، ليعم طبيعة العلاقة بين الزاوية واتباعها في شكل تقديم قدر من المال سواء كان نقدا أو مواد أخرى، التماسا لبركة الشيخ وقدسيته.

فقد كان محمد الحفيان الرتبي السجلماسي، أحد تلامذة الشيخ الشرقي، قد حج أكثر من عشرين حجة.

«وكان إذا قدم لزيارة الشيخ يقدم بهدية عظيمة من كل ما يحتاج الشيخ وأهل داره حتى أنه يقدم بالمغازيل..»[139].

وعندما قدمت جماعة من طلبة «آيت عتاب لزيارة الشيخ محمد الصالح، كانت قد جمعت دراهم لزيارة الشيخ ــ قدرها خمس وعشرون أوقية، ثم أعطانا بعض من له تصرف في الأحكام المخزنية ثلاث أواقي قال : هذه زيارة الشيخ..»[140].

(138) المصدر السابق، ص.303 ــ 305.

(139) العروسي : المرقي، ص.300.

(140) المعداني : الروض، ص.154.

ان الزيارات ترافق الشيخ أينما حل وارتحل[141].. ولذلك كان يوجد من بين أعضاء الوفد المرافق له باستمرار «المقدم»، وتنقل الشيخ يكون دائما لغرض ما.. كما حدث أثناء زيارة الشيخ المعطي لبلاد دكالة وعبدة.

وعادة خروج أبناء الزاوية إلى مجال نفوذهم أمر شائع منذ وقت بعيد وإلى الان، وهو ما عبرت عنه المصادر بـ «التقاط المعروف»، وغالبا ما يتم ذلك في موسمي الربيع والصيف، ويكون للمناطق التي لا يتمكن أهلها في الغالب من الوفادة على الزاوية لتقديم «زيارتهم»، فيحل «الفقير» بأحد الدواوير، وينزل ضيفا عند أحد أعيان القبيلة، ويجتمع عليه الأهالي، فيشرع في تلاوة القرآن وأحزاب الزاوية وأذكارها، كما يحدثهم بسير اشياخها وكراماتهم، ويختم ذلك بالدعاء لهم ليبارك الله لهم في نسلهم وحرثهم.. بعدها يشرع الخدام في تقديم أنواع «الزيارات» من نقود وسائر أنواع منتجات الماشية من زبدة وسمن وصوف وغير ذلك؛ هذا في فصل الربيع، أما في فصل الصيف فاغلب ما يقدم يكون من الحبوب والماشية.

وتكتسي زيارة الخدام للزاوية أهمية قصوى من حيث العدد والامكانيات المادية، بعد الانتهاء من الأعمال الزراعية، بغرض تقديم واجبات وحقوق الزاوية عليهم في شكل اعتراف ضمني بدور «بركتها» في ضمان الموسم الفلاحي وانجاحه، وتقترن بهذه المناسبة بعض مظاهر الفرح والاحتفاء في شكل «موسم» تقدم فيه الذبائح، وهو ما يعرف بـ «التعركيبة» تتخلله العاب الفروسية ومختلف أنواع الرقص والأغاني الشعبية[*].

وقد جاءت هذه «الزيارة» على الأقل في حادثة واحدة تفيد معنى

---

(141) العبدوني : اليتيمة، ص.269.

(*) يمثل هذا الشكل المتأخر الذي اتخذه «الموسم».. ويبقى مع ذلك الجانب الديني والاجتماعي والاقتصادي لهذه التجمعات من النقط التي يجب البحث فيها.

صرف نصيب من الزكاة لصالح الزاوية،

«ان أهل «فم تاغيا» ضيق عليهم عاملهم في واجب زكوات الحبوب، فاجتمعوا ونظروا في أمرهم، وقالوا : تعالوا نحسب للشيخ واجبه في الزكاة ليخف علينا أمرها»(142).

واذا كان هذا الواجب وسائر أنواع «الزيارات» يصعب تحديدها، الا أن قولة أحدهم : «الدَّرْسَةُ الأخيرة للزاوية»(143) لها أهميتها ودلالتها.

هـ ـ الانعامات المخزنية :

إن ظاهرة تنازل الملوك عن أراضي وأملاك أو مداخيل الضرائب لصالح المؤسسات الدينية ومنها الزوايا الصوفية المهمة؛ أمر شائع، واتسع وتأكد على الخصوص بعد معركة وادي المخازن من طرف السعديين(144)، وقد وُجدت لدى الدلائيين ظهائر توقير واحترام في هذا المعنى..(145) كما أن زاوية أبي الجعد لم تشذ عن هذا الوضع بسبب مكانتها وأهميتها خلال هذه الفترة.

«وقد رأيت كتابا بخط جدهم الشيخ الأكبر.. سيدي مّحمد الشرقي.. وفيه ما ينيف على ثلاثين بطنا من قبائل شتى مكتوبا فيه وأن السلطان مولاي مّحمد الشيخ السعدي منح جوائز تلك

---

(142) الشرقاوي ع : الفتح، ص.284.

(143) عن الفقير المسن الحاج عبد الملك الشرقاوي.

(144) - M.Bellaire (1905); p.73

- Pascon (p)- Le Haouz de Marakech, T.I, p.27

- Laroui (A); Les origines.. p.148

(145) حجي : الزاوية الدلائية، ملحق رقم 1، ص.269.

القبائل للشيخ الشرقي يخدمونه ويدفعون له ما نابهم من أعشارهم وزكاتهم محبة لله وتعظيما له..»[146].

وبعد تجديد الزاوية على يد محمد الصالح زمن المولى اسماعيل الذي كانت تربطه بالزاوية وشيخها علاقات حميمة؛ يظهر أنه بدوره جدد للزاوية عددا من الامتيازات كما تدل على ذلك المراسلات المتأخرة (ق.19م) التي تستشهد بعلاقات الشخصيتين لتجديد ظهائر الاعفاء والتوقير[147].

ثانيا : موارد اخرى :

بالرغم من هذه المداخيل المتعددة، فقد وجدت علاقات اقتصادية أخرى مع «الخدام» :

أ ـ علاقات المشاركة :

ذلك أن شيخ الزاوية يشترك مع أحد أصحابه من الخدام في الأعمال الزراعية (خاصة الحبوب)، دون أن تفصح المصادر عن مضمون هذه المشاركة ونصيب المساهمة أو مقدار ما يحصل عليه كل واحد منهما من الانتاج، الا أن ما يقدمه هؤلاء الاصحاب للزاوية لم يكن مقننا بهذه الشكليات.

«..علي بن أبي يعزى السجدالي قال : كنت مشروكا مع الشيخ سيدنا الصالح في الحرث إلى أن مر بنا عام شديد الغلاء أظنه عام أربعة وثلاثين وكان من عادتي مع الشيخ إذا دفعت له زرعه ولم يكفيه أدفع له بعد ذلك من زرعي..»[148].

---

(146) العبدوني، اليتيمة، ص.97.

(147) ظهير مؤرخ ب 22 رجب عام 1308.

(148) المعداني : الروض، ص.227. (من القرن 12هـ).

ب ــ الحرث للزاوية :

«ذلك أن أهل المحبة من أصحابه ألحُّوا عليه وقالو له : يا سيدي أنت عليك كلفة الخلق وتباعة العيال وفيك الجود والاحسان ومعك كثرة الحياء فلا يليق بنا أن نتركك بلا حرث ولابد لنا أن نتسبب للزاوية في نصيب من الحرث كيفما أمكن، فقال لهم : إني لا آمركم بشيء وإذا أردتم أن تعملوا شيئا لله تعالى فلا تنسبوا لي شيئا»(149).

وكان «المقدم» يشتكي من قلة أموال الزاوية ومواشيها ودوابها، ضاربا المثل بإمكانيات الزاوية الناصرية الاقتصادية، بحيث أن الأبقار عندها لا تحصى؛...

«.. ونحن متوقفون حتى في بهائم الحرث للزاوية..»(150).

وسرعان ما تتوارد هدايا الخدام وتبرعاتهم ومساهماتهم في مشاريع الزاوية مع أصحابها «فزاد الله في البهائم والحرث(151)» ولاشك أن هذا التحول يعتبر مرحلة هامة في تطور علاقات الزاوية بخدامها فيما يخص تنمية مواردها الاقتصادية. كما أن علاقات «المشاركة» أو «مساهمة الخدام» (وهي ما يعرف بالتويزة) في هذه الأعمال الزراعية لم تكن تعني في شيء إعفاءهم من الكلف المخزنية. ومع ذلك فان ما يفرض عليهم يكون مخففا، سواء تعلق الأمر بحرثهم أو دوابهم وماشيتهم أو ما هو مشروك مع الزاوية وحتى هذا الوضع بدوره كان غير قار، إذ يرجع ذلك إلى سلوك وتصرف موظفي المخزن الجهويين ازاء الزاوية وأصحابها كما يوضحه النص التالي :

(149) العبدوني : اليتيمة، ص.57.

(150) المصدر السابق، ص.57، 58.

(151) العبدوني : اليتيمة، ص.57.

«.. ما حدثنا به.. الفقير علي بن أبي يعزى السجدالي قال : كنت نازلا ببلاد ورديغة في جملة من أصحاب الشيخ فخرج أصحاب الشريف الأصيل مولانا أحمد الذهبي بن السلطان الأجل مولانا اسماعيل.. على الأعشار ومعهم كاتبه السيد سعيد الملالي فأتيت إليه مع مقدم أصحاب الشيخ.. وتكلمنا معهم في أصحاب الشيخ إلى أن تفاصلنا معه بسبعين أوقية على أزواج أصحاب الشيخ، ثم أتى إليه محمد التازي العشاتي وزمم له أزواج أصحاب الشيخ سبعين زوجا وقال له كيف يعطون عليها سبعين أوقية ؟(152)».

ولما وصل الشيخ «الزمام»(153) ووقائعه، لم يجد شيخ الزاوية إلا التوجه بالدعاء والتضرع إلى الله عز وجل قائلا :

«الله تعالى لا يلحقه ليوم القبض(154)».

واذا كان النص يفيدنا وجود مقدم مكلف بأصحاب الشيخ الذين تربطهم بالزاوية علاقات اقتصادية ما.. فانه يؤكد حقيقة أخرى تتمثل في الوضع الخاص والمميز لهؤلاء الأصحاب المقربين بالنسبة لباقي خدام الزاوية.

ج ـ الخفارة :

تبلور دور الزاوية أيضا في تأمين سلامة قوافل التجارة، وتزداد هذه

(152) المعداني : الروض، ص.145، ويستثنى من هذا الوضع ظروف ضعف المخزن السياسي والعسكري.

(153) معناة كشف الحساب.

(154) المعداني : الروض، ص.154.

«فعن قريب جاء الحجام يزيل الدم من ذراعه فانتفخ دراعه إلى أن مات من بركة الشيخ ودعوته..».

الاهمية في أوقات الاضطرابات والفتن وغياب سلطة مخزنية ملموسة. فقد تعددت تدخلات شيخ الزاوية لدى القبائل ورؤسائها الذين تقع في مجالهم عمليات النّهب أو السلب، وهي في مجموعها تقع في مجال نفوذ الزاوية، مما ييسر لها القيام بهذا الدور الحيوي.. وقد كانت تشفع هذه التدخلات بهدايا من الطرفين التماسا لعفو «الصالح» وإقرارا لفضله وجزيل اعماله(155).

د ــ «المَـرْس» :

ويرتبط بعهد الشيخ محمد العربي قيام الزاوية بمهمة لا تقل خطورة وأهمية عن سابقتها وتتمثل في اتخاذ «حرم الزاوية» كمخزن جماعي لحبوب بعض القبائل خوفا من تعديات القبائل المجاورة، خلال فترات الفتن والاضطراب، من ذلك «مَرْس أولاد خَلُّو» الذي لازال مكان وجوده بزاوية أبي الجعد معاينا ومعروفا من طرف عدد من ابناء الزاوية(156).

هـ ــ السـوق :

اعتبرت «الزاوية» حرماً آمنا لتبادل المصالح التجارية سواء بين القبائل بعضها البعض أو بين تجارة المدن ومنتجات البادية، بل إن أثمنة الحبوب في بعض الفترات المجحفة يكون أرخص بالزاوية منه في بقية البلاد(157)، نظرا لما توفره الزاوية من أمن واستقرار للمعاملات التجارية، بالاضافة إلى

(155) العبدوني : اليتيمة ص.303. ومن ذلك أيضا دور الشيخ الشرقي في إرجاع بضاعة للشيخ الفقيه أحمد المنجور الفاسي.

(156) يوجد بساحة السوق القديم. مما يفيد أنه ليس «المَرْسْ» الوحيد (انظر موقع القبيلة بخريطة قبائل بني زمور. ص. 50.

(157) العبدوني : المصدر السابق، ص.278.

دور «الامراس» في تمويل حاجيات القبائل المجاورة من مادة الحبوب على الخصوص.

واذا كان حضور الزاوية في هذه المهام بالغ الدلالة.. فان مواردها ومداخيلها من ذلك أمر مسلم به، إذ أن تعدد وظائفها ومهامها يؤدي بالضرورة إلى تعدد الواجبات والحقوق المستحقة على ذلك في شكل مشابه لأجرة الطبيب والشرطي والقاضي والعدل..(158) إلا أنه لا يجب أن نغفل الجانب المرن والتطوعي والاختياري، في هذه العلاقات.. فما تطلبه الزاوية مقابل خدماتها ليس محددا ولا مقننا، كما أن ما يدفعه المستفيدون يتغير باستمرار تبعا لقناعاتهم الدينية من جهة، والأحوال الاجتماعية والاقتصادية السائدة من جهة أخرى،

وإذا كان المخزن وموظفوه يقومان بنفس الأدوار أو قريبا من ذلك خاصة مهمة الشرطي والحكم.. الا أن ما تدفعه الرعية مقابل ذلك لا يكون دائما طوعا وعن طيب خاطر..، ولاشك أن الفارق الملموس والموضوعي بين النموذجين هو أن الزاوية تعيد قسما كبيرا من مواردها لتوظيفه واستثماره في مجال نفوذها في إطار خدمات اجتماعية واقتصادية عديدة مثل : الاطعام، الايواء، التعليم، الوعظ الديني، سلفات، أداء الديون، مشاركة الخ.. مما لا نجد له نظيرا مماثلا بالنسبة لتعامل موظفي المخزن الجهويين مع القبائل على الخصوص.

وهذا لم يمنع من وجود فائض مالي ما، لذى الزاوية بلغ درجة كبرى من التناقض مع مصالح المخزن في نهاية القرن 18 وبداية القرن 19م، في عهد الشيخ محمد العربي، مما أدى إلى تفاقم علاقات الطرفين.

---

(158) Laroui, Les origines.. p.146.

وفي الأحوال العادية، فان أفراد الزاوية، لم يكونوا ـــ على الأقل ـــ في حاجة إلى شراء بعض المواد الرئيسية التي كانت مؤمنة من طرف الخدام باستمرار، وهي :

«الحبوب، الادام، الحطب»[159].

(159) مخابرة شفوية للحاج عبد المالك الشرقاوي.

الباب الخامس

○ ○ ○

الزاوية والمخزن
أو
الدور السياسي للزاوية

دلت أحداث المغرب السياسية أواخر القرن التاسع الهجري وبداية القرن العاشر على أهمية الزوايا ورجال الصلاح كقوة دينية لا تجارى في ميدان تعبئة الأمة ضد الخطر الأجنبي، أو من أجل تجديد هيكل البلاد السياسي.. إن الدين ليس فقط ايديولوجية لتبرير قيام سلطة دنيوية واستمرارها بهدف الحفاظ على وحدة الأمة واجتناب الشقاق.. فقد أثبتت الزوايا مدى إمكانية توظيف الدين من جانب الفئة المحكومة (الرعية)، باعتبار أن تغيير المنكر هو في معناه الواسع، ممارسة فعالة لتغيير الأوضاع الفاسدة داخليا، وتجنيب البلاد خطر هيمنة خارجية.

من هذا المنطلق برزت الزوايا خلال القرن 10هـ/16م وما بعده، كقوة تمتلك استعمال هذا الحق، والمناورة به أيضا.. ومن هذا المنطلق تحدد موقف المخزن منها، كإمكانيات مادية ومعنوية يجب الحفاظ عليها في حدود ما، نظرا لجدواها وتجذرها في أوساط المجتمع بمختلف تشكيلاته الاجتماعية والثقافية، سعيا وراء تسخيرها بشكل أو آخر لخدمة السياسة المخزنية، وبالطبع لن يكون هذا بالمجان؛ ففي الوقت الذي حافظت فيه الزوايا على مقوماتها الدينية والعلمية والاجتماعية، أضافت إلى ذلك عنصرا جديدا يتمثل في ضرورة التعامل والحضور في حركية العلاقة بين المخزن والرعية، لدرجة أنها أصبحت تمثل قوة ثالثة رابطة بينهما داخل هرمية المجتمع المغربي، فتحولت من مهمة الوساطة الدينية إلى وساطة دنيوية أكثر اتساعا وشمولا.

من خلال هذا المنظور، سنحاول أن نتتبع علاقات زاوية أبي الجعد بالمخزن، وكذا أبعاد ودلالات ذلك.

أشياخ الزاوية والملوك الذين عاصروهم

أشياخ الزاوية	الهجري	الميلادي	الملــوك	مدة حكمهم
	950	1543	محمد الشيخ السعدي	965/951هـ 1557/1544م
محمد الشرقي توفي 1010هـ 1602/01م			عبد الله الغالب	981/965هـ 1574/1557م
			←	
	1000	1592/98	أحمد المنصور السعدي	{ المتوكل عزل 983هـ عبد المالك توف 1012/986هـ 1603/1578م
فترة اضطراب أوضاع الزاوية ـ محمد الغزواني ـ عبد السلام ـ عبد القادر ـ محمد لمفضل	1050	1640	ـ فترة تدهور الدولة السعدية ـ الامارات المرابطية	من 1012هـ/1603 إلى 1076هـ/1666
محمد المعطي بن عبد الخالق : ت 1681/1092			مولاي رشيد العلوي	1076هـ إلى 1082هـ
محمد الصالح بن المعطي ت 1139هـ/ 1727-26م	1100	1689/88	مولاي اسماعيل	1139/1082هـ 1727/1672م
محمد المعطي ت 1180هـ 1767-66م	1150	1737	الأزمة العسكرية وتولية مولاي عبد الله	1171/1140هـ 1757/1728م
			محمد بن عبد الله	1204/1171هـ 1790/1757م
محمد العربي ت 1234هـ	1200	1786	←	
ت 1234هـ 1819-18م			مولاي سليمان	{ المولى اليزيد توفي 1206هـ 1238/1206هـ 1822/1792م
	1250	1835-34		

الفصل الأول

○ ○ ○

أبو عبيد الله الشرقي
والمخزن السعدي

الفصل الأول

أبو عبيد الله الشرقي والمخزن السعدي

ساهم صلحاء الطريقة الجزولية بشكل فعال في تأسيس الدولة السعدية وتسهيل تنفيذ مشروعها الوحدوي[1]، فقد أمر أبو عبد الله محمد بن مبارك أحد كبار الصلحاء؛ قبائل سوس :

«بالانقياد إلى السلطانيين الشريفين أبي العباس أحمد الأعرج وأخيه أبي عبد الله محمد الشيخ وأمرهما بالعدل والجهاد في سبيل الله لما رأى النصارى تغلبوا على سواحل تلك البلاد..»[2].

كما كان للشيخين أبي محمد عبد الله الغزواني وأبي عبد الله محمد المعروف بالرواين دور كبير في توطيد دعائم الدولة الناشئة بمراكش ثم في فاس في فترة لاحقة[3] الا أن هذه المساندة الصوفية تحولت إلى عرقلة في نظر السلطان محمد الشيخ السعدي من أجل خلق دولة قوية مركزة الادارة

---

(1) الافراني : النزهة ص.10 — 12، 16 — 20
— حجي م : الحياة الفكرية، ج1 ص.197 — 216
— كريم : المغرب في عهد الدولة السعدية، ص.35 — 39

(2) الأفراني : المصدر السابق، ص.11

(3) ابن عسكر : الدوحة، ص.97، 79، 80
— الأفراني : المصدر السابق ص.19،20. وجاء في الصفحة 28، «الشيخ أبو الرواين هذا كان أحد الأسباب في تمكين السلطان المذكور من الحكم وإخراج بني مرين منه..»
— نجمي (1981) : الملامتية، مجلة تاريخ المغرب، ع1. ص.52 — 57.

والجباية، فأقدم على فرض ضريبة «النائبة» وعممها على الناس بما في ذلك الصلحاء[4]، كما فرض على الناس المغارم والمطالب «وأمر بامتحان أرباب الزوايا المتصدرين للمشيخة خوفا على الملك لأنه دخله من بابهم..»[5] وان من جملة ما اتهمهم به «ودائع بني مرين» وقد أثار موقفه هذا سخط العامة والخاصة وجعله يدخل في حلقة من الصراعات الدموية ضد خصومه.

ان سياسة محمد الشيخ الدينية المتشددة؛ على ما يظهر لم تكن عامة، ذلك أن حزمه وشدته لم يكونا بمعزل عن حسن تدبير وتقدير للأمور؛ ففي الوقت الذي نهج فيه الشدة والعنف ضد من يعتبرهم خطرا داهما على دولته، نجده يسلك سياسة الليونة والمرونة إزاء صلحاء آخرين :

«.. أكتب لأولاد الشيخ خالد بأن لا يطوف أحد بساحتهم بمكروه أبدا مادام الملك في عقبنا، وأسقطهم من زمام الخراج..»[6].

وهو نفس النهج الذي سلكه إزاء صلحاء تادلة الذين ساندوا المشروع السعدي خلال النصف الأول من ق 16/10، ونذكر منهم علي بن ابراهيم التادلي، ومحمد بن بلقاسم الزعري والد الشرقي وهما من تلامذة شيوخ الطريقة الجزولية بمراكش خاصة الغزواني والتباع، بحيث لا نشك في دورهم الفعال في تيسير انتصار قوات محمد الشيخ بالمنطقة على الجيش الوطاسي سواء في معركة أبي عقبة (943هـ) أو غيرها، فأصبحت الامارة السعدية تمتد من تادلة شمالا إلى وادي نون جنوبا.. وإلى هذه الفترة يعود إقرار محمد الشيخ لاحدى الأسر المرابطية الصنهاجية بالمنطقة

(4) الافراني : المصدر السابق ص.38.

(5) المصدر السابق، ص.41

(6) ابن عسكر : الدوحة ص.116.

بكل مظاهر التوقير والاحترام ومنحها حق التصرف في اقطاعاتها وممتلكاتها(7). وكان ذلك بعد أخذه الحكم بحوالي ثلاث سنوات، وبعد هذا التاريخ بقليل كان سقوط مكناس (955هـ) ثم بعدها فاس (956هـ) في يد السعديين.. وإلى هذا التاريخ نفسه يعود تمتين روابط محمد الشرقي بالمخزن السعدي.

ففي مطلع الستينات من نفس القرن أنشأ الشيخ الشرقي زاويته الأولى بالدير التادلي على مسافة قريبة من موقع زاوية والده (قصبة تادلة).

وتدل كثافة هذا الوجود الصوفي بالمنطقة على مدى أهمية المنطقة خلال تلك الفترة، وكان من نتائج ذلك تردد أصداء تنافس وأحيانا تنافر بين صلحائها، بالرغم من وحدة موردهم الصوفي، الا أن ذلك لم يمنع اختلاف مشاربهم الدنيوية.

ويظهر أن أسرة الشرقي كانت تحظى بتشجيعات رسمية لتثبيت نفوذها وتدعيمه سواء في السَّهل أو الجبل، اما بهدف توزيع الولاءات الصوفية بين صلحاء عديدين أو للحد من نفوذ بعض صلحاء الجبل ذوي العصبية القوية مثل أسرة الدلائي الصنهاجية؛ ويشرح جانبا من هذا الاتجاه، مظاهر التوقير والاحترام والانعام التي شمل بها محمد الشيخ السعدي الشيخ الشرقي؛ إذ منحه جوائز بطون قبائل شتى «يدفعون له ما نابهم من أعشارهم وزكاتهم محبة لله وتعظيما له..»(8).

وقد اتضح من خلال نصوص أخرى أن معظم تلك القبائل من سكان السهل التادلي(9) مما يؤكد لنا جانبا آخر من سياسة محمد الشيخ الدينية التي تقوم على التوازن في بعض المناطق الهامة من مملكته. ولاشك أن

(7) ونعني به : سعيد بن أحمد الدلائي. انظر حجي : الزاوية الدلائية ص.30 وص.269.

(8) العبدوني : اليتيمة، ص.97.

(9) العبدوني : اليتيمة، ص.113.

تركيز السلطان السعدي على شخص الشرقي هو الذي أدّى في الغالب إلى موقف المناوأة والمضايقة الذي اتخذه صلحاء الجبل، مما جعل مشروع زاويته يفشل في فترة غير بعيدة عن تاريخ اغتيال محمد الشيخ، وهو في إحدى حركاته ضد القبائل البربرية بجبل درن عام 965هـ = 1557م.

لقد كان عبد الله الغالب مسالما ومهادنا للصلحاء عكس سلفه، فتقبل نصائحهم وأجزل لهم العطاء وخفض لهم الجناح[10] بل نجده يتخذ الشيخ أحمد بن موسى السملالي «وسيلته إلى الله تعالى، وسأله مع ذلك تمهيد الملك، واعتذر إليه بأنه لا يمكنه العيش بدونه، ولا يأمن على نفسه ولا تؤويه أرض إذا هو تخلى عنه، فقال الشيخ : يا عرب، يا بربر يا سهل، يا جبل، أطيعوا السلطان مولاي عبد الله، ولا تختلفوا عليه[11]» كما جدد ظهائر الأسرة الدلائية[12]، وبارك للشرقي تأسيس زاويته الثانية وأفاض عليه من نعمه، بحيث أصبح إحدى الدعائم الأساسية لمملكته إلى جانب ابن موسى والقسطلي والتمنارتي وابن حسين[13].

وكان من تبعات هذا النهج، أن قال عنه شيخه : «مولانا عبد الله ياقوتة الاشراف هو صالح لا سلطان..»، كما اشتهر عند الخاص والعام بكونه سلطانا عادلا ورجلا صالحا..[14] الا أن هذا الموقف من السُّلطان المذكور لم يكن الوحيد[15].. خاصة إذا علمنا ما نسب إليه من تواطؤ

(10) ابن عسكر : دوحة، ص.40، 65، 88.

(11) الناصري : الاستقصا، ج.5، ص.47.

(12) حجي م : الزاوية الدلائية، ص.44.

(13) الافراني : النزهة، ص.47.

ـ الناصري : الاستقصا، ج5، ص.54.

(14) الأفراني : النزهة، ص.46.

(15) المصدر السابق. ص.46 : «ثم رأيت في الرسالة التي كتب ابن اخيه أبو المعالي زيدان ابن أحمد المنصور.. ما يخالف ذلك ويوذن أنه كغيره من الملوك..».

وتخاذل إزاء المحتل المسيحي في مواقف سياسية وعسكرية حاسمة تتعلق بوحدة البلاد وسيادتها[16]. سيما وأن الأمر يتعلق بدولة قامت وبويعت على أساس الجهاد !

وبذلك دشن عبد الله الغالب سياسة جديدة اتجاه الزوايا والصلحاء، ستصبح نموذجا لملوك آخرين فيما بعد.. أساسها «التدجين» وشراء سكوت الصلحاء وربطهم بالدولة إلى جانب الابقاء على روابطهم بالعامة.

وهذا الاتجاه لم يمنعه من اتخاذ موقف صارم من حركات ودعوات دينية صوفية متطرفة أمثال : دعوة المرابط محمد الأندلسي ودعوة جماعة العكاكزة أو الطائفة اليوسفية[17].

إن موقف المخزن السعدي ـــ بعد الغالب ـــ من الشيخ الشرقي قد تزعزع وتسربت إليه بعض الشكوك، جعلت المصادر أصله لا يعدو أن يكون وشاية بعض الأعداء إلى السلطان أحمد الذهبي «وشنعوا عليه أراجيف كثيرة...[18]» ويظهر أن دافع ذلك ما بلغه الشيخ من نفوذ تجاوز منطقة تادلة إلى تامسنا وما جاورها، ووصلت أصداء ذلك إلى كل من فاس ومراكش.. فتعددت حالات الاختبار والامتحان للزاوية من طرف السلطان المذكور : فكان من جملة ما أنكر عليه بعض هؤلاء ؛ لباسه الملوكي البعيد عن لباس الأولياء والصلحاء..[19]» في حين أبدى أبو المحاسن الفاسي دهشته من سرعة شهرته وثرائه[20] بل إن القائد السفياني

(16) المصدر السابق، ص.49. ويتعلق الأمر بقضية : حجر باديس وثغر البريجة ثم ما وقع له مع أهل غرناطة.

(17) الدوحة، 109، 125
النزهة، 47.

(18) العبدوني : اليتيمة، ص.18 ـــ 19.

(19) الشرقاوي ع : الفتح، ص.117.

(20) العروسي : المرقي، ص.54.

ذهب أبعد من كل هذا وذلك اذ دبر لسم الشيخ وقتله[21].

إن ثراء الشرقي، كان يعبر عن سلطته الدينية والدنيوية التي أصبحت ذات إشعاع واسع بعد اختفاء أنداده من رجال الصلاح أمثال إبن موسى السملالي (م : 971هـ) وعبد الرحمان بن عياد الصنهاجي (المجذوب) (م : 976هـ) وعبد الله بن حسين دفين تامصلوحت (المتوفى 977هـ).. بل إن زاوية أبي الجعد أصبحت ملجأ للناقمين والمتذمرين من تصرفات كبار موظفي المخزن السعدي..[22]. وعندما شعر الشرّقي بخطورة الموقف الذي بات يتهدده ويتهدد أصحابه، بعث أحد أبنائه لمراكش لمقابلة السلطان أحمد المنصور، فكان من نتائج ذلك حصول تفاهم ما.. أعاد جو التفاهم والوئام بين الشخصيتين «واستمر الود بينهما والتعظيم والاحترام والتوقير والتبجيل..»[23].

وهذا الوضع الجديد، لم يمنع خصومه من الكيد له مرة أخرى.. وذلك بإشاعة أكاذيب وأقاويل سممت علاقات الشرقي مع شخصية صوفية ودينية وعلمية لها أهميتها في فاس وخارجها، ونعني به أبا المحاسن الفاسي[24]، بغرض إبعاد كل أسباب التواصل والتفاهم بينهما، في وقت ظهرت فيه بوادر زعزعة الثقة في النظام بسبب ثراء الجهاز الحاكم وما رافق هذا الغنى من تفسخ اخلاقي ترددت اصداؤه في سيرة أبناء المنصور

(21) الشرقاوي ع : الفتح، ص.100. والسفياني هـ : أبو اسحاق أو (أبو سالم) إبراهيم السفياني وزير احمد المنصور. (الناصري : الاستقصا ج5 ص.169).

(22) العروسي : المرقي، ص.300، أمثال محمد الحفيان السجلماسي الذي كان من أصحاب السلطان أحمد المنصور؛ ثم لجأ إلى الزاوية بعد أن فسدت علاقاته مع المخزن السعدي.

(23) العروسي : المرقي، ص.204.

(24) انظر علاقات الزاوية الشرقاوية بالزاوية الفاسية : الباب الثاني من الجزء الأول.

وبطانتهم، وما عرف عنهم من فساد وشذوذ وانغماس في الموبقات[25]، فكان تجاوب البلاد مع «ثورة الناصر» له أكثر من دلالة.

«ولما سمع المنصور بخبره، أحزنه أمره وتخوف منه غاية لأن الناصر اهتز المغرب لقيامه، وتشوفت له العيون، لميل القلوب عن المنصور لشدة وطأته واعتسافه للرعية..»[26].

لقد كان هذا الحادث أكبر امتحان لشيخ الزاوية الشرقاوية في وقت بلغ فيه من العمر عتيا.. ففي الوقت الذي وقف فيه الشيخ أحمد الصومعي على رأس القبائل التادلية المؤيدة للثورة، نجد الشرقي يتزعم الجناح المعارض والمتمسك بالشرعية[27].

إلا أن هذا لم يمنعه من إبداء النصح إلى الأمير زيدان بن أحمد الذهبي عامل تادلة بالقصبة الزيدانية، بعد أن «سمعت عنه حكايات تفر منها العقول، ومقولات يأباها المعقول والمنقول، فكتب له الشيخ كتابا بخط يده، وصرفه له مع أحد أولاده، وفيه :

«كتابنا هذا مؤيد بالنور الواضح، إلى الملك زيدان الشديد الناصح، أما بعد[28] فان الجهات الأربع تبرأت منكم، ولم يبق لك إلا ناحيتنا، فاسلكوا نهج العرب أو أنا بريىء منكم والسلام»[29].

---

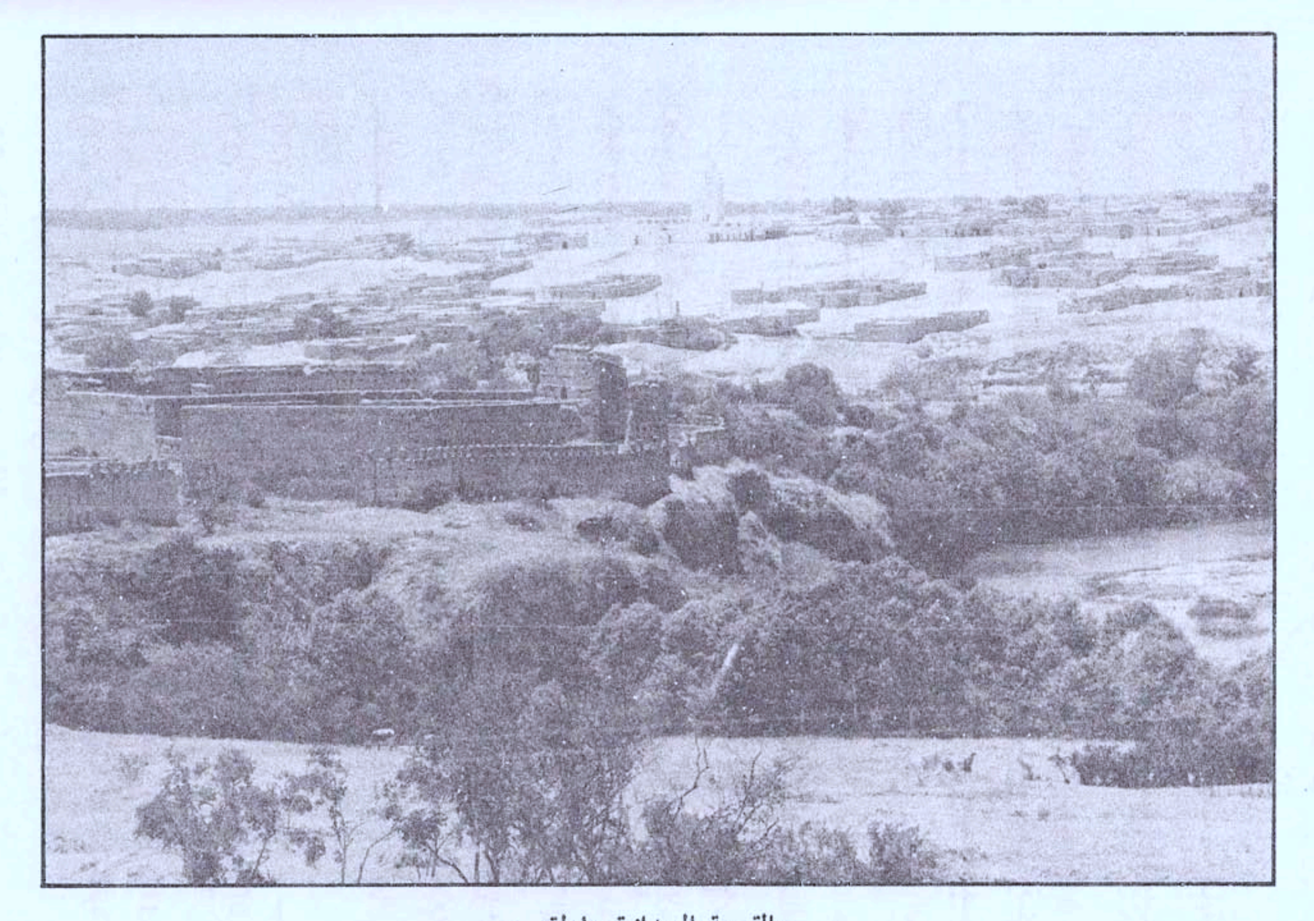
(25) الافراني : النزهة، ص.179

(26) الأفراني : المصدر السابق، ص.101.

(27) العروسي : المرقي، ص.205. والناصر ابن أخ أحمد المنصور، قام عام 1003هـ وتم القضاء على ثورته وقتله عام 1005هـ
ـ الناصري : الاستقصا، ج 5، ص.146 الأفراني : النزهة، 100، 101.

(28) وفي اليتيمة، ص.23 «اما بعد فان الأركان الأربعة محروسة عنكم وموقوفة إن لم تداركوها بالسياسة التي هي لكم موسومة ومعروفة، وأنا بريء منك».

(29) الشرقاوي ع : الفتح، ص.118.



«القصبة الزيدانية بتادلة»

نسبة إلى الأمير زيدان بن أحمد المنصور الذهبي، وهي من المآثر التاريخية الفريدة في المنطقة بالنظر إلى : موقعها ـــ هندستها المعمارية المتميزة.



أحد أبواب القصبة الزيدانية الذي مازال محتفظا بمعالمه المعمارية

الفصل الثاني

○ ○ ○

أزمة الحكم وأزمة الزاوية

أولا : تدهور الدولة السعدية

ثانيا : أزمة الزاوية

الفصل الثاني

أزمة الحكم وأزمة الزاوية

ساهم طول أمد الشيخ الشرقي في تثبيت دعائم مؤسسته الدينية ماديا ومعنويا.. اذ عاصر المراحل الحاسمة لتطور الدولة السعدية. فشهد وهو شاب وصول نفوذ الامارة الناشئة إلى تادلة، وكيف ساهم الصلحاء في صنع هذا الانتصار وتدعيمه، في حين عاش في كنف سلاطينها الكبار خاصة محمد الشيخ وعبد الله الغالب وأحمد المنصور الذهبي مما أكسبه تجربة غنية وعميقة أفادته في تقييم الأحداث من حوله، فحافظ على مكتسبات الزاوية، كما أفشل مؤامرات الخصوم مهما كان مصدرها : مخزنية كانت أم صوفية. وشاءت الظروف أن تكون وفاة الشيخ الشرقي عام 1010هـ غير بعيدة عن وفاة السلطان أحمد المنصور (1012هـ).

لقد بات من المؤكد تعذر فهم أبعاد التأثير الصوفي في المنطقة الوسطى للمغرب دون الوقوف عند شخص «قنديل تادلة» أو «سلطان الصالحين» كما كان يلقب، ولازال. بل إن أصداء هذا التأثير ترددت في مناطق أبعد (الغرب مثلا) ولم يتوقف الأمر عند هذه الحدود المكانية ولا الزمانية المرتبطة بحياة الشرقي.. بل تعداه إلى الأزمنة الموالية، فظلت ذاكرة المجتمع التادلي على مر الزمن تردد ذكرى الشرقي مقرونة أحيانا بذكرى المنصور الذهبي، الأول كصالح، والثاني كسلطان، قل من يجاريهما أو يضاهيهما.

«بعد محمد لا فقر وبعد أحمد لا سلطان»[30].

ولا شك أن لهذا الحنين ما يبرره سياسيا ودينيا، بسبب ما تكالب على البلاد والعباد مع مطلع القرن 11هـ/17م من نكبات ومحن كان في مقدمة ضحاياها المخزن السعدي من جهة وزاوية الشرقي من جهة أخرى.

أولا : تدهور الدولة السعدية : 1012 ـــ 1079هـ

عرف المغرب بعد وفاة أحمد المنصور (1012هـ = 1603م)، وعلى امتداد زهاء نصف قرن فترة من الاضطراب السياسي والاجتماعي، بددت معظم إمكانيات البلاد الاقتصادية والبشرية. فبالاضافة إلى تنازع أبناء المنصور على السلطة، ضرب المغرب وباء مستطير استمر من 1007 إلى 1016هـ كان من ضحاياه عاهل البلاد..[31] وقد استغلت الدول الاستعمارية هذا الظرف لتنفيذ مخططاتها التوسعية التي كان من عواقبها احتلال العرائش (عام 1610/1019) والمعمورة (1023 = 1614)[32].

فمن الناحية السياسية لم يقع الاتفاق داخل الأسرة الحاكمة (ابناء المنصور) أو بين أولي الأمر من أهل الحل والعقد على من ستسند إليه أمور البلاد دون سواه، بسبب الموت المفاجيء للسلطان أحمد الذهبي، في وقت خابت آماله في ولي عهده محمد الشيخ المامون[33]، كما أن

---

(30) العروسي : المرقي، ص.270.

(31) الأفراني : النزهة، ص.188. وبسببه توفي الشرقي وعدد من أفراد أسرته وكان الدافع إلى اخلاء زاوية أبي الجعد الأولى.

(32) الشادلي ع : الحركة العياشية، ص.26 ـــ 33.

(33) حول ثورة ولي العهد محمد الشيخ ضد والده أحمد المنصور انظر :
ـــ الأفراني : النزهة، ص.179 ـــ 183.

أجله لم يمهله حتى يختار خليفة جديدا له.. وزاد من صعوبة تحقيق الاجماع ما عرف به أبناء المنصور من قلة مروءة وانعدام الأهلية الدينية والسياسية معا. فكان الاحتكام للسيف بين الاخوة الملاذ الأخير مع ما يقترن بذلك من تشتيت لامكانيات البلاد العسكرية نتيجة توزع الولاءات بين هذا وذلك، في شبه حرب استنزاف داخلية أشعل نارها كل من زيدان الذي بايعه أهل فاس.. في حين بايع أهل مراكش أخاه أبا فارس باعتباره خليفة والده بحاضرة ملكه[34].. وقد التقى جيشا الطرفين على ضفاف أم الربيع فانهزم زيدان أمام الشيخ الذي كان يرأس الجيوش الشمالية نيابة عن أخيه أبي فارس، فاستغل محمد الشيخ انتصاره ليعلن نفسه ملكا على فاس بعد جلاء زيدان عنها[35]..

انتهت هذه المرحلة من الصراع العسكري[36]، الممتدة من 1603 إلى 1610 باستقرار زيدان بمراكش وصرف نظره عما يقع شمال أم الربيع، في حين استقر محمد الشيخ المامون بفاس بعد قتله لأخيه أبي فارس خنقا عام 1018هـ.

وتميزت المرحلة الموالية (1610 ـــ 1626) بتعقد الأوضاع وتداخل الأحداث، كان من أبرزها تسليم المامون مدينة العرائش إلى الاسبانيين (1019 = 1610) طمعا في مساعدتهم، فغضب عليه الشعب وقتله في ضواحي تطوان عام 1022هـ = 1613[37]. كما برزت على مسرح

---

(34) الأفراني : النزهة، ص.191 «وبعد امتناع أهل مراكش من بيعة زيدان ووقوع بيعتهم لأبي فارس كثر في ذلك القيل والقال حتى صدرت فتوى من قاضي فاس ومفتيها تصريحا بحديث إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الاخر منهما..».

(35) حول تفصيلات حروب ابناء المنصور، انظر : الأفراني : النزهة، ص.190 ـــ 196.

(36) قسم الأستاذ الشاذلي هذه التطورات إلى مراحل ثلاث، تنتهي آخرها عام 1658م.
ـــ الشاذلي : الحركة العياشية، ص.47 ـــ 48.

(37) حجي م : الزاوية الدلائية، ص.22.

الأحــداث السياسية شخصيـات دينيـة صوفيـة أمثـال أبي محـلي والحاحي[38]..

«والبعـض الاخـر اقـرب إلى رؤسـاء العصابـات منهـم إلى حكام»[39].

ترتب عن هذه الوضعية، تدهور الأحوال الاجتماعية والاقتصادية، كان المؤشر الأول لها ما ضرب المغرب من وباء ومجاعة في مطلع القرن 11هـ = 17م. «ووردت المهالك وسدت المسالك وعم الجوع.. فيا لها من مصيبة ما أعظمها[40]» هذا إلى جانب ما عرفته خطوط التجارة العالمية من تحول من البحر المتوسط إلى المحيط الأطلسي، في وقت لم تعد للبلاد امكانياتها العسكرية ولا ادارتها السياسية القوية التي باستطاعتها تأمين استمرار الانجاز الذي حققه أحمد المنصور بربطه خطوط التجارة الصحراوية بموانىء البلاد الأطلسية، إذ تحول هذا لصالح القوات الاستعمارية الأروبية في الغرب والأتراك في الشرق[41].

إن أهم ما تكشفت عنه هذه الأحداث، هو تكتل الرعية وراء قيادات دينية صوفية، بعد أن فقدت الثقة في زعمائها السياسيين.. فتحول بعض هؤلاء الصلحاء من التوسط في النزاعات أو ابداء النصح لأولي الأمر إلى تزعم الحياة السياسية نيابة عن المخزن في مرحلة أولى، قبل ان يستأثروا بالسلطة لأنفسهم بصفة نهائية. واذا كان بعض هؤلاء قد حالفه النجاح لوقت قصير (أبو محلي) فان البعض الاخر كوَّن امارات مهمة استمرت

---

(38) المرجع السابق، ص.132 ــ 134 و136 ــ 137.

(39) الشاذلي : المرجع السابق، ص.48.

(40) عبد الرحمان التامنارتي : الفوائد الجمة..، م.خ.ع (الرباط) رقم د.1420 ص.194.

(41) حول تدهور اقتصاد البلاد في مطلع القرن 17م، انظر : Histoire du Maroc (1967); pp.219-221.

المغرب الشمالي في منتصف القرن السابع عشر الميلادي



لمدة أطول (الامارة الدلائية بالوسط والشمال وامارة أبى حسون السملالي بالجنوب السوسي)، إلا أن أيا منها لم يكن بمقدوره أن يعيد للبلاد وحدتها ويلم شعثها، ومع ذلك فقد أعادت هذه الامارات إلى الأمة الشعور بقوتها، فتنافست في صد أطماع المستعمر، وتنادت للجهاد ولم تبرح مواقع العدو وحصونه إما بالهجوم أو التضييق عليه وحصاره ؛ مما أرغم المستعمر على إعادة النظر في وجوده، وبذلك أفشلت كل محاولة لتجاوز نقط ارتكازه؛ وهي نفس المقاومة الشعبية التي ستدفعه في نهاية القرن السابع عشر إلى الارتداد عن المعمورة والعرائش. وأهم هذه الامارات والزعامات الجهادية :

ــ المجاهد العياشي : في القسم الشمالي الغربي من البلاد[42].

ــ الامارة الدلائية : في وسط البلاد، والتي اتخذت كقاعدة لها منطقة تادلة[43].

ــ مجاهدو الشمال : أمثال آل النقسيس بتطوان، وعائلتي غيلان وأولاد أبي الليف شمال الازغار ببلاد الهبط[44].

ثانيا : أزمة الزاوية :

تأثرت زاوية أبي الجعد بأحداث مغرب النصف الأول من القرن السابع عشر الميلادي بشكل عميق، سواء منها ما كان ذا صبغة عامة وشاملة، مثل الوباء؛ أو ذا صبغة جهوية، باعتبار أن تادلة التي تمثل منطقة نفوذ الزاوية، كانت القاعدة الجغرافية والبشرية لانطلاق الامارة الدلائية وتوسعها إلى مناطق أخرى، بعد أن انحصر عنها نفوذ الملكين السعديين، زيدان وخلافاؤه بمراكش؛ ومحمد الشيخ المامون ومن جاء بعده بفاس.

---

(42) الشاذلي ع : الحركة العياشية، خاصة الباب الثاني من الدراسة، ص.79 ــ 184.

(43) حجي م : الزاوية الدلائية، خاصة الباب الرابع من الدراسة.

(44) انظر الخريطة بالصفحة 99.

ويمكن أن نحصر مظاهر هذه الأزمة في ما يلي :

أ ـــ مخلفات وباء مطلع القرن 11هـ : أشرنا في ما سبق إلى ظروف خروج الشيخ الشرقي من زاوية أبي الجعد الأولى (رجال الميعاد) في مطلع القرن 11هـ/17م، بعد أن تخطف الموت عددا من أفراد أسرته وأصحابه بسبب الوباء..[45] إلا أننا لم نجزم ان كان خروجه هذا وتوقفه غير بعيد عن المكان المهجور، من باب الاضطرار نظرا لكبر سنه (تجاوز الثمانين)، وتعذر تنقله إلى مناطق أبعد وأكثر أمنا.. كما كان يفعل العديد من سكان المدن وغيرهم بالتوجه إلى الجبل.. وكانت وفاته القريبة من الحادث، ودفنه بأبي الجعد الحالي، مؤشرا لتدشين تعمير نقطة جديدة، كما كانت في نفس الوقت إيدانا بتخريب واخلاء نقطة أخرى قريبة منها، ارتبط إنجازها وتعميرها بأخصب حياة وتجربة محمد الشرقي في سائر المجالات[46]. إلا أن قرب المسافة بين الموقعين (حوالي 1،5 كلم) جعل الزاوية الأولى تكسب الثانية ميراث وتراث هذه الشهرة، لدرجة أن الزاوية الأولى طوي أمرها وأسدل عليه الستار بصفة نهائية لصالح زاوية أبي الجعد الثانية، بفضل ما أنجزه الخلف من بعده.. وبذلك وصلوا ما انقطع، وجددوا ما عفى عليه الزمان أو كاد.

ب ـــ غموض أوضاع الزاوية في الفترة ما بين (1010هـ ـــ 1601/1079 ـــ 1668م)

إن الخلف لم يواجه فقط الأزمة البشرية والعمرانية، بل كان عليه أن يختار من بين ما تبقى من أبناء الشرقي خليفة له، إلا أنه بالطبع لن يكون

---

(45) انظر، ظروف تأسيس زاوية أبي الجعد، الفصل الثاني من الباب الأول (الجزء الأول)

(46) استمر تعمير زاوية أبي الجعد الأولى من منتصف القرن 10هـ/16م تقريبا، إلى بداية القرن 11هـ/17م (حوالي 50 سنة). (تعرضنا لذلك بتفصيل في الجزء الأول).

«سلطانا للصالحين» ولا «قطبا» فهذا المنصب لم يحاول أحدهم تسنمه أو ادعاءه، فكان المطلوب تأمين استمرار قسم من «بركته» من طرف أبنائه.

وقد انحصر الصراع بين كل من محمد الغزواني الذي كان والده قد خصه بـ «الشاقور» في حياته، كعنوان للقوة والمناعة وصلابة العود والشكيمة، وهي أوصاف عرف بها الشرقي أيضا، في حين خص منافسه «عبد السلام» «بالقُدُورِ»، تأكيدا لدور الزاوية في مجال الاطعام والايواء وتيسير حاجيات الأتباع والرواد.. وقد تم الاعتراف للغزواني في نهاية المطاف. بالاحقية والأسبقية.

وإذا كانت هناك في تاريخ المغرب فترات تتميز بالغموض فانه في تاريخ الزاوية نجد ترابطا بين الوضعين الخاص والعام.. إذ أن المدة الممتدة من وفاة محمد الشرقي عام 1010هـ إلى إعادة تجديد الزاوية في أواخر القرن، تكاد تكون غامضة وهذا لا يعني خلو المصادر من اشارات لها أهميتها.

ــ أشارت قولة الشرقي، إلى أن الأمور لن تتيسر لأهل دلاء إلا بعد اختفاء الغزواني..(47) واذا كان اشعاع الزاوية الدلائية دينيا وعلميا قد تجاوز حدود المنطقة خلال النصف الأول من القرن 11هـ، إلا أنه لم يكن بإمكانه أن يطفىء جذوة الاشعاع الصوفي الشرقاوي في منطقة تادلة على الأقل.. ويظهر أن هذا النفوذ دخل بدوره في حلبة الصراع السياسي خلال هذه الفترة، إذ تشير المصادر إلى استمرار الاتصال والمراسلة بين زيدان وأبناء الزاوية(48)، لما لهذا السلطان من علاقة وثيقة بالزاوية منذ أن كان

(47) انظر علاقة الزاوية الشرقاوية بزاوية دلاء (الباب الثاني من الجزء الأول).

(48) العروسي : المرقي، ص.204.

خليفة على تادلة بالقصبة الزيدانية[49]، ورغم انهزام زيدان أمام أخيه عام 1019هـ وصرف نظره عما وراء أم الربيع، فإن هذا لم يحل دون ولاء الزاوية واتباعها لمراكش وعاهلها، ولو من الناحية الاسمية فقط، كما هو شأن سائر شيوخ الزوايا والصلحاء شبه المستقلين جهويا عن السلطة الشرعية. هذا في الوقت الذي استمرت فيه علاقات الزاوية بالدلائيين في عهد محمد بن أبي بكر (المتوفى 1046 = 1636) لا يشوبها أي شائب، بسبب ترفع هذا الاخير عن الخوض في الصراعات السياسية بشكل مباشر؛ إلا ما كان من إحلاله مكان السلطة المخزنية في حل مشاكل الرعية جهويا؛ عندما عجزت هي عن ذلك[50] وهي المهمة التي يجب أن نفترض أن زاوية أبي الجعد كانت تقوم بها أيضا في مجال نفوذها وأتباعها من بسيط تادلا على الأقل.

وهذه الوضعية كان ولابد أن تخلق تماسا ما بين الزاويتين كنتيجة لاشتراكهما في منطقة النفوذ بتادلا؛ سيما بعد الاتساع والاشعاع الديني والعلمي وحتى الدنيوي الذي اكتسبته الزاوية الدلائية على حساب تدهور أوضاع المغرب عامة بما في ذلك إمارة مراكش[51] وإمارة فاس[52].

---

(49) نسبة إلى زيدان بن أحمد المنصور الذهبي وهي توجد على ضفة أم الربيع غرب قصبة تادلة. انظر الصورة بالصفحة 90.

(50) حول تفصيلات هذه الأحداث السياسية المتعلقة بتاريخ الزاوية الدلائية. انظر : محمد حجي : الزاوية الدلائية، الباب الرابع 131 ـــ 166.

(51) مات زيدان بن المنصور عام 1037 ـــ 1627 فتولى إمارة مراكش ابنه عبد المالك الذي قتل 1040 = 1631 ثم الوليد بن زيدان الذي قتل 1045 = 1636 ثم محمد الشيخ بن زيدان الذي قتل 1063= 1653 ثم ابنه احمد الذي قتل عام 1069 = 1658 وبه ينتهي حكم السعديين اذ خلفهم بمراكش عرب الشابانات إلى ان انتصر عليهم السلطان مولاي رشيد العلوي عام 1079 = 1668م.

(52) تولى الشيخ المامون إمارة فاس خلال فترات متقطعة إلى أن قتل عام 1022 = 1613 وتولى من بعده ابنه عبد الله الذي توفى 1032 = 1623 ثم عبد المالك بن المامون إلى أن توفي 1026 = 1627.

نستفيد من رسالة[53] بعث بها محمد بن أبي بكر الدلائي إلى أبناء الزاوية الشرقاوية في تاريخ غير محدد المعلومات التالية :

1 ــ إن المعني بالخطاب أبناء الشيخ محمد الشرقي : «سادتنا وأبناء سادتنا الأجلة.. سيدي أحمد المرسي وسيدي عبد القادر وسيدي محمد المالقي أبناء شيخ الاسلام وفخر الليالي والأيام حجة الزمان..»

وهذا يفيد أن المراسلة تمت في وقت لم يعد فيه لكل من محمد الغزواني وعبد السلام وجود؛ وأن الذي أصبح يتحمل شؤون الزاوية بشكل جماعي هم الأبناء الثلاثة للشرقي.

2 ــ يقترن هذا بازدياد نفوذ الزاوية الدلائية في المنطقة في حياة شيخها محمد بن أبي بكر في وقت لم تبق فيه لسلطة السعديين في جبال الأطلس وبلاد تادلا إلا الاسم؛ ذلك أن الشيخ محمد بن أبي بكر عاصر اكثر من ثلاثين سنة من عهد الفوضى والاضطراب (1012هـ إلى 1056 = 1603 ــ 1636) فكثرت تدخلاته واتسعت، بهدف حل المنازعات الفردية بقيادة أبنائه الثلاثة : عبد الخالق وعمر ومحمد الحاج. بحيث تجاوزت تدخلاته المستوى المحلي.

3 ــ في هذا الاطار تأتي رسالة محمد بن أبي بكر إلى أبناء الزاوية والتي تتضمن :

ــ الدعاء لهم بسداد الرأي.

ــ نصحهم بالتخلق بالانصاف وعدم مكابرة الحق بعد اتضاحه؛

«فالتنصل عن الاذعان للحق مع قيام الدليل على صحته وهم»

---

(53) وهي واحدة من ثماني رسائل أوردها الأستاذ محمد المنوني مع تعريف مقتضب. وهي تحت رقم 6438.

ــ المنوني : المصادر العربية لتاريخ المغرب، مجلة كلية الاداب (الرباط) عدد : 9، ص.292.

مما يجعلنا نتساءل عن حقيقة وطبيعة الخلاف في الرأي والتصور بين الشيخ الدلائي وأبناء الزاوية، والحاح الشيخ على ضرورة توحيد رأيهم حول موضوع ما.. يمثل الحق والصواب؛ في حين أن ما عليه أبناء الزاوية هو الباطل.

كما توضح الرسالة ــ رغم غموضها ــ بعض جوانب الخلاف المتمثلة في :

ــ كثرة التشكي من تصرفات الزاوية الدلائية.

ــ تحريف كلام شيخ الزاوية عن مواضعه وقصده.

ورغم كل هذا فالشيخ كان قد قرر عدم المكاتبة أو التوضيح؛ لأن سنه ووقاره لا يسمح له بالاشتغال بـ «بتلاعب الصبيان»، والا فكيف يعقل «أن يمنعكم من هو دونكم شأنا من اتباع الحق، إذ تستاشرون من ليس أهلا للمشورة..» معربا في نهاية الرسالة عن استعداده لمساعدة أبناء الزاوية على إخلاء حرمها من كل من انحاز إليها..

نستنتج من هذه الرسالة

ــ أن ممارسات الزاوية الدلائية الدنيوية المتسعة والمتنامية؛ اصطدمت بنفوذ الزاوية الشرقاوية؛ الذي يستمد مقوماته المادية والمعنوية من المساندة القبلية والدعم المخزني. وانها شكلت حاجزا و«حرما» يصعب تجاوزه أو تجاهله في كل الأحوال والظروف لاقرار سلطة الزاوية الدلائية في كل المنطقة التادلية.

ــ إن الرسالة تعبر عن تبدل جو الصفاء الذي تغير بين الزاويتين تحت ضغط ظروف البلاد وظروف المنطقة وهو ما ستتضح أبعاده بعد وفاة محمد بن أبي بكر.

ــ إن ابناء الزاوية الشرقاوية يعتبرون أن السلطة السعدية ــ رغم ضعفها ــ

هي السلطة الشرعية التي يجب أن تسمع وتطاع وأن غير هؤلاء يعتبر تطاولا لا مبرر له، وهذا على الأقل ما أكدته رسالة ثانية من البلاط السعدي بمراكش موجهة إلى عبد القادر بن الشيخ الشرقي «.. وحقوق أحبابنا في كل حالة مرعية وملحوظة وإن شطت بهم الدار وشحط المزار وتقادمت الأعصار..» فإن ذلك لم يغير «ما لديها في الانطواء والانتماء للجناب الأعظم والملاذ الأعصم جناب مولانا الامام ظل الله المسدول على الأنام..»[54].

ونستفيد من المراسلات المتبادلة مع البلاط السعدي زمن السلطان الوليد بن زيدان (1040 ــ 1045) موافق (1631 ــ 1636) أن الشيخ عبد القادر بن الشرقي أصبح المسؤول الفعلي عن الزاوية؛ وأنه عمل جهده للحفاظ على علاقات طيبة مع مملكة مراكش.

«... هذا وانه قد انتهى لعلي مقامنا ما أنتم عليه من المحبة الواضحة الاثار والمودة لهذه الايالة السامية المقدار بارك الله فيكم»[59] وفي نفس الوقت يطمئن أبناء الزاوية على نهجهم السديد وأن لهم مزية الايثار وكمال الاعتبار؛ ليختم الرسالة بحضهم على التمسك بالشرعية وندب الناس إلى ذلك :

«فكونوا عندما يراد منكم من استنجاد الناس لخدمتنا التي من سلكها فقد سلك أحسن المسالك..»

وصادف أن كان مقتل الوليد بن زيدان قريبا من وفاة محمد بن أبي بكر الدلائي (1046هـ ــ 1636) مما جعل شيخ الزاوية عبد القادر

---

(54) رسالة من أحد رجالات المخزن السعدي بمراكش إلى الشيخ عبد القادر بن الشرقي.
ــ رسائل سعدية : المصدر السابق.

(55) من رسالة بعث بها الوليد بن زيدان بدون تاريخ.
ــ رسائل سعدية : المصدر السابق.

الشرقي يبادر بإرسال بيعته وتهنئته إلى العاهل الجديد بمراكش السلطان محمد الشيخ الأصغر ابن زيدان. «.. فوقفنا على ما أنتم عليه من السرور بولايتنا والاستواء على كرسي مملكتنا ومركز رايتنا وكونكم في ذلك على سنن سلفكم مقتفون وبأثرهم المأثور مقتدون..»(56).

بل ان الرسالة تشير إلى طلب عبد القادر الإذن السلطاني في القدوم شخصيا على السلطان الجديد؛ مما يجعلنا نتساءل عن علاقة هذه الزيارة بمستجدات الأحداث في منطقة تادلا سيما وأن محمد الحاج ابن شيخ زاوية دلاء قد أفصح بعد وفاة والده عن تطلعاته السياسية وتشوفه إلى الزعامة والرياسة مما يعتبر تطورا حاسما في تاريخ علاقات الزاويتين وتاريخ منطقة تادلا.

أخذ بالفعل محمد الحاج الدلائي يعد لمشروعه على مختلف المستويات؛ مما جعل ملك مراكش محمد الشيخ بن زيدان (1045 ــ 1063) يسعى بمختلف الوسائل الترغيبية والترهيبية ليثنيه عن عزمه. الا أن محاولاته ذهبت أدراج الرياح. فانقطعت المراسلات بينهما في حدود عام 1047م.

وفي نهاية نفس السنة بعث محمد الشيخ رسالة جوابية إلى شيخ الزاوية عبد القادر مع ابنه محمد والذي نستفيده من هذا الخطاب(57).

ــ تعذر سفر عبد القادر إلى مراكش فأناب عنه ابنه محمد.
ــ قبول الاعتذار بسبب الاعتلال والمرض الذي ألم بشيخ الزاوية.
ــ التنويه بموقفه الذي هو موقف يميز العلماء الصادقين باعتبارهم

---

(56) رسالة من محمد الشيخ الأصغر بن زيدان إلى عبد القادر بن الشرقي بتاريخ 4 ربيع الثاني 1047هـ.

(57) من محمد الشيخ بن زيدان إلى شيخ الزاوية الشرقاوية عبد القادر بن محمد الشرقي بتاريخ 12 العقدة 1047هـ.

«أعرف الناس بقادة الخلق إلى الحق من دعاة العدل وأئمته.. والرضى عن آله الحافظين لنظام أمته..».

وفي هذا إشارة واضحة إلى موقف زاوية الدلاء المناوء؛ بسبب رفضهم البيعة والطاعة. «.. خصوصا مثلهم الذي شق عصا الشقاق وشرع يمد أيدي الأطماع في 'استخلاص القبائل في الافاق..»[58].

وبذلك احتكم الفريقان للطعان؛ فالتقى الجمعان على وادي العبيد بأبي عقبة (تادلا) عام 1048 = 1639 فكانت الدائرة على الملك السعدي؛ وانقطع بذلك نظر السعديين نهائيا عما شمله نفوذ الدلائيين من البلاد[59].

لكن هل كان يعني ذلك توقف الاتصال بين الزاوية الشرقاوية والسلطان السعدي بمراكش من جهة والزاوية الدلائية التي نزعت إلى الامارة من جهة أخرى ؟

إن العثور على الرسائل السالفة الذكر جعل إمكانيات الجواب عن التساؤل ممكنا؛ سيما وأن هناك رسالة نرجح أنها من محمد الحاج الدلائي والثانية موقعة من طرف محمد الشيخ بن زيدان.

الرسالة الأولى من محمد الشيخ بن زيدان مؤرخة بـ 7 ذي القعدة الحرام عام 1048 ويظهر من مضمونها أنها جاءت بعد هزيمة أبي عقبة؛ ذلك أن الشيخ عبد القادر بن الشرقي بعث عقب ذلك برسالة إقرار بالمحبة والولاء وفي نفس الوقت تتضمن معاني المواساة والتأسف «... إلى

---

(58) من محمد الشيخ بن زيدان إلى محمد الحاج شيخ الزاوية الدلائية.
ـــ الأفراني : النزهة ؛ 248.

(59) الأفراني : النزهة، 254.
حجي : الزاوية الدلائية، 150 ـــ 154.

ما ذكرتم أنه أدرككم من الأسف على ذلك الواقع.. وتوجعتم لذلك وأحزنكم حزنا لا يوصف..»

كما يشير الخطاب إلى وجود عائق ما حال دون وصول رسائل عبد القادر إلى مراكش.. ومع ذلك فالسلطان السعدي يعتبر الشيخ عبد القادر «من أولياء هذه الايالة العلية ومن أحبائها الذين يعتد بمحبتهم.. ويتقرب إلى الله تعالى بصالح أدعيتهم وبركتهم وهذه المكانة المتبتة أهم عندنا..»

في حين أن علاقات الزاوية الشرقاوية بمحمد الحاج الدلائي في هذا الظرف وصلت إلى أقصى درجات التدني بسبب تمسك أبناء الزاوية بحكام مراكش مما جعل محمد الحاج يغلظ لهم الكلام إلى درجة التوبيخ والتقريع «هذا وقد كان الظن المحافظة على أسباب الوداد وحسن السريرة وخالص الاعتقاد لما عودناكم من المودة والاحترام وحملناكم دائما على كاهل الميرة والاكرام..»

فأصبحت الزاوية الشرقاوية وما يحيط بها في نظره ملاذاً للفتنة؛ التي توجب اقتفاء آثارها؛ ولم يمنعه من استئصال جدورها إلا خشيته من ترويع الزاوية وابنائها «ثم انكم مع ذلك كله لم تعينونا على ذلك..» فأصبحت الزاوية في نظر محمد الحاج ملجأ للعداة والاراذل العتات؛ فأمرهم باخراج «جميع من انحاز إلى ذلك الحرم ممن هو من أهل الزيغ والفساد من العرب كان أو من العجم لينتفي خبث ذلك المقام...»

وشهد العقد الخامس من القرن الحادي عشر؛ تدعيم مركز ونفوذ الامارة الدلائية في وسط البلاد وشمالها اذ في عام 1051 = 1641 دخل محمد الحاج فاس بعد ضمه لمنطقة نفوذ العياشي في الغرب، ليتوجه بعد ذلك إلى تافيلالت لمنازلة محمد بن الشريف العلوي..

وأمام هذه التطورات ؛ يظهر أن الزاوية الشرقاوية خلدت إلى المسالمة والمهادنة؛ وأن اتصالاتها بالبلاط السعدي أصبحت صعبة؛ وما يصل من

رسائل الزاوية سرًّا يتضمن أول ما يتضمن :

ـــ تجديد العهد للسعديين والتعلق بالبيعة والتشبت بها.

ـــ الاخبار بأحوال البلاد التادلية ومختلف التطورات التي تعرفها.

ـــ في حين ان السلطان السعدي يقر لهم بالمكانة الرفيعة التي يحتلونها في عقد مملكته «فالذي يكون في كريم علمكم ان دارنا الكريمة داركم..»(60).

وأهم رد فعل ملموس ضد الدلائيين والذي يمكن أن نجد فيه بعض المساندة والتأييد المباشر أو غير المباشر من طرف الزاوية الشرقاوية؛ يتمثل في مقتل عبد الحق الدلائي أحد إخوة محمد الحاج وأحد قواده الكبار؛ من طرف أعراب تادلا غدرا، عندما كان راجعا من حركة تأديبية ضد أعراب الشاوية عام 1059هـ/1649م. إذ يمثل أعراب تادلا وأعراب الشاوية مجال نفوذ الزاوية الشرقاوية المباشر.

كان من نتائج هذا الوضع الجديد؛ زيادة التضييق على الزاوية ومراقبة أنشطتها مما دفع العديد من أبناء الزاوية إلى الهجرة؛ فتوجه سيدي أحمد البدوي بن عبد السلام إلى تارماست قريبا من وادي العبيد حيث أقام زاوية هناك، في حين استقر ابنه عبد القادر بدكالة، وهاجر عبد الخالق بن عبد القادر إلى مراكش، كما حط الرحال محمد المفضل بأحواز سلا، بعد أن كان يعمر زاوية جده مع سائر أبناء عمومته(61)، ومما يؤكد طبيعة هذه الهجرة الاضطرارية ما وقع بين محمد المفضل ومحمد الحاج الدلائي

---

(60) من محمد الشيخ بن زيدان إلى عبد القادر بن الشرقي (بتاريخ 22 جمادي الأول 1051هـ).

(61) الناصري : الاستقصا، ج7، ص.103. يظهر أن ذلك تم بعد اختفاء عبد القادر عن الأحداث.

من «مكاتبات ومعاتبات»[62]، عبرت إحدى ملحونات «الصالح» الشرقاوي عما وقع بينهما من جفاء، يترجم حقيقة تدهور علاقات الزاويتين الجارتين خلال هذه الفترة.

السَّطْو والْعَز كَمْقَام أهْل الدَّوارْ يَرحَلْ لَو يقيم سَانَ أو قْلِيلْ
شَمْسْ طَلْعَت بالضْيَا تَرْمِي بَشْرَارْ لَابُدْ مَنْ النْهَار يَعْرَض لَه اللَّيلْ
لَو لَبْسَت الَارْضَ كُلْ نور من النَّوَارْ غَدَّ إن جَاهَا الصَّيْف تَزْرَبْ وَتْهَرْولْ
أيَامْ الزَّهْو والسْرُور أيَام قْصَارْ وَلِّي فِيهُمْ طَامَعْ يدُوم غَرْ اهْبِيلْ[63]

شمل نفوذ الامارة الدلائية القسم الشمالي الغربي من البلاد، بما في ذلك الرباط وسلا وما والاهما[64]، مما جعل محمد المفضل الشرقاوي يسلك سياسة الحذر والتقية حتى في نشاطه الصوفي بأحواز سلا.

«وقد اشتهر قدره في الناس كثيرا، وكان يفر من ذلك، وإذا سأله أحد أن يتخذه شيخا يقول : نحن إخوة في الله والدرهم الكامل ينفق منه»[65].

وقبيل وفاة محمد المفضل بقليل، تناهى إلى مسمعه تباشير الصيف الذي أندر به صاحبه الدلائي؛ ففي عام 1070هـ وقعت الثورة ضد الدلائيين بالعدوتين، وشاركت فيها قبائل أعراب البادية المجاورة، بحيث لم تستطع نجدة محمد الحاج لابنه عبد الله المحاصر بالقصبة أن تغير شيئا، فاضطر إلى التسلل منها خلسة في شوال 1071هـ/يونيه 1661[66]

(62) المصدر السابق، نفس المكان.
(63) العروسي : المرقي، ص 287 وكذلك الشرقاوي : الفتح ص 135.
(64) انظر خريطة المغرب في منتصف القرن 17م بالصفحة : 99.
(65) الناصري : المصدر السابق نفس المكان.
(66) حجي : الزاوية الدلائية، ص 23، 224، 226.

وهي السنة التي توفي فيها محمد المفضل أيضا بأحواز سلا «فحمل إلى المدينة المذكورة، ودفن بطالعتها قرب المسجد الأعظم، وقبره اليوم مزارة عظيمة..»(67). ويبقى مع ذلك من الصعب تأكيد أو نفي مساهمة الصالح الشرقاوي الخصم للدلائيين في هذه الأحداث والتي شكّلت بداية النهاية لحكم هذه الأسرة، إذ تم القضاء على الامارة الدلائية وزاويتها في مطلع عام 1079هـ/1668م على يد السلطان العلوي المولى الرشيد.

ــ تعتبر المدة الفاصلة بين خروج محمد المفضل من زاويته وسقوط الامارة الدلائية من أكثر الفترات غموضا في تاريخ زاوية أبي الجعد.. فهل وقع تخريب الزاوية من طرف الدلائيين وطرد أبنائها ومن اتصل بهم ؟ أم أنه تم اصطناع أنصار لهم من نفس البيت الشرقاوي؟.. بيد أن خفوت الزاوية العلمي أمر مؤكد، لما تعرض له ابناؤها وأطرها من تشريد في طول البلاد وعرضها، وهو الجانب الايجابي الوحيد لهذه الفترة (!) إذ دفع هذا التشتت إلى توسيع دائرة ذكر آل الشرقي من طرف أحفاده، وتوظيف شهرته لصالح الزاوية ككل. فظهرت نتائج ذلك في كل من سلا والرباط وأحوازهما، وكذلك في الغرب ومراكش وتامسنا ودكالة.. ممثلة في قباب وأضرحة ومزارات أحفاد الشرقي هنالك، كما تم خلق تجمعات بشرية مرابطية شرقاوية في الأماكن المذكورة تزايدت أهميتها مع الزمان. وبذلك خدمت الأحداث الزاوية من حيث لا تدري، فكان تجديد الزاوية في ما يأتي، أمرا حتميا ومفروضا ومرغوبا فيه من طرف الأتباع والاحفاد على السواء، بل حتى من طرف السلطة الجديدة كما سنرى، حتى يتم جمع شتات بشري وصوفي، وربطه بقطب توجه مركزي، ليعزز بعضهما الاخر.

(67) الناصري : الاستقصا، ج7، ص.103.

الفصل الثالث

○ ○ ○

علاقات الزاوية بالمخزن العلوي

أولا : ظروف تجديد الزاوية

ثانيا : الزاوية في عهد المولى اسماعيل

ثالثا : الزاوية في عهد الشيخ محمد المعطي بن الصالح (المتوفى 1180هـ)

الفصل الثالث

علاقات الزاوية بالمخزن العلوي

إن زاوية أبي الجعد من الزوايا التي عاصرت دولتين : السعدية والعلوية، وكذا مرحلة الانتقال التي فصلت بين وفاة أحمد المنصور (1012هـ) إلى تحطيم الزاوية الدلائية (1079هـ).. إلا انها لم تشارك بشكل فعال فيما عرف بـ«أزمة الزوايا»، بسبب اختفاء مؤسسها في مطلع القرن 11هـ، وما اعقب ذلك من مشاكل وأزمات على الصعيد الوطني والجهوي (تادلا)، وعلى مستوى الزاوية أيضا.. فهل كان هذا عذرها حتى تجد من المخزن العلوي المساندة لاستئناف نشاطها، أم أن هناك ظروف أخرى ؟

أولا : ظروف تجديد الزاوية :

أ ـــ تحول الزعامة للفرع القادري :

رددت مصادر الزاوية في أكثر من مناسبة أحقية الفرع القادري (نسبة إلى عبد القادر بن الشيخ الشرقي) في الوراثة والخلافة، دون أن تلتفت إلى ما سبق لها أن أشارت إليه من تنافس في هذا المجال بين أخص أبناء الشرقي إلى أن انتهى الأمر لصالح الغزواني[68].. وهذا يفسر حقيقة الصراع الداخلي بين أبناء الزاوية حول الاشراف على تسيير شؤونها، إبان قيام الدولة

(68) للاشارة؛ فإن مؤرخي الزاوية عاشوا في كنف الفرع القادري الذي آلت اليه امور الزاوية في نهاية ق 11هـ/17م.

العلوية والذي تركز في النهاية بين أبناء محمد المفضل (المتوفى 1071هـ) خاصة محمد الحفيان وبين ابناء عبد الخالق خاصة محمد المعطى الذي هاجر مع والده إلى مراكش ورجعا معا إلى الزاوية مع بداية الحكم العلوي؛ دون أن ننفي وجود منافسين آخرين أقل أهمية.

استمر صدى هذا الشقاق إلى وقت متأخر، بسبب تحول زعامة الزاوية إلى الفرع القادري، وما أثاره ذلك من معارضة، كما يظهر ذلك من حدة لهجة الدفاع عن هذا الحق من خلال ما كتبه محمد المعطي بن عبد الخالق.. وبالطبع سيكون للسلطة العلوية الناشئة الكلمة الفصل في الموضوع بسبب موالاتها لفريق دون الاخر في إطار سياستها الدينية اتجاه الزوايا.

ب ــ استتباب الحكم للأسرة العلوية :

لقد أعاد المولى الرشيد للبلاد وحدتها وأقام أسس الدولة العلوية الناشئة في إطار دولة لم تستند لا على عصبية قبلية ولا على تأييد الزوايا كما هو الشأن بالنسبة للملكيات السابقة التي توالت على حكم المغرب.

وأهم ما تميزت به هذه الفترة :

ــ السرعة التي تمت بها وحدة البلاد واذعانها لطاعة الأسرة الشريفة الجديدة، مقابل ضعف مقاومة الخصوم. ويمكن تحديد هذه المرحلة من 1075[69] إلى 1081[70].

ــ ارتبط بقيام هذه الدولة تحطيم قوى دينية مختلفة ومتفاوتة الأهمية

---

(69) في هذه السنة وقعت المعركة الفاصلة بين الأخوين المولى محمد والمولى رشيد ببسيط أنكاد شرق المغرب فقتل الأول وانضمت وحداته للثاني وبايعته عدة قبائل عربية وبربرية بالناحية.

(70) وهي السنة التي تم فيها القضاء على آخر امارة مرابطية جنوب الأطلس (تازروالت).

مثل الشيخ أبي محمد عبد الله اعراس بالريف (1076) والخضر غيلان ببلاد الهبط (1077) وآل النقسيس بتطوان (1078)، ليتوج هذه الأعمال الحربية بتحطيم قوة الدلائيين في معركة بطن الرمان وتخريب زاويتهم عام (1079)(71) ؛ وبعد دخول مولاي رشيد مراكش وانهاء حكم الشبانات عليها في نفس العام خرج قاصدا بلاد سوس، فاستولى على تارودانت ثم ايليغ عاصمة أبي عبد الله محمد ابن أبي حسون السملالي ليضع حدا لهذه الامارة المرابطية (تازروالت) التي استمرت من 1036هـ إلى عام 1081م(72).

— ان سرعة تحرك وانتصار جيوش المولى رشيد، لجمع شتات البلاد، اذ تعبر عن ضعف هذه الزعامات الدينية الجهوية وعجزها عن توسيع دائرة نفوذها، واقتناعها بما حققته من مكاسب دنيوية وسلطوية؛ جعل العامة أو ما عبر عنه بـ «الرأي العام»(73) يخيب آماله فيها، إذ أن استقطابها لاهتماماتهم الدينية لم يوازيه تحقيق هدفهم السياسي الموعود به.. وأن هناك قوة معنوية ومادية أكثر مناعة وصلابة وتصميما وأحقية تتمثل في الأشراف من آل البيت والتي لم تغب عن ذهن محمد الحاج الدلائي في إحدى مراسلاته لملك مراكش السعدي «.. أو نستصرخ بمن مثلك شريف حقيقي وسلطان له شغف أكثر منك في ضبط الأوطان...»(74).

— ومع ذلك فان دور الصلحاء، لم يكن بعيدا كليا عن الأحداث؛ ذلك أن الشيخ أبا عبد الله اللواتي صاحب زاوية باحواز تازا، يسر للمولى رشيد الاستيلاء على خزائن اليهودي «ابن مشعل» والتي استعملها في

(71) حول هذه الاحداث : انظر : الناصري : الاستقصا، ج7 : 34 — 37.

(72) المصدر السابق، ص.40، 41.

(73) الشاذلي ع : الحركة العياشية، ص.70.

(74) الافراني : النزهة، ص.253.

تجهيز جيشه واصطناع الانصار والمؤيدين.. و«فرق منها على من معه من العرب والبربر وسائر الاجناد، فحسنت حاله وحالهم وعد ذلك من سعادته..»[75]، كما أن المولى رشيد بعد أن دانت له البلاد، لم يتردد في زيارة ضريح الولي الصالح أبي يعزى وصلحاء سلا[76]، في نفس الوقت بقي حذرا من سلطة الأدارسة ونفوذهم بفاس[77].. في حين توعد شيخ تامكروت سيدي محمد بناصر بشديد عقابه[78]، إلا أن وفاته المفاجئة حالت بينه وبين تحقيق ذلك (توفي المولى رشيد عام 1082هـ = 1672م).

اتبع المولى اسماعيل سياسة التوازن اتجاه الزوايا.. ذلك أنه لم يقض عليها كما لم يترك لها حرية التصرف التام، بل قنن أعمالها وتحركاتها وإن أمكن استعملها لصالح السلطة.. فما هو موقع زاوية أبي الجعد من هذه السياسة ؟

ج ــ المحاولات الأولى لتجديد الزاوية :

بدأت علاقات المخزن العلوي بأفراد البيت الشرقاوي في مراكش عندما كان محمد المعطي بن عبد الخالق مقيما مع والده هنالك، بعد أن تعذرت عليه الاقامة بزاوية أبي الجعد بسبب حدة المنافسات العائلية.

---

(75) الناصري : الاستقصا، ج7، ص.30 ــ 32.
دون اغفال دور المحور التجاري الذي فتحه المولى رشيد في شرق البلاد لتأمين تصريف التجارة الصحراوية عبر الشاطىء الريفي وبالتالي الحصول على الأسلحة والذخيرة. أنظر Histoire du Maroc (1967). p.239.

(76) المصدر السابق، ص.42.

(77) Drague(G). (1951). p.81.

(78) الناصري : المصدر السابق، 43.

«وانعزل عن جميع أهل البلد.. ورحل عنهم فارا بنفسه ولم يبال بامورهم إلى أن توفي..»[79].

وهناك لقي من السلطان العلوي المولى اسماعيل، كل احترام وتقدير، إلا أن أنفته وكبرياءه واعتزازه بنسبه وحسبه أثار عليه حساده الذين حاولوا «هضم جاهه.. وخفض جانبه بما أمكنهم من القدح في عرضه من دينه ودنياه..»[80].

«بل كان من جملة ما أنكر عليه أهل الزوايا والفقر والنسبة اتصاله بأولى الأمور بما في ذلك السلطان الحاكم»[81].

تعددت حالات دخول محمد المعطي بن عبد الخالق إلى زاوية أبي الجعد وخروجه منها إلى أن توفي عام 1092هـ اثناء احدى زياراته لمراكش. ويمكن ان نلخص احداث هذه الفترة التي تميزت بعدم الاستقرار بما يلي :

ـــ كان أول من توجه إلى زاوية أبي الجعد والده عبد الخالق في وقت غير محدد، الا ان ابنه محمد المعطي لم يكن يشاطره نفس الرغبة كما يظهر ذلك من خلال مراسلة له غير مؤرخة نقتطف منها ما يوافق المطلوب.

«الحمد لله وحده.. وبعد فنحن على خير وعافية.. وقد سمعنا بتوجهك إلى بلاد تادلة جمع الله شملنا على بسط اللطف والعافية.. وقد كتبت لنا بانك أزمعت (بياض) باقتفاء القبيلة وملاءمة الأهل والعشيرة.. فتأن في الانتقال فبحسن التأني تسهل

---

(79) العبدوني : اليتيمة، 83.

(80) نفسه، 94.

(81) المعداني : الروض، ص.437، انظر رده على ذلك في الجزء الأول؛ ص : 275.

المطالب... وان رأيت صغيرهم لا يوقر كبيرهم وكبيرهم لا يرحم صغيرهم وكل يريد الاستقلال بعقله وغايته الاعجاب برأيه.. فقد قيل بعد يورث الصفا خير من قرب يورث الجفا لأن الأقارب صاروا عقارب إلا اليسير ذو الحلم الغزير وقليل ما هم وها أنت قد جربت وتجرعت في كأس عداوتهم ما تجرعت وليس الخبر كالعيان ولعداوة الغير كمشاحنة الاخوان فاخبر الباقين، فان لمحت منهم ما قدمنا من الأوصاف.. وعدم التلوم والاعتراف فالا (—) في زمرتهم أولي والازدلاف منهم أسنى وأعلى..

ففي الحديث الكريم.. ان البلاد بلاد الله وان العباد عباد الله فحيثما وجدت خيرا فاقم واحمد الله ونظرك واسع ورأيك في الأمر أنجح»[82].

— التحق محمد المعطي بعد ذلك بوالده.. دون ان نستطيع الجزم بدافع هذا الانتقال، هل كان بسبب حالة والده الصحية وما اعتراها من سقم[83].. أم بدافع تعمير زاوية اجداده بتشجيع من الجهات الرسمية؛ إلا أنه ما كاد يستقر له قرار، حتى بعث لأحد معارفه بمدينة مراكش يوصيه بأن يبحث له عن دار تليق بمقامه ومكانته من أجل السكنى[84]، ولعل ذلك بعد وفاة والده ومواراة جثمانه بزاوية أبي الجعد.

— ويظهر أن ظروفا أخرى مستجدة هي التي دفعت من جديد بالشيخ محمد المعطي بن عبد الخالق إلى مغادرة الزاوية.. ولكن هذه المرة في

---

(82) المعداني : الروض، ص.446.

(83) المصدر السابق، ص.448. «.. وكيف وجدت نفسك من المرض الطائل.. وقد بلغنا انتقالك إلى حوز زاويتكم المعمورة حقق الله رجاءكم في عاقبته التي هي الشفاء وذهاب الألم..» من رسالة كتبها له أحد معارفه بمراكش.

(84) المصدر السابق، ص.449.

اتجاه فاس أولا ثم إلى سلا ثانيا حيث أقام بها مدة سنتين إلى أن زاره وفد تادلة وعرض عليه الرجوع إلى زاويته. ولاشك أن عزوفه هذه المرة عن مراكش يرجع إلى الأوضاع الغير المستقرة بها بسبب ثورة المولى أحمد بن محرز التي استمرت من 1085 إلى 1088هـ.

ــ مهد محمد المعطي لعودته إلى زاويته برسالة أوضح فيها أحقية خلافته واحتضانه لسر مؤسس الزاوية وبركته «وان ذلك ليس على عمومه حتى يطمع فيه كل منحرف جاهل مقصر خامل خالد في الهفوات مايل إلى الرعونات من السعي الصالح (85)..»

اقترنت عودة محمد المعطي إلى الزاوية بقيام اضطرابات وفتن أثارها أحمد بن عبد الله الدلائي واجتماع البربر الصنهاجيين حوله «وعيثهم فيمن جاورهم من قبائل العرب من تادلة إلى سايس..»(86).

بعث السلطان مولاي اسماعيل إلى المنطقة ثلاث حملات لم يحالفها النجاح، بل كانت كل مرة تنقلب على أعقابها خاسرة، إلى أن ترأس بنفسه الجيوش، فأوقع بهم وقعة شنعاء وهزمهم شر هزيمة(87).

انصرف الشيخ محمد المعطي بعد عودته هذه عام 1088هـ إلى تعمير زاويته، وإحياء معالمها وتنشيط حلقاتها العلمية، نظرا لثقافته وغزارة علمه وتجربته، مهتما بتعليم وتكوين نجله محمد الصالح، إلى أن أدركته منيته وهو في أحد أسفاره لزيارة صلحاء مراكش وأشياخه بها، فتوفي عام 1092هـ/1681. ودفن ازاء قبر شيخه التاملي بجنان العفو (العافية) خارج باب الدباغ.

---

(85) العروسي : المرقي. ص.262.

(86) الناصري : الاستقصا، ج7 ص.53.

(87) نفس المصدر والمكان.

ثانيا : الزاوية في عهد المولى اسماعيل :

إن موقف المولى اسماعيل اتجاه زاوية أبي الجعد بعد عام 1092هـ أملته عليه سياسته اتجاه الزوايا ككل، وموقفه من منطقة تادلة وقبائلها وصلحائها بصفة خاصة؛ إذ اقترن تدعيم زاوية أبي الجعد في عهد شيخها محمد الصالح (المتوفى عام 1139/26-1727) بتدعيم الوجود المخزني بالمنطقة في سائر المجالات، فبعد القضاء على ثورة أحمد الدلائي المؤازرة من طرف قبائل صنهاجة عام 1088هـ، ولما يمض على تخريب زاوية دلاء أقل من عشر سنوات.. نجده يتوجه بكل ثقله العسكري إلى المنطقة الجبلية الوسطى من البلاد، باعتبارها آخر معقل في مملكته لم تسد فيه كلمة المخزن، ولم يفرض فيها احترامه.

بدأت حملات السلطان العسكرية عام 1095هـ، مبتدئا بشمال الأطلس، ثم ناحية ملوية[88]، معززاً هذه الهجومات والانتصارات ببناء عدد من القلاع والحصون والحاميات التي كان آخرها قلعة آدخسان (خنيفرة) وزاوية دلاء في القسم الغربي[89]

«ولم يبق له بالمغرب كله، إلا قنة جبل فازاز، الذي فيه آيت أومالو وآيت يف المال وآيت يسرى..»[90].

وهي الجبال المشرفة مباشرة على سهل تادلة، فكانت وقعة جيوش السلطان بهم أشد، إذ أحاطت بهم أكثر من ستة جيوش معززة بالمدفعية وسائر آلات الحرب،

«فقامت عليهم القيامة، وظنوا أن الأرض قد زالت بهم، فحل بهم

(88) الناصري، الاستقصا، ج7، ص.66، 67، 68.

(89) المصدر السابق ص.70.

(90) المصدر السابق، ص.78.

القصبة الاسماعيلية «غرم العلم» (قصبة آيت ايكو)

القضاء، وتصرف فيهم البلاء كيف شاء..»[91].

وقد كانت هذه الوقعة الحاسمة عام 1104هـ، إذ لم تقم لهذه القبائل بعدها قائمة خلال فترة السلطان المذكور، فضرب من حولهم حصارا، وسحب منهم عدة حربهم من خيل وسلاح.

إن المولى اسماعيل، لم يكن يرتاح إلى فاعلية السلاح وحده، بل شجع على مد النفوذ الصوفي للزاوية الناصرية بالمنطقة، فأنشئت زوايا تابعة لهم[92]، كما انخرط في سلك طريقتهم كبار صلحاء الجبل والسهل، مثل زاوية احنصال[93] وزاوية أمهاوش[94]، ثم زاوية أبي الجعد ممثلة في شخص شيخها محمد الصالح.

ويقترن بهذه الفترة تثبيت دعائم زاوية أبي الجعد وتعميرها وتوسيع مجال نشاطها الديني والعلمي والعمراني لدرجة أنها أصبحت تستقطب النشاط العلمي لكل المنطقة بل وخارجها، وأن أهميتها السياسية كزاوية

---

(91) المصدر السابق، ص80.

(92) من ذلك زاويتان ناصريتان احداهما بتامسكورت (على الضفة اليمنى لأم الربيع) وزاوية الفايد (زاوية الشيخ اليوم) بين آيت اسحاق وقصبة آيت ورا. وقد توفي سيدي موسى بن سيدي محمد الكبير، وهو ثالث رئيس للزاوية الناصرية عام 1729م أثناء زيارته للمنطقة بزاوية الفايد، ودفن بتامسكورت. Drague(G); (1951) p.149.

(93) يرجع تأسيس زاوية أحنصال (قرب واوزغت) إلى عام 1091هـ/1680م، اذ خلف سيدي سعيد أحنصال شيخه سيدي علي بن عبد الرحمان الدرعي في تسيير شؤون الزاوية، وعندما توفي عام 1702م/1114هـ خلفه ابنه سيدي يوسف الذي توفي في ظروف غامضة إبان الصراع بين أبناء المولى اسماعيل، ويقول (دراك) إنه توفي أو اختفى عن الاحداث عام 1729م.
Drague(G); op.cit; p.167,173

(94) انخرطت هذه الزاوية في سلك الطريقة الناصرية في عهد علي بن حسين أمهاوش المتوفى ما بين 1730 ــ 1735. وتوجد الزاوية بمنطقة «لقباب» وسط الأطلس، وستلعب دورا سياسيا هاما في وقت لاحق. Drague, op,cit, p.150.

مخزنية تقع في السهل بالقرب من قصبة تادلة مقر الأمير والخليفة أحمد ابن السلطان المولى اسماعيل، تجلت في عدة مواقف تتمثل في ما يلي :

1 ــ تسخير واستغلال علاقات الزاوية بالمخزن من أجل التخفيف على أصحاب الشيخ محمد الصالح وأتباعه، وكل من استجار به، من تعسفات المخزن، خاصة موظفيه الجهويين من قواد وجباة، الذين أسرفوا في المصادرة والتعذيب، إما بفك أسرهم وتسريحهم من السجن، أو استعادة ممتلكاتهم، أو تخليصهم من القتل المحقق.. ففي الوقت الذي تؤكد فيه المصادر على أهمية هذه الشخصيات من الناحية الاجتماعية، تقر بأن ما كان يصيبهم، لم يكن له أي مبرر، إذ غالبا ما يتم الاجهاز عليهم بسبب وشاية كاذبة أو ما يشاع عنهم من امتلاكهم وادخارهم لأموال كثيرة واخفائها، «وكان من أمره أنه دفن قلة من الدراهم بقرب وادي الزم من بلاده» في حين أن قائدا آخر، هو عبد المجيد قبض على أحد أعيان قبيلة بني عمير وكبله من يديه ورجليه وبعثه ليسجن بمدينة سلا.

«وجمع الحاكم المذكور أمواله من غنم وبقر وإبل وخيل وبغال على عادة العمال..»[95].

مما اضطر الشيخ محمد الصالح إلى التوجه بنفسه إلى قصبة تادلة لمقابلة الأمير المولى أحمد، الذي أمر برد أمواله كلها في الحين.

2 ــ إن تدخل «الصالح» إلى جانب دافعه الديني والانساني، فإنه في نفس الوقت حماية لأصحابه ولثرواتهم التي تعتبر من أهم مصادر الزاوية المالية «وقال له : كل من أكل خبزة من غير خاطرك ضيق علي في داري»[96]. ويقصد بذلك موظفي المخزن، الذي اشتهرت قسوتهم

(95) المعداني : الروض، ص.202.

(96) المصدر السابق، نفس المكان.

واستبدادهم في ذلك الوقت، كما توضح ذلك رسالة الشيخ اليوسي المشهورة التي بعثها إلى السلطان المولى اسماعيل في الموضوع. إذ جاء في محورها الثالث الذي عنونه بـ «الانتصاف من الظالم للمظلوم وكف اليد العادية على الرعية» ما يلي :

«...فلينظر سيدنا فإن جباة مملكته قد جروا ذيول الظلم على الرعية فأكلوا اللحم وشربوا الدم وامتشوا العظم وامتصوا المخ ولم يتركوا للناس دينا ولا دنيا.. وهذا شيء شهدناه لا شيء ظنناه...»[97].

3 ــ تأييد محمد الصالح للسلطة الشرعية القائمة عند قيام بعض الثوار أو المناهضين المطالبين بالسلطة مثل ثورة ابن عم السلطان مولاي أحمد بن محرز[98]، أو حين قام عليه ولده مولاي محمد العالم[99] فقدم أعيان تادلة على الشيخ محمد الصالح وخاطبوه :

«ياسيدي، مولاي محمد بن اسماعيل عظم امره، واستقامت مملكته، والقبائل كلها توجهت إليه من تادلة وغيرها، وتشاوروا مع سيدي محمد بن عبد الرحمان الصومعي فأمرهم بالذهاب إليه، وقال لهم : اسبقوا موضعكم عنده فامتثلوا أمره ولم يبق إلا هؤلاء الوجوه.. فإن قلت نتبعهم على بركات الله وإن أخرتنا نتأخر.

---

(97) الناصري : الاستقصا، ج 7، ص.82 ــ 83.

(98) العبدوني : اليتيمة، ص.71 استمرت الثورة المذكورة لمدة 15 سنة من 1081 = 1671 إلى 1096 = 1685م وهي السنة التي تم فيها قتل ابن محرز ببلاد سوس.

(99) استمرت ثورة المولى محمد العالم بالسوس حوالي ثلاث سنوات وتوفي بعد أسره عام 1116هـ. قد يكون من المفيد البحث عن الدافع الحقيقي لثورات هؤلاء الأمراء ضد أبيهم مولاي اسماعيل.. وابعاد التبرير الوحيد والذي يفسر هذه الانتفاضات بالتعطش للسلطة.. سيما وأن بعض هؤلاء عرف بورعه وثقافته واستقامته.

فقال لهم الشيخ محمد الصالح : اتركوا أنفسكم فالسلطان نصره الله لا يد فوق يده..»(100).

ولم يكن الفقيه والعالم الصوفي محمد بن عبد الرحمان الصومعي الوحيد المؤيد لهذه الثورة، إذ أن أحد علماء ووجهاء البيت الدلائي وهو الشيخ محمد المسناوي الدلائي حامت حوله الشبهات، واتهم باطلاعه على خطة الأمير الانقلابية.. لولا أن تدخل بعض أنصاره الذين دفعوا عنه هذه التهمة وبرأوا ساحته أمام السلطان المولى اسماعيل(101).

4 ــ ويرتبط بهذا أيضا، دور زاوية أبي الجعد الديني والسياسي من خلال علاقاتها ومواقفها من صلحاء تادلة، خاصة الزوايا الموجودة بالجبل، أو القريبة منه، والتي لها علاقة مع برابرة صنهاجة مثل «زاوية الصومعة» «وزاوية احنصال» والزوايا الناصرية الفرعية الموجودة بالمنطقة.

ذكّر الشيخ محمد الصالح شيخ زاوية الصومعة محمد بن عبد الرحمان الصومعي السابق الذكر عند عودة هذا الأخير من الحج عام 1100هـ = 1688م واجتماع الناس عليه؛ أن تادلة «مملوكة للشيخ الشرقي من واد العبيد إلى تاقبالت(102)» وتأكد موقف التعارض ما بين الشخصيتين خلال ثورة محمد العالم التي حدثت ما بين (1114هـ ــ 1116هـ) انصرف بعدها شيخ الصومعة إلى النشاط العلمي والديني إلى أن توفي عام 1123هـ = 1712م.

ترسخ نفوذ زاوية أبي الجعد بعد هذه الفترة على امتداد خط القصبات المخزنية المواجهة للجبل، وهو النفوذ الذي حققه جده الشرقي في ظروف أخرى.. وقد كان من ضحايا هذا الحصار صلحاء الجبل أيضا. فقد ورد

(100) العبدوني : اليتيمة، ص.72.

(101) حجي م : الزاوية الدلائية، ص.245، 246.

(102) المعداني : الروض، ص.221.

على الشيخ محمد الصالح أحد صلحاء الجبل ونعني به محمد بن محمد بن عبد الرحمان الصومعي طالبا تدخله وتوسطه لدى القائد موسى الجراري، خليفة المولى أحمد على تادلة، بسبب ما ترتب عليه من ديون[103]، وتتكرر الحادثة مرة أخرى، إلا أن محمد الصالح يدفع له هذه المرة من ماله كدين عليه[104]، ولا شك أن الاحداث التي واكبت ذلك تستحق التسجيل بسبب ما توضحه من أوضاع في جبال تادلة، ودور الصلحاء خلال هذه الفترة، فبعد قضاء محمد بن محمد الصومعي لديونه التي بالقصبة، أخبر بأن «آيت محمد» من «آيت سري» قدموا يسألون عنه عند «أيت ابريش» من قبيلة «سمكت»، فقال لهم :

«انظروا منكم من يصل إليهم.. فوجدهم بضريح الولي سيدي علي بن عبد الرحمان[105]، فقالوا له : نحن لا نقدر على النزول إليه خوفا من المخزن.. لأنهم كانوا لم يدخلوا في طاعة الأمير[106]، وقالوا للرسول : قل لسيدي محمد يقدم إلينا لدير الجبل حتى نأمن على أنفسنا.. فلما التقى معهم قدموا له ما يزيد على ثمانين شاة من الغنم أكباش، وقالوا : ياسيدي هذه الغنم أتينا بها إليك زيارة.. وقالوا له : أردنا من سيدنا أن يتكلم مع القائد موسى يؤمننا في يدك حتى نكيل الزرع لأولادنا.. فأمنوا ونزلوا معه وباع لهم شعيرا كان له عند «آيت ابريش».. من نحو الثمانين غرارة، بمثقال للغرارة، لأن الزرع كان رخيصا بحيث لا يساوي تلك القيمة، وكان المرابط متحيرا في الزرع لعدم قدرته على نقله

(103) المعداني : الروض، 187.

(104) المصدر السابق، ص.264، 265.

(105) هو الشيخ أبو الحسن علي بن عبد الرحمان الدرعي دفين تادلة.

(106) ونعني به أحمد الذهبي ابن المولى اسماعيل وخليفته على إقليم تادلة.

لبلاد الصومعة التي كان بها قراره، ثم أمر المرابط خدامه من «آيت ابريش» المذكورين بشراء قيمة الزرع أكباشا من عند البرابر أيضا، فاشتروا بالثمن نحو ثلاثمائة كبش وبقيت الغنم عندهم إلى أن بلغ وقت بيعها فأمر ببيعها للتجار القادمين لشرائها فباعوا بتسع أواقي للكبش..»[107].

عندها أرجع للشيخ محمد الصالح دينه وفضل له مالا كثيرا. وستتضح أبعاد هذه المساعدة القيمة التي قدمها صالح أبي الجعد إلى صالح تادلة محمد بن محمد الصومعي وللقبائل البربرية المذكورة خلال الفترة التي أعقبت وفاة المولى اسماعيل..

دفع هذا الحصار العسكري والاقتصادي للجبل أيضا قبائل «آيت عطا» للاغارة على السهول التادلية القريبة منها، مما جعل الخليفة أحمد الذهبي يبعث برسالة استنكار في الموضوع إلى الصالح سيدي سعيد الحنصالي، ويطلب منه التدخل لديهم ليكفوا عادياتهم على مناطق غير بعيدة عن القصبة والمدينة السلطانية تادلة؛ لما له من نفوذ عليهم.. وهذه الرسالة مؤرخة بـ 24 صفر 1114هـ = يوليوز 1702[108]. وقبيل وفاة سيدي سعيد أحنصال بقليل حوالي 1699، يرد على السلطان المولى اسماعيل أحد احفاده بهدف الحصول على أرض له بتادلا قصد إقامة زاوية هناك، دون أن نجد ما يشير إلى موافقة السلطان على طلبه[109] إلا أن هذا لم يمنع السلطان من تجديد ظهائر التوقير والاحترام لهم، وفك أسر بعض المسجونين من قبل أمير تادلة بطلب من سيدي يوسف.. مع التأكيد على المرابطين الحنصاليين وتذكيرهم بواجبهم إزاء السلطة الشرعية

(107) المعداني : الروض، ص.265.

(108) Hammoudi(A), (1974). p.167, 168.

(109) المرجع السابق، ص.168.

(الخلافة) وذلك بحث اتباعهم على الطاعة والأذعان[110].

واذا كان موقف المخزن العلوي الاسماعيلي يتميز ازاء هذه الزاوية واتباعها بالحذر الشديد، فان موقف شيخ زاوية أبي الجعد من سيدي يوسف أحنصال كان أبعد من ذلك.. فعندما سمع محمد الصالح بوصول ركب من مدينة سلا إلى أبي الجعد، قاصدا زيارة سيدي يوسف أحنصال «صاح الشيخ (ر) وقال : ذئب غوت في الجبل (وأكلته) كلاب الوطا..» وقد علق صاحب اليتيمة على ذلك بقوله : وكان ذلك منه إشارة لما وقع له يوم قتل بقصبة تادلة و(أكلته) بعض الكلاب، كما عاين ذلك من أخبر بموته..»[111].

إن المهم هنا ليس الموت المأساوي للصالح الحنصالي، بقدر ما لهذه الاشارة من أهمية تاريخية، توضح من جهة حدة المنافسة بين زاوية السهل (أبي الجعد) وزاوية الجبل (احنصال) كما أنها من جهة أخرى تضع حدا لعدد من الافتراضات والتأويلات حول ظروف اختفاء سيدي يوسف أحنصال من الحياة الدينية والسياسية للأطلس الأوسط وتادلة بصفة خاصة[112]؛ إذ ان وفاته أو مقتله اذا كان قد تم فعلا وبصفة قطعية بعد

(110) المرجع السابق، ص.169.

(111) العبدوني : اليتيمة، ص.190.

(112) حسب «دراك» ان سيدي يوسف احنصال ساند أحد الأمراء العلويين من ابناء المولى اسماعيل (يّ احمد) ضد أخيد مولاي عبد الله. وان سيدي يوسف هزم في إحدى تحركاته من طرف قائد أيت عتاب، الذي احرق زاويته، فالتجأ إلى جبل «غنيم» وانقطعت اخباره، ويقترح عام 1727م كتاريخ لهذا الاختفاء، مع الجهل التام بظروف الوفاة أو القتل أو مكان الدفن (Drague, pp.177-173).

وقد أوضحت دراسات حديثة أن اختفاءه يعود إلى بداية الثلاثينات من القرن 18م وأن تدخل الصالح الحنصالي في الصراع بين أبناء المولى اسماعيل، أفضى به إلى مغامرة سياسية عسكرية ضد مولاي عبد الله حوالي 33 ـــ 1732.

- Morsy(M), 1972, p.14, 20-23
- Hammoudi, (1974), p.104-105, et 172-178.

وفاة المولى اسماعيل، فان ذلك ارتبط بفشل احدى المغامرات السياسية العسكرية الحاسمة.. تلك المغامرة التي اعتبرت امتدادا منطقيا لحركة محمد الحاج الدلائي(113).. إلا أن القوة المنفذة لها هذه المرة، تتمثل في إحدى القبائل المنشقة والخارج عن طاعة المخزن، ونعني بها آيت عطا وآيت سخمان بالأطلس الأوسط، والتي استغلت ظروف الصراع السياسي لمغرب ما بعد المولى اسماعيل لتتحرر من عقالها في محاولة توسع ونزول إلى السهل التادلي.

وتمثل سنة 1717م، حدثا بارزا في الوضع الديني والسياسي بمنطقة تادلة على الخصوص، إذ أنه بعد وفاة شيخ الزاوية الناصرية أحمد بناصر في التاريخ المذكور، يعلن الشيخ محمد الصالح الشرقاوي أنه وارث سره في القطبانية في وقت تزايد فيه نفوذ الزاوية الناصرية بتادلة سواء منها السهل أو الجبل، بل وشمل بلاد المغرب برمتها.. مما يجعلنا نرى في دعوته هذه محاولة جريئة لاستقطاب نفوذ الزاوية الناصرية بالمنطقة الوسطى على الأقل.. وفي نفس الوقت سحب هذا الحق من زوايا تادلية انشأها بعض أفراد البيت الناصري مثل زاوية الفايد (منطقة زاوية الشيخ) وزاوية تامسكورت (قرب خنيفرة) وبالتالي تدعيم موقف الزاوية الشرقاوية من الناحية الصوفية والدنيوية بعد أن تأكد اشعاعها الديني والعلمي؛ بل إنه لا يستبعد وجود تشجيعات ما.. في هذا الاتجاه، بسبب ما عرف عن زاوية أبي الجعد من مساندة للمخزن، لمواجهة نفوذ زوايا اخرى مثل زاوية أحنصال وزاوية أمهاوش التي بالاضافة إلى انخراطها في الناصرية، توجد مواقعها وجذورها البشرية في مناطق عرفت بمناوأتها ومقاومتها للسلطة المخزنية.

لقد مثلت زاوية أبي الجعد قلعة أخرى من قلاع المخزن الاسماعيلي

---

(113) Hammoudi, op.cit. p.173ss.

في منطقة عرفت بمناصبتها للسلطة الشرعية العداء المطلق لمدة طويلة مما استنفد امكانيات مالية وبشرية هائلة. واذا كانت أوضاع القصبات العسكرية ظرفية بسبب ارتباطها بالهيكل المخزني العام فان الرصيد الديني والصوفي للزاوية أضمن بقاء واستمرارا وفاعلية، من هنا جاء تشجيع السلطة المخزنية للزاوية والذي اتخذ عدة مظاهر، فمن بناء قبة مؤسس الزاوية وزخرفتها[114] وترميم بعض المرافق المحيطة بها، إلى اضفاء مظاهر التوقير والاحترام؛ فكان للشيخ محمد الصالح «التصرف التام والكلمة المسموعة في أعيان المملكة من قوادها ووزرائها وكانوا يذعنون لكلامه ويخضعون له ويحبونه..»[115].

ومقابل هذا كان الصالح الشرقاوي،

«واضعا يده على رأس السلطان الأعظم مولانا اسماعيل بن الشريف في وقته ومعينا له وحارسا لملكه..»[116].

عارض موقفه هذا أهل الوقت من الصالحين[117]، كما عارض بعضهم الاخر ادعاءه القطبانية[118]، إلا أن دفاعه عن موقفه وتبريره لمسلكه كان يستمد جذوره من واقع البلاد ومعطياتها كما هو ماثل في تاريخها السابق والمعاش؛ ملخصا ذلك بقوله :

«كل ما يفسده الملك في مدة مملكته تفسده الرعية إذا سابت في

---

(114) ابن زيدان : المنزع اللطيف في التلميح لمفاخر مولاي اسماعيل بن الشريف. م.خ.ع. الرباط، رقم. 595 ج، ص.393.

(115) العبدوني : اليتيمة، ص.71.

(116) المصدر السابق، ص.70.

(117) المصدر السابق، نفس المكان.

(118) المصدر السابق، ص.335. قد يكون من المفيد النظر إلى «القطبانية» بشقها الديني والدينوي. وهو ما أشرنا إليه في زمن الشيخ الشرقي أيضا.

مدة قليلة..»[119] الا أن «السيبة» في بعض منطلقاتها، تستمد وازعها ومحركها من النظام المخزني نفسه، كما يظهر ذلك من تكرار الصراع والتنافس عن الحكم بين الأمراء والأدعياء من البيت الحاكم مباشرة بعد اختفاء الحاكم القوي، وأحيانا قبل وفاته، فتتحول وحدة البلاد إلى زعامات جهوية شبه مستقلة وأحيانا متصارعة فيما بينها.

ثالثا : الزاوية في عهد الشيخ محمد المعطي (1139 ـ 1727-26/1180 ـ 1766)

شهد عام 1139هـ = 1727م اختفاء السلطان العلوي المولى اسماعيل، وقبله ببضعة أشهر توفي أيضا الشيخ محمد الصالح بزاوية أبي الجعد[120]، بعد أن طبعت الشخصيتان معا تاريخ منطقة تادلة سياسياً ودينياً بفضل انجازاتهما ومجهوداتهما كل في ميدان عمله، خلال مدة تتجاوز الأربعين سنة. وقد أكدت رسالة التعزية التي بعثها الأمير مولاي عبد المالك بن اسماعيل إلى نجله ووارثه محمد المعطي هذه المكانة والأهمية[121]، اذ وصفه في أحد أبيات قصيدته التأبينية بقوله :

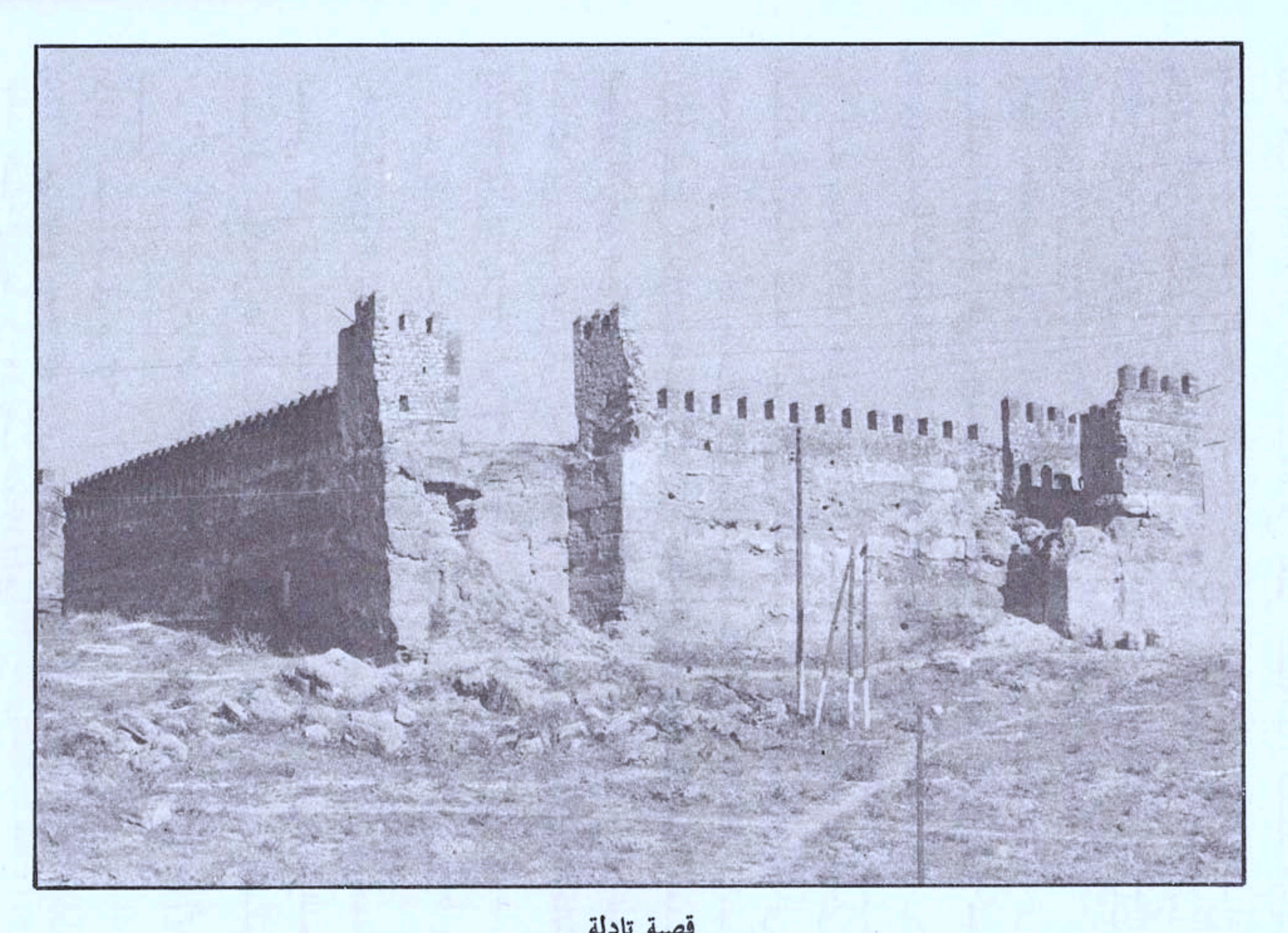
لقد كان مصباحا لأهل زمانه وحامي دمار الدير من كل ما غمط

استطاعت الزاوية ان تتلافى مشكل الخلافة، نظرا لما اشتهر به محمد المعطى الابن بين الخاصة والعامة من علم وتقوى واستقامة، بل إن والده خصه في حياته بوراثة القطبانية بعد وفاته؛ إلا أن الزاوية مع ذلك لم تسلم من تأثير الاضطرابات من حولها، بسبب ما توالت على البلاد من فتن

(119) المصدر السابق، ص.70.

(120) توفي الشيخ محمد الصالح في 12 صفر عام 1139هـ في حين توفي السلطان المولى اسماعيل في 28 رجب عام 1139هـ.

(121) المعداني : الروض، ص.351، وهي مؤرخة بسادس ربيع النبوي 1139هـ.



قصبة تادلة

(الأسوار الجنوبية الغربية على الضفة اليمنى لنهر أم الربيع)

وحروب وصراعات سياسية وعسكرية دامت زهاء ثلث القرن من 1139هـ ــ 1171هـ/1727 ــ 1757م).

عاصر شيخ الزاوية الجديد عهد الأزمة، إلا أنه عايش قسما من حكم السلطان سيدي محمد بن عبد الله[122]، اذ توفي (عام 1180هـ/ 1766) في وقت أخذت فيه البلاد تسترجع استقرارها وانضباطها.

أ ــ الزاوية الشرقاوية وأزمة 1139 ــ 1179هـ :

تميزت الفترة التي أعقبت وفاة المولى اسماعيل باضطراب سياسي خطير، أشعل ناره كثرة المطالبين والمتنافسين على العرش من بين أبناء السلطان المختفي، وكان وقود هذه النار ومؤججها جيش العبيد بصفة خاصة؛ الذي استغل تفرق كلمة البيت السلطاني ليستبد بأمور التولية والخلع، وضرب أبناء المولى اسماعيل الواحد بالاخر.. فبعد أن تولى المولى أحمد الحكم بعد والده، أظهر خلال سنة واحدة من سوء السيرة وضعف التدبير ما لم يكن جديرا بخليفة لسلطان في مثل حزم وتدبير والده، فخلفه أخوه عبد المالك الذي لم يجن من وراء سياسة التفرقة بين العبيد والبربر الا تفسخ دولته، وازدياد النقمة عليه وعزله في نفس السنة التي تولى فيها (1140هـ) ؛ ليعود العبيد من جديد لمبايعة المولى أحمد مرة ثانية.. وبوفاة هذا الأخير في شعبان عام 1141هـ واغتيال أخيه عبد المالك في نفس الشهر والسنة؛ تدخل البلاد في سلسلة من التجارب المريرة استنفذت امكانياتها البشرية والمالية، فتولى الحكم المولى عبد الله ثم المولى علي بن اسماعيل (الأعرج) ومحمد ابن اسماعيل (ابن عربية)

---

(122) حكم السلطان سيدي محمد بن عبد الله 1171 ــ 1204هـ.

والمولى المستضيء ثم زين العابدين[123].. ويظهر أن حظوظ السلطان مولاي عبد الله بن اسماعيل في التولية والعزل، كانت أحسن وأكثر من سابقيه ومنافسيه ؛ فكانت آخرها بيعة عام **1163** بعد أن رفض ابنه سيدي محمد الخليفة على مراكش، بيعة العبيد له «وكانت هذه هي البيعة السابعة للعبيد مع السلطان المولى عبد الله لأنهم خلعوه قبلها ست مرات..»[124].

في خضم الصراع السياسي والعسكري، الذي كان مركزه منطقة فاس ومكناس وما يحيط بهما من القبائل، تبدو معلوماتنا عن باقي المناطق جد ضئيلة؛ إذ دخلت في مرحلة التفتت والخروج عن الطاعة، والتكتل حول بعض الشخصيات الدينية أو الدنيوية للحفاظ على وجودها أمام غارات الجيران «ولم تنج إلا قبيلة تدافع عن نفسها أو من هو في قرون الجبال..»[125].

وقد كانت منطقة تادلة من المناطق الأكثر اضطرابا، بسبب تحرر القبائل من جبالها التي كانت محاصرة بداخلها نتيجة اخلاء القصبات من أجنادها وتوجههم إلى بؤرة الصراع والمنافسة، من هنا تبدو إشارات كتب التراجم جد قيمة، لأنها في الوقت الذي تتعرض فيه لبعض أحداث الزاوية، لم يكن بامكانها أن تخرج عن الاطار التاريخي والجغرافي والبشري لهذه الأحداث.

---

(123) تولى زين العابدين الحكم عام 1154هـ، وهو يمثل تاسع بيعة منذ وفاة المولى اسماعيل عام 1139هـ، بويع المولى عبد الله خلالها مرتين وكذلك الشأن بالنسبة للمولى أحمد. انظر بتفصيل :
ـــ الناصري : الاستقصا، ج 7، ص.114 ـــ 156.

(124) الناصري : المصدر السابق، ص.183.

(125) العبدوني : اليتيمة، ص.276.

وجه السلطان المولى عبد الله خلال فترة حكمه الأولى حملتين ضد برابرة الأطلس الأوسط، الأولى عام 1143هـ، والثانية عام 1146هـ[126] في حين أن خلفه المولى علي دشن حكمه بغزو نفس الجبال عام 1148هـ[127] وإلى هذه الفترة يعود استفحال الفتن والثورات بالمنطقة، والتي أطنب في وصفها مؤلف كتاب اليتيمة موضحا أن ظهور الشيخ محمد المعطى في هذا الوقت دليل على عناية إلاهية بالغة الدلالة؛ حتى يخفف على العباد بعض ما يعانونه[128]، سيما وأن هذا الوضع ازداد تفاقما بسبب حلول المجاعة، وانحباس المطر؛ على الأقل من عام 1149هـ إلى عام 1151[129].

تبلور عمل شيخ الزاوية إبان هذا الظرف الحرج في عدة واجهات، نجملها فيما ياتي :

1 ــ الصلح والمهادنة :

تمثل ذلك بالدرجة الأولى، في التخفيف من حدة الاصطدام بين القبائل البربرية الجبلية الزاحفة نحو السهل وبين المستوطنين للسهل التادلي، فقد ترددت أصداء هذا الصراع في أكثر من مناسبة، كما تكرر لجوء سكان هذه المناطق إلى الشيخ «حفاة عراة» طالبين تدخله لدفع عاديات البربر[130]، خاصة بعد فشل الحملات التأديبية العسكرية ضد

(126) الناصري : المصدر السابق، ص.132 ــ 135.

(127) نفسه، ص.140.

(128) العبدوني : اليتيمة، ص.275. وترجع أهمية معلوماته إلى كونه كان معاينا ومعايشا لها.

(129) المصدر السابق ص.140.

(130) المصدر السابق، ص.284 وكذلك الاستقصا ج7، ص.132.

هذه المناطق، مما جعل الشيخ محمد المعطي يكثف من تنقلاته وتحركاته بين ظهران القبائل التادلية سعيا في الصلح والمهادنة بتأييد ومساندة من أعيان القبائل وعلمائها وأشرافها، الذين كانوا في الغالب ينضمون إلى موكبه، كما هو الشأن أثناء إحدى زياراته لبني مسكين «فرقة بين تامسنا وتادلة» عام 1155[131] وأثناء توجهه إلى جبل تادلة أو إلى بلاد بني موسى القريبة منه[132]. واذا كانت هذه التدخلات المباشرة أو غير المباشرة بواسطة رسله وكتبه تأتي أكلها في غالب الأحيان، إلا أنه في مرات أخرى تكون الفتنة أقوى من كل توسط؛ كما حدث عندما عظمت شوكة البربر على العرب وعلى قرية أبي الجعد نفسها، التي أصبح أهلها محاصرين وتعذرت الاتصالات وسبل العيش، وكان أكبر هؤلاء «اللصوص والهجام من البربر رجل يقال له عبد العزيز افاسي»[133]، بل إن الفتنة، وغياب سلطة رادعة، دفعت أحد أعيان قبيلة «اكطاية» إلى اطلاق لسانه في جانب الشيخ بالسب والغيبة..[134]، كما أن إحدى قبائل تامسنا قابلت نصح أحد أولاد الشيخ بالرجوع عن العتو والفساد بأن «برحوا في أسواقهم على أولاد الشيخ سيدي محمد الشرقي يخرجون من تامسنة..»[135].

وفي غياب الدافع الحقيقي ـــ إن وجد ـــ لهذا الرفض والاعراض، يبقى حلول وعيد الشيخ ونفاذ دعوته أمرا مسلماً به، وهو المشخص في تدخل

(131) الشرقاوي : الفتح ص.173.

(132) العبدوني : المصدر السابق، ص.284.

(133) المصدر السابق ص.323.

(134) الشرقاوي : الفتح، ص.177.

(135) العبدوني : اليتيمة، ص.309.

جيش السلطان، «فبقيت بلادهم خالية مدة من السنين» إلى أن شملهم عفو الشيخ وتسامحه[136].

اتسع مجال عمل الزاوية خلال هذه الحقبة ليصل إلى بلاد دكالة وعبدة مرورا بالشاوية، إذ احيطت تنقلات الشيخ في هذه البلاد بكل مظاهر الاجلال والاحترام والاكبار وتلقاه علماؤها وأعيانها وأشرافها وفقراؤها بحفاوة بالغة.

«وقام المنادي ينادي، يا عباد الله استبشروا بخليفة الأشياخ وإمام الأئمة الرساخ الولي الكامل العالم العامل سيدي محمد المعطي.. وقد أمركم بالصلح والمهادنة بينكم، فكونوا عباد الله إخوانا، وعلى فعل الطاعة والخير أعوانا..»[137].

ثم يستطرد صاحب اليتيمة في وصف هذه الرحلة الهامة بقلم المعاين المشاهد؛ إذ كانت هذه المناسبة عند هذه القبائل عيدا عظيما، ثم انتقل الشيخ إلى مدينة أزمور لزيارة الشيخ أبي شعيب، فاستقبلها أهلها «بالطبول والغياطين وضربت عليه الانفاض»؛ والتف حوله أعيان دكالة، فتحدث معهم في أمر الصلح والمهادنة بينهم وبين عبدة، فوجد منهم الاذان الصاغية، فامتثلوا أمره، وساروا جميعهم في ركابه إلى بلاد عبدة، التي لم يقل احتفاؤها به عن احتفاء سابقيهم، وتوجهت الجموع إلى آسفي، فزار الشيخ ضريح سيدي صالح بن ينصارن، وعقد لهم هنالك المهادنة والصلح[138].

وقد تمت هذه الزيارة عام 1153هـ، وهي نفس السنة التي كان فيها

(136) المصدر السابق، ص.310.

(137) المصدر السابق، ص.301، 302.

(138) المصدر السابق، ص.302.

السلطان المولى عبد الله بن اسماعيل مقيما بالقرب من زاوية أبي الجعد (قصبة وادي الزم)[139] وهناك وفدت عليه بيعة العبيد وبيعة أهل فاس، في وقت رفضت فيه عبدة والرحامنة مساندة دعوة أخيه المولى المستضيىء.. مما يجعلنا نرجح أن سبب الصراع بين عبدة ودكالة كان بسبب مساندة هذه الأخيرة للمولى المستضيء، وأن تحرك الشيخ محمد المعطي في هذا الظرف له أكثر من دلالة سياسية، إذ بانعقاد الصلح بين الفريقين (دكالة وعبدة) معناه قطع الطريق على كل مساندة من طرف قبائل الجنوب بما في ذلك الحوز والدير لصالح المولى المستضيء، مما جعل هذا الأخير يقبع في دار ملكه بمراكش لا يحرك ساكنا إلى أن انتقل إلى شمال البلاد عام 1155هـ بدعوة من العبيد وعرب بني حسن[140].

2 ــ التخفيف من وطأة الأزمة :

أشار صاحب اليتيمة إلى أن سنة 1147هـ كانت سنة قحط وجفاف وارتفاع لأثمان الحبوب، وهو الغلاء الذي تحدث عنه القادري في آخر دولة السلطان المولى عبد الله الأولى، وأوائل دولة أخيه المولى علي[141]، إلا أن هذه الأزمة اعقبها فرج بنزول الأمطار وانخفاض الأسعار، حتى بيع الزرع بسبع موزونات للمد.. جاءت بعدها كارثة أخرى أشد وطأة واستمرت من عام 1149هـ إلى عام 1151هـ عرفت البلاد فيها غلاء وقحطا وتأزما، زاد من حدته ما تعانيه البلاد من حروب وتمزق[142] ثم

(139) الناصري : الاستقصا، ج 7، ص.151، 152.

(140) الناصري : الاستقصا، ج7 ص.151.

(141) القادري م.ط : حوليات نشر المثاني. (تحقيق ن. سيكار)، ص.38.

(142) دفع هذا الوضع السلطان المولى محمد بن عربية إلى مصادرة أهراء ومطامير الحبوب بمكناس وخارجها، في حين كلف أخاه الوليد بمصادرة ثروات وأموال أهل اليسار بفاس بما في ذلك أرباب الزوايا (الاستقصا، ج 7، ص.144، 145).

انضاف إلى ذلك الوباء الذي أهلك خلقا كثيرا، فقد أخبر صاحب اليتيمة بأن عدد الموتى بفاس بلغ سبعين الف من الغرباء، وأما أهل المدينة فكانوا لا يحصون لهم عددا بسبب قيام أهلهم بأمورهم[143]، وجاء حديث محمد بن عبد الكريم عن هذه الأوضاع المأساوية بأسلوب ينم عن معاناة ومكابدة، كما ترددت أصداء هذه الفاجعة في أحد أحزاب الشيخ محمد المعطي. بل كانت الدافع إلى إنشائه وتأليفه له، حتى يرفع الله بأسه وبلاءه وغضبه عن عباده، ولذلك اسماه «حزب اللطف والفرج، ودفع ما نزل بالعباد من ضيق وحرج». بيد أنه زاوج بين هذا وبين التدخل العملي والفعلي وذلك بمواساة ضحايا الحروب بالكسوة والعلاج والايواء، إلى أن تتحسن أحوالهم أو يموتون فيسهر على دفنهم ومواراتهم[144].. بل أصبحت من عادته بعد كل صلاة صبح أن يخرج إلى جموع المحتاجين والجائعين بأطباق الخبز والطعام للتخفيف عنهم وسد رمقهم، كما أقام مخبزا في السوق للمساكين يعيشون به، بالاضافة إلى قدور الحساء، وهو يقول لهم : إنما أنا قاسم والله المعطي[145].

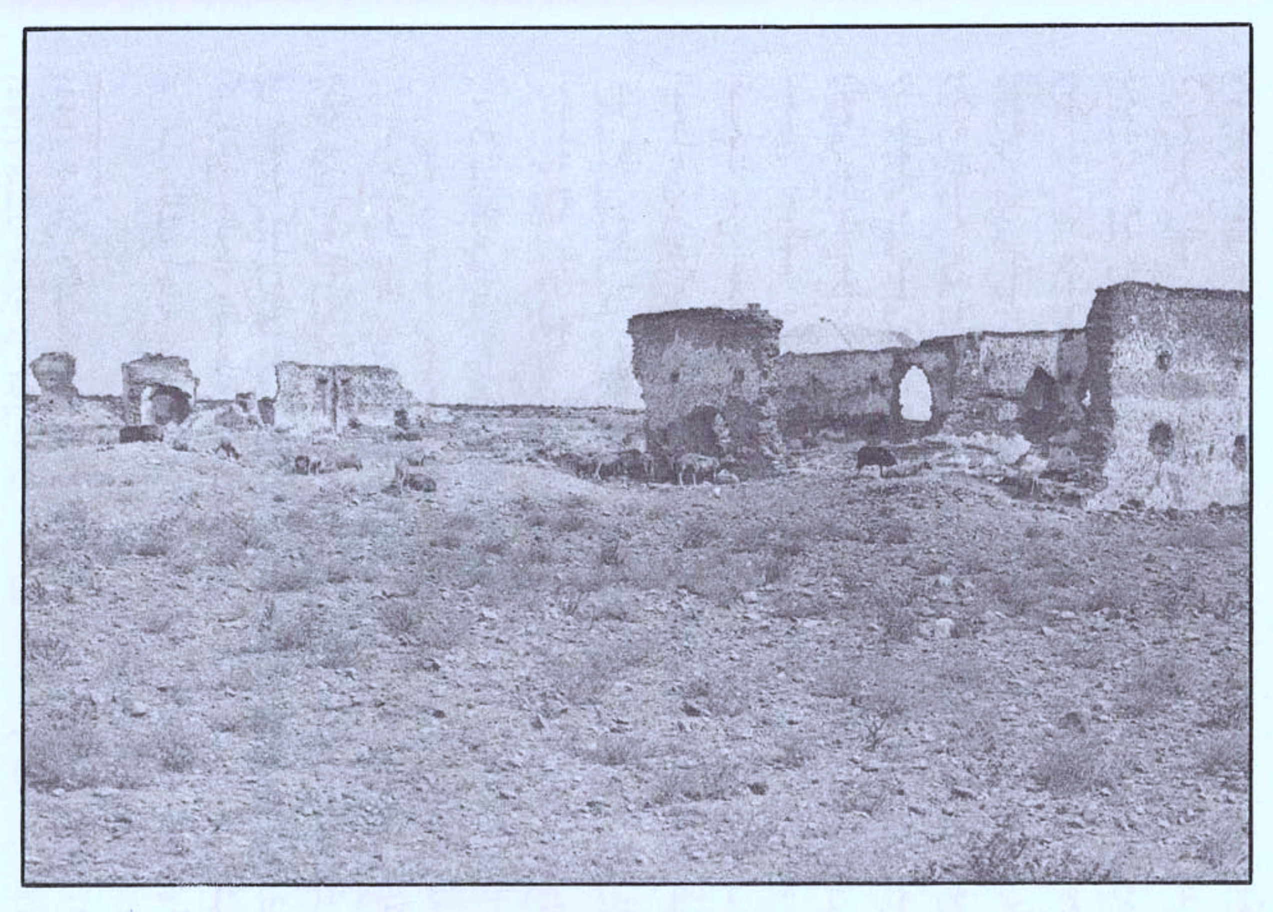
3 ـــ تدعيم نفوذ بعض القواد الجهويين :

أشرنا فيما سبق إلى علاقات قبيلة ورديغة بالزاوية، وخلال فترة الأزمة هاته، برز اسم القائد الرضي الورديغي، الذي أقره السلطان المولى عبد الله في منصبه كما حظي من شيخ الزاوية بالتأييد والمساندة، حتى بلغ درجة كبيرة من «الجاه والسلطنة والملك»، وحين سأل ابن عبد الكريم شيخه عن سر ذلك، أجابه : «أنه أدرك مرتبة المملكة، لأنه كان عادلا»، وقد

(143) العبدوني : اليتيمة ص.279.

(144) المصدر السابق ص.277.

(145) العبدوني : اليتيمة، ص.277، 278.



قصبة القايد الراضي ببلاد ورديغة قرب قرية «بير مزوي»

دخل القائد الرضي في صراع عسكري مع قبائل الشاوية، الذين اكتسحوا بلاده إلى أن وصلوا إلى أحواز زاوية ابي الجعد، مما جعله يلجأ مع انصاره إلى الدير طالبا مساندة قبائل تادلة، بما في ذلك أفراد الزاوية الشرقاوية،

«فاشترى فرسا من عند أولاد الشيخ.. واستعار مدفعا وخرج من باب المسجد الذي بإزاء الشيخ سيدي مّحمد الشرقي، وقال : هل بقي أحد من رجال ورديغة وتادلة يخرج إلينا للجهاد في سبيل الله، نفني أعمارنا على حرم الشيخ سيدي مّحمد الشرقي..»(146).

وقد كانت مساندة القبائل والزاوية فعالة، فحاربوا خصومهم وهزموهم وجدوا في أثرهم واللحاق بهم حتى بلاد تامسنة، فكان ذلك سبب ظهور ملكه واتساعه حتى تملك على أهل تادلة وتامسنة وبني مسكين، إلا أن سلطته هذه اصطدمت بقوة قبائل أيت يمور البربرية المتطلعة إلى البسيط التادلي، وقد عمل الشيخ محمد المعطي جهده لتلافي الاصطدام بين الفريقين، إلا أن مجهوداته لم تكلل بالنجاح، فمات من جراء تلك الحروب عدد من الأنفس، وفي مقدمتهم قادة وأعيان تادلة مثل العتابي والمعروفي وولد أخيه الراضي..(147).

إن انتصار آيت يمور كان قصيرا، إذ سرعان ما أذاقتهم قبيلة آيت سري المجاورة هزيمة منكرة، مما جعل منطقة الدير تعرف نوعا من الاستقرار والتوازن النسبي، فسح المجال من جديد لنشاط الزاوية من تاقبالت إلى وادي العبيد، فكانت قوافل التجارة تنتقل من الغرب إلى تادلة عبر ورديغة تحت ضمانة شيخ الزاوية وحمايته.

---

(146) المصدر السابق، ص.304، 305.

(147) المكي الشرقاوي : اختصار اليتيمة، م.خ.ع. الرباط رقم ج 509 بدون ترقيم، والراضي هنا ليس القائد الرضي المذكور الذي عزله عن منصبه السلطان سيدي محمد بن عبد الله كما سنوضحه مستقبلا.

ومع ذلك فقد وجد من وقت لاخر من كان يحد من دور الزاوية أو يعرقل نشاطاتها المتعددة الأوجه، كما هو الشأن بالنسبة لبعض الثوار المتعسفين، أو بعض القواد الجشعين، مثل القائد مولود ولد الحبيلي الذي كان خليفة على تادلة من طرف جيش العبيد عام **1147**هـ (أي إبان حكم المولى علي بن اسماعيل) فقد أسرف القائد المذكور في مضايقة الزاوية بكثرة مطالبه، خاصة القمح والشعير لعلف بهائمه ولعولته مما اضطر الشيخ محمد المعطي إلى الخروج من زاويته إلى عزيبه نحو أربعة عشر يوما؛ وكان رد فعل السكان مروعا وحاسما، فقد وردت عليه الخلائق «مشاة وركبانا وخيولا ورجالا ونساء.. وهاجت الدنيا وماجت.. بكثرة الزوار.. وكثرة قراءة القرآن والأوراد..»(148)، رجع الشيخ بعدها إلى زاويته معززا مكرما، وما كاد يصل إلى مشارف أبي الجعد (قرب وادي الشرفاء) حتى وصله رسول السلطان المولى عبد الله يبلغه سلامه ويخبره بأنه سينزل من الغد «في القصبة على أمر الله وأمرك..»(149) وحين وصل مولاي عبد الله إلى القصبة التادلية(150) أمر بخروج ولد الحبيلي لملاقاته «فوجده قد سد عليه القصبة، وقتل نفسه.. بكابوس اخرجه في فؤاده، فمات من حينه»(151)، فاعتبر ذلك من كرامات الشيخ الدالة على صدق سيرته وسريرته.

اعتبر ابن عبد الكريم الفترة الممتدة ما بين **1141**هـ إلى **1162**هـ

---

(148) العبدوني : اليتيمة، ص.305، 306.

(149) المصدر السابق، ص.307.

(150) تتوافق هذه الأحداث التي اوردها ابن عبد الكريم مع ما جاء في المصادر، إذ أن السلطان المولى عبد الله رجع في أواخر عام 1149هـ من وادي نون إلى تادلة، فبويع من طرف العبيد والوداية قبل ان ينتقل إلى فاس. انظر
ـــ الناصري : الاستقصا، ج 7، ص.141، 142.

(151) العبدوني : المصدر السابق، ص.307، 308.

من أشد الفترات اضطرابا في تاريخ البلاد، وقد لخص هذه الأوضاع الدقيقة التي عايشها وعاصرها بقوله : «وكانت كلها أشرارا وحروبا واكدارا وجوعا وحبس أمطار وفتنا وغلاء أسعار..»[152] وهو نفس الوصف مع كثير من الاطناب والمعاناة، ضمنه الشيخ محمد المعطي حزبه المعروف بـ «حزب اللطف والفرج»، وقد زاد من عمق الأزمة طول مدتها وتنوع أوجهها، فبالاضافة إلى الحروب والفتن والمجاعات والأوبئة، عرفت البلاد زلزالا مهولا استمرت حدته حوالي ربع ساعة، تهدمت من جرائه الدور وتشققت الأرض، وفاضت مياه البحر على الشواطىء والمدن المجاورة له، وكان ذلك عام 1160[153]، وهي مظاهر اعتبرت وفسرت بأنها غضب من السماء على ما فرط فيه الناس في دينهم ودنياهم. في حين رأى مؤرخ الزاوية وتلميذها، أن ظهور الشيخ محمد المعطي في هذا الظرف، هو بمثابة الشعاع الذي أضاء للناس طريق الأمل والخلاص، إذ كثرت خلال هذه المدة قراءة أذكار الزاوية وأحزابها في السهل والجبل، بسبب ما أشيع من أن قراءتها تدفع ظلم الظالمين، وتكف أيدي المعتدين[154]، فكان فرصة لازدياد انتشار نفوذ الزاوية وتوغله في مناطق جديدة خاصة الجبال المطلق على منطقة تادلة أو المجاورة لها. مما يفسر دور الأزمات والكوارث في دفع عامة الناس وخاصتهم إلى التمسك والتعلق بقيمهم الروحية، وفي مقدمتها الصلحاء؛ لما يعتقدون فيهم من خصوصية تجعل التوسط بهم وطلب الفرج على يدهم من الممارسات المتجددة داخل مجتمعات كهاته، يتهددها الخوف وتعوزها الحيلة والوسيلة.

---

(152) العبدوني : اليتيمة، ص.280.

(153) الناصري : الاستقصا، ج 8، ص.84، 85، اذ زلزلت الأرض خلال هاته السنة مرتين في شهر واحد تقريبا. وهو المعروف بزلزال لشبونة الذي حدث عام 1755/1169.

(154) العبدوني : المصدر السابق، ص.323.

ب ـ الزاوية في مستهل حكم السلطان سيدي محمد بن عبد الله (1171هـ ـ 1180هـ) :

عاصر الشيخ محمد المعطي في آخر حياته، حوالي عشر سنوات من بداية حكم السلطان سيدي محمد بن عبد الله العلوي، إذ توفي في مستهل عام 1180، في حين أن وفاة السلطان المذكور كانت عام 1204هـ.

إن معلوماتنا عن الزاوية خلال هاته الفترة يمكن تلخيصها فيما يأتي :

ـ عندما تولى السلطان سيدي محمد بن عبد الله الحكم عام 1757/1171، كان الشيخ محمد المعطي قد قضى حوالي الثلاثين سنة كرئيس للزاوية، وهي مدة كانت كافية لاستنفاد قسم كبير من امكانياته وقوته ونشاطه، في وسط جد مضطرب تتقادفه الأهواء والأهوال، مما تطلب من الزاوية وشيخها العمل في عدة واجهات دينية وعلمية واجتماعية وسياسية، كما اعترضته مواقف دقيقة كانت امتحانا لرصيد الزاوية ومكانتها وأهميتها.

ـ التزمت الزاوية في شخص شيخها، خلال الفترة الأولى من حكم سيدي محمد بن عبد الله جانب الحذر والانتظار، وزاد من قناعة الشيخ بهذا الموقف اجماع البلاد شبه التام على تأييد أعماله ومشاريعه بهدف ارجاع هيبة المخزن، وقد تمثل ذلك في احداثه المكس وقضائه على دعوة المرابط أبي عبد الله محمد الغربي الخمسي المعروف بأبي الصخور ثم بعده بقليل قبض على الشيخ محمود الشنكيطي المتصوف بفاس، فسجن إلى ان مات عام 1175هـ(155)، كما أوقع بعدد من القبائل التي اشتهرت بفسادها وعتوها زمن الفتنة مثل الشاوية وبرابرة شقيرن من آيت اومالو ناحية

---

(155) الناصري : الاستقصا، ج 8، ص.7، 10، 17.

تادلة في نفس التاريخ المذكور[156]. وقبيل وفاة الشيخ محمد المعطي بقليل عاد السلطان من جديد إلى تادلة (عام 1179هـ) فانزل بأيت يمور ضربة قاسية، ثم شردهم بعد ذلك إلى أحواز فاس حيث أنزلهم جبل سلفات[157]. كما عزل عددا من القواد الذين اشتهروا باستبدادهم زمن والده السلطان المولى عبد الله ومن بينهم القائد الرضي[158] الذي عرف بعلاقاته الوطيدة بالزاوية وشيخها.. وبذلك شكلت تادلة أحد الاهتمامات الأولى للسلطان الجديد، مما دفع بأهلها إلى اللجوء إلى بعض أعيانها وهو سيدي محمد بن يوسف الدلائي، شاكين إليه ما أصابهم من المخزن، فقال لهم :

«يا أهل تادلة، إن في بلدكم سيدا صالحا.. ولو أراد الله بكم خيرا لعمر قلوبكم بمحبته وشغلكم بمعرفته وخدمته، ولو فعلتم ذلك لم يتعد عليكم إنس ولا جان ولا شيطان ولا سلطان، إلا ما شاء الله..»[159].

ــ ومع ذلك لم تشر المصادر إلى أي شيء يمكن أن يفهم منه تأزم العلاقات بين الزاوية والمخزن أو سيادة جو التفاهم والوئام بينهما. إلا أن شهرة الشيخ محمد المعطي داخل البلاد وخارجها، جعلت السلطان محمد بن عبد الله بدوره يتريت في اتخاذ أي مبادرة ما..، وهو ما أصبح ممكنا بعد وفاة شيخ الزاوية في مطلع عام 1180هـ.

---

(156) المصدر السابق، 16.

(157) نفسه؛ 27، 28.

(158) نفسه، ص.30 «وولى مكانه قائد القواد محمد بن حدو الدكالي الذي جمع إليه قيادة كل من دكالة وتامسنة وتادلة، وعندما توفي عام 1176هـ عين مكانه ابن عمه محمد بن احمد الدكالي».

(159) العبدوني : اليتيمة، ص.173.

ـــ ساعد جو الاستقرار النسبي الذي عرفته البلاد خلال المدة الأولى من حكم السلطان الجديد، على انصراف شيخ الزاوية التام إلى العمل الديني والعلمي، وفي مقدمة ذلك اعتكافه على مؤلفه القيم «الذخيرة» اذ بقي يوسع أبوابه ومواضيعه إلى آخر لحظة من حياته، بلغت عندها حوالي ستين مجلدا. كما تقترن بهاته الفترة تأليف وانجاز كل من كتابي الروض واليتيمة بغرض الترجمة للشيخين محمد الصالح، محمد المعطي، إلا أن الذي يهمنا هنا هو الاسهاب والحماس الذي عالجت به هذه الكتابات قضية النسب العمري، فإذا كان هذا الانتساب القرشي لم يجد من يطعن فيه على عهد الشيخ محمد الصالح، بل اجمعت الكتابات المعاصرة له على تأييده والاقرار به، فإنه خلال فترة ما من حياة الشيخ محمد المعطي ظهرت محاولات للتشكيك في ذلك قصد الانتقاص من نفوذ الزاوية وسمعتها، دون أن تفصح المصادر عن هوية هؤلاء المعترضين، ولا الجهات التي كانت وراء ذلك. وقد كان رد فعل الزاوية ممثلا فيما كتبه مؤرخوها حاسما، مع اختلاف في الطريقة والأسلوب، إلا أنهم لم يكتفوا باعتماد منهج اثبات الانساب كما عرف في ذلك العصر وشاع استعماله.. بل حاولوا القفز على ذلك، موضحين أن واقع الزاوية من خلال سيرة أشياخها وممارساتهم لهو أكبر دليل على صحة هذا الانتماء.

لعمرك ما الانسان إلا ابن يومه   فلا تترك التقوى اتكالا على النسب

الفصل الرابع

○ ○ ○

اصطدام الزاوية بالمخزن

1180هـ ــ 1234هـ

(66 ــ 1767م/18 ــ 1819م)

أولا : ظروف تحطيم الزاوية عام 1200هـ.

ثانيا : الزاوية وأزمة 1204 ــ 1212هـ.

ثالثا : الزاوية في عهد المولى سليمان.

الفصل الرابع

اصطدام الزاوية بالمخزن
(1180 ـ 1234هـ)

أظهرت علاقات المولى اسماعيل بالشيخ محمد الصالح في الثلث الأول من القرن الثاني عشر الهجري، أهمية دور المخزن في تدعيم زاوية ما، ودور هذه الأخيرة في اضفاء مزيد من الشرعية والولاء لصالح الحكام، ازاء بعض القبائل المتوتبة أو الرافضة للامتثال، وكذلك إزاء بعض الصلحاء الذين يظهرون نزوعا ما.. اتجاه هذه القبائل. ولم يظهر في عهد الشيخ محمد المعطي ما يفسر وجود تعارض أو تنافر بين مصلحة الطرفين.. إلا أن تركيز السلطان سيدي محمد بن عبد الله على المنطقة التادلية، ورغبته في اضعاف القوى المحلية الدينية منها والمخزنية وحتى القبلية؛ جعلت علاقات الزاوية بالمخزن فيما بعد، تتأرجح لتفضي في النهاية إلى التأزم والاصطدام المباشر.

اقترنت هذه المرحلة الحرجة في تاريخ الزاوية بتولي الشيخ محمد العربي مسؤولية الاشراف على الزاوية، فعاصر كلا من السلطانين سيدي محمد بن عبد الله[160] والمولى سليمان؛ ذلك ان وفاته تأخرت إلى عام 1234هـ[161] 18-1819م) أي قبيل وفاة السلطان المولى سليمان ببضع سنوات (1238 = 1820).

(160) تولى سيدي محمد بن عبد الله العلوي الحكم عام 1171هـ إلى 1204هـ.

(161) تولى الشيخ محمد العربي مهام الزاوية الشرقاوية وهو لايزال شابا عام 1180هـ، وبذلك يكون قد قضى أكثر من خمسين سنة (50) في منصبه هذا، في حين أن والده قضى في نفس المهمة 41 سنة.

أولا : ظروف تحطيم الزاوية عام 1200هـ (1785ـ1786)م

إن مصدر الزاوية الوحيد الذي كان بإمكانه أن يفيدنا أكثر عن هذه الفترة هو مؤلف كتاب «الفتح الوهبي»[162] الذي عاش قريبا من الحادث، والف مؤلفه في شيخ الزاوية محمد العربي الذي وقعت في عهده هذه الأحداث.. ومع ذلك لم يتعرض لحادث تحطيم الزاوية لا من قريب أو بعيد. في حين أن المؤرخ «الزياني» وكذلك «الضعيف الرباطي» المعاصرين لهذه الفترة، نقلا وقائع الأجهاز على الزاوية كل من زاويته الخاصة. من هنا تبدو صعوبة الباحث، وجسامة مسؤوليته لوضع الحادث في إطاره الحقيقي أو القريب من ذلك؛ مما أوجب تتبع تطور علاقات المخزن بالزاوية منذ تولي الشيخ العربي مهام الزاوية بعد وفاة والده عام 1180هـ/1766م إلى أن تم تحطيمها ونفي شيخها عام 1200هـ/85-1786م. وهي مرحلة إذا كان من المتعذر ـــ ربما الان ـــ الاحاطة بكل جزئياتها وتفصيلاتها، إلا أن هناك علامات بارزة لها دلالاتها وأبعادها في فهم ظرفية الحادث.

عندما توفي الشيخ محمد المعطي ترك ابنه وخليفته لم يكمل بعد تكوينه الديني والعلمي، اذ تكفل بذلك تلامذته من فقهاء وأساتذة الزاوية.. فحصل على أول إجازة علمية له عام 1183هـ. بيد أن محمد العربي لم يكن الابن الوحيد المؤهل لهذه الخلافة، ذلك أن أخاه محمد المكي بن المعطي، عرف بعلمه واستقامته بالاضافة إلى كونه أكبر منه سنا[164]، وكل ما نعرف عن هذا الأخير، هو أنه قام بالتوسط لدى المخزن في قصبة تادلة لحل بعض مشاكل الزاوية اثناء غياب أخيه وسفره للحج والعلم عام

(162) ونعني به محمد العربي بن داوود حفيد الشيخ العربي المتوفى عام 1898م.

(163) يستنتج ذلك من بعض المعلومات التي كتبها محمد المكي في اختصار اليتيمة.

1190هـ، دون أن نعثر على ما يفيد وجود منافسة ما بين الأخوين، وهو ما لم يعد ممكنا بعد عودة الشيخ العربي من الشرق حاملا معه اجازاته العديدة من أشياخه المشارقة[164].

وقد استمر تركيز المخزن العلوي خلال هذه المدة على منطقة تادلة، ففي عام 1183هـ غزا السلطان سيدي محمد بن عبد الله قبائل تادلة، ونعني بها بالدرجة الأولى قبائل الدير، وتجمع المصادر على عنف هذه الحملة وقساوتها؛ اقترن بها اعادة تعيين قائد من المنطقة وهو صالح بن القائد الرضي الورديغي، وفصلت تادلة إداريا عن كل من تامسنة ودكالة التي كان يحكم جميعها محمد بن حدو الدكالي، وقد واصل القائد الجديد سياسة المخزن ازاء هاته القبائل «فاستصفى أموالهم وافقرهم حتى لم يقدروا على الانتقال إلى محل آخر..»[165] مما شجع السلطان على إعادة الكرة مرة أخرى في إطار حملة اكثر تجهيزا عدة وعددا عام 1186هـ قاصدا بها هذه المرة قبائل آيت أومالو الجبلية[166]، الا ان اختلاف الظروف الطبيعية والبشرية لكل من تادلة الدير وتادلة الجبل، اظهرت فعلا جهل قواد المخزن للمنطقة وتواضع خبرتهم بشأن حربها[167].. مما جعل الحملة أشبه بصورة هزلية باهتة المعالم، بالمقارنة مع معارك المولى اسماعيل الحاسمة في هاته المناطق. فلجأ السلطان سيدي محمد بن عبد الله لمختلف الوسائل السلمية لانقاذ جنوده، منتظرا في قصبة تادلة مصير المفاوضات التي قادها الموظف والمؤرخ أبو

---

(164) انظر ترجمة الشيخ محمد العربي في الجزء الأول.

(165) الناصري : الاستقصا، ج 8، ص.39.

(166) توجد بالأطلس المتوسط وتشمل : زيان، اشقرن، آيت شخمان، بني مكيلد.

(167) الزياني : الروضة السليمانية. م.خ.ع. رقم : 1275د، ص.120/ب، 121/أ،ب
ـــ الناصري : الاستقصا، ج 8، ص.41، 42، 43.

القاسم الزياني، ولكي يظهر السلطان حسن نيته، قام بعزل القائد صالح الرضي، إلا أن ذلك لم يدم طويلا؛ فقد أعيد من جديد تعيين صالح الرضي كقائد على المنطقة التادلية على 1188هـ، وهذا الأخير استغل فرصة سفر الشيخ محمد العربي إلى الديار المقدسة فعين على الزاوية أخاه عبد القادر الذي،

«اشتغل بنهب أموال أهل الزاوية، وبهتك حرمة الله، وبإذاية أولاد الشيخ سيدي محمد الشرقي.. وبمخالطة أهل الفساد ومجانبة أهل الخير والرشاد»(168).

إن تعيين موظف مخزني على الزاوية لأول مرة، يعتبر فعلا العلامة الواضحة والمعبرة عن عدم صفاء العلاقات بين الزاوية والمخزن، بل إن المرابط محمد المكي بن المعطي الشرقاوي تدخل أكثر من مرة لدى قائد تادلة ليردع أخاه عن ممارساته وتصرفاته، إلا أنه لم يجد منه أذنا صاغية، فاكتفى مع اصحابه بالتضرع والابتهال إلى الله عز وجل ليكشف عنهم ظلمه وتعسفه، إذ أصبح عنده «الاحياء في الذل والهوان والأموات بعدم التعظيم والاحترام»(169).

اقترن بعودة الشيخ العربي من رحلته الدينية والعلمية، اشتداد وطأة المجاعة والقحط الذي ضرب البلاد والعباد لمدة سبع سنوات متوالية من عام 1190هـ إلى 1196هـ، وترتب عن ذلك اضطراب نفوذ المخزن وقوته سواء بتادلة أو غيرها من المناطق، مما كان فرصة سانحة للانتقام من القائد «الظالم» ومن سائر أعوانه وعشيرته، فانتهبت أموالهم وشردوا أيما

---

(168) المكي الشرقاوي : اختصار اليتيمة، وهي من الاضافات التي تخرج عن الاطار التاريخي لمؤلف ابن عبد الكريم.

(169) المصدر السابق.

تشريد[170] في حين استعادت الزاوية مكانتها ونفوذها، والتأمت القبائل من حولها، فتحولت خلال هاته الفترة المتأزمة سياسيا واقتصاديا إلى قلعة أمن وأمان «لا يصد عنها وارد ولا يخيب فيها قاصد..»[171] يجدون بها الرعاية ولا يشعرون في رحابها بأي غربة، بل إن قبائل كثيرة من القطر التادلي اتخذت من «حرم» الزاوية مكانا لجمع وخزن اقواتها ومؤونتها، مما أكسب الزاوية قوة اقتصادية إلى جانب نفوذها الديني والعلمي، وهي المكانة التي بات من الواضح والضروري البت فيها من طرف السلطان محمد بن عبد الله، الذي انتظر انقشاع الأزمة الاقتصادية وما ترتب عنها ليشرع من جديد في «تمهيد البلاد ثانية»، فكانت أولى اهتماماته التوجه إلى منطقة تادلة لمعاقبة كطيوة وحلفائها على ما قاموا به واقترفوه في حق قائدهم وأعوانه، فنقل كلا من كطيوة وسمكت ومجاط الى الغرب في حين أعاد ايت يمور إلى وطنهم التادلي[172].

وتتضح أبعاد هذا الموقف المخزني، إذا علمنا ان قبيلة كطيوة قامت بدور المنفذ لوعيد ونقمة وغضب صلحاء الزاوية، في حين أن قبيلة آيت يمور عرفت بمناوأتها للزاوية وتعديها على خدامها خاصة إبان الأزمة العسكرية مما دفع بالسلطان إلى تغريبهم عن وطنهم كما أسلفنا.

ولا شك أن السلطان بهذا العمل، قصد بالدرجة الأولى، إضعاف قوة الزاوية البشرية والمادية، وعزلها عن خدامها وأنصارها الأكثر خطورة، إذ أن القبائل التادلية الثلاث : مجاط، كطيوة، سمكت؛ تعتبر حلقة وصل

---

(170) المصدر السابق، وقد قامت بهذا العمل فرقة «خويلة» من قبيلة «كطاية» أو «كطيوة».

(171) الشرقاوي ع : الفتح، ص.203.

(172) حدث هذا عام 1197 انظر : الزياني : الروضة السليمانية، الورقة 124/ب — الناصري : الاستقصا، ج8، ص.50.

رفضه بين الزاوية وبرابرة الجبل.. إلا أن الحل الجذري والنهائي لمشكل تادلة في نظر المخزن يجب أن يتجاوز تقليم الأظافر واقتطاع الأطراف، إلى اتخاذ موقف حاسم من الزاوية التي أصبحت تمثل مركز ثقل قبلي تكتسب وحدته وانسجامه من خلال دور الزاوية المتشعب.

يرتبط بالزاوية بشكل مباشر قبائل بني زمور التي تتوسط كلا من قبائل زيان ووريغة وقبائل الدير التادلي[173]، لذلك سيكون الايقاع بها مقرونا بالايقاع بالزاوية في آن واحد، وهذا ما تم بالفعل عام 1200هـ. سبقت الحدث بعض الممهدات وجب الاشارة إليها لأهميتها من جهة وانفراد المؤرخ الضعيف الرباطي بنقلها من جهة اخرى.

ـــ ففي عام 1200هـ وبالضبط في مستهل شهر ربيع الأول، قدم على السلطان سيدي محمد بن عبد الله وهو بالرباط شيخ الزاوية مع بعض خوانه، «فوبخهم على فعل إخوانهم غاية، وعلى اشتغالهم بالمنكر»[174] أمر السلطان بقطع اليد والرجل لنحو خمسة عشر رجلا من أهل تادلة أمام مرأى ومسمع وفد الزاوية، والسلطان جالس في الكدش «فجفلت به البغلة، وكاد الكدش أن يصير رميما..»[175].

ـــ لم تتوقف العلاقات المتوترة بين الطرفين عند هذا الحادث، إذ أن قدوم وفد الزاوية مع شيخها على السلطان للتهنئة بالعيد، كان فرصة أخرى لتجديد السلطان لتوبيخه ولومه وعتابه، وكان من جملة ما واجههم به، الحديث... أليهلك وفينا الصالحون..[176].

---

(173) انظر خريطة قبائل بني زمور، موقعها في إقليم تادلة ص. 40.

(174) تاريخ الضعيف، ص. 169.

(175) المصدر السابق نفس المكان. المهم هنا الدلالات الرمزية للحادث التي تعبر عن رد فعل قوة روحية في مواجهة سلطة فعلية.

(176) المصدر السابق، ص. 197.

ــ وما أن حل ربيع الثاني من السنة، حتى عقد السلطان العزم على مواجهة الزاوية ومن لاذ بحماها، فقد نهض مع جيشه إلى ناحية تادلة ـ الرباط، والتحق به ابنه هشام قرب «بوكروم»(177)، وفي يوم الأحد 12 من الشهر أوقع السلطانِ بأهل أبي الجعد، (يوافق 12 فبراير 1785م).

«وأطلق النار فيهم، ودخلت عليهم المحلة بعد أن هرب الرجل منهم في الليل، فنهبوا ديارهم، وفتكوا بنسائهم، وسبوا بناتهم، وجعلوا منهم مالا عظيما، وهدمها، ثم رحل السلطان منه بسيدي العربي، وسار به لمراكش»(178).

ــ في حين أن المؤرخ الزياني، ومن نقل عنه يجعل تاريخ الحادث يعود إلى عام 1199هـ(179)، إلا أن الأهم في ذلك هو وجهة نظره التي تستحق بدورها الاثبات.

«وفي عام 1199هـ لما عاد السلطان من رباط الفتح جعل طريقه على تادلة، ونزل على زاوية أبي الجعد وأمر بهدمها وإخراج العربي بن الشيخ الصالح البركة سيدي المعطي بن الصالح وأولاده وبنو عمه من شرقاوة الذين بها المعتكفين على الفساد وإيواء الظلمة والواردين عليها من كل بلاد.. واشتغال نفيرهم العربي بالفضول والدخول بين العامة بالزبون للمعين منهم والمجهول وإهمال طريقة

---

(177) نسبة إلى وادي أبي كروم على بعد بضعة كيلومترات من أبي الجعد في الناحية الغربية.

(178) تاريخ الضعيف، ص.197.

(179) الزياني : الروضة السليمانية، الورقة 144/أ.

ــ محمد أكنسوس : الجيش العرمرم الخماسي : م.خ.ع. الرباط رقم 83 ج الصفحة : 222،221.

ــ الناصري : الاستقصا، ج8، ص.59.

سلفهم الصالح.. وأنقلهم لمراكش فسكنوها..»[180].

واذا كان من الصعب ترجيح أحد الرأيين حول توقيت الحادث(*).. إلا أن مضمون ما ورد في النصين يستوجب ابداء بعض الملاحظات حتى نتمكن جهد المستطاع الاحاطة بخلفيات وظروف الحادث وما ترتب عن ذلك من نتائج آنية أو بعيدة المدى.

* لقد التزمت مصادر الزاوية خاصة «الفتح» السكوت التام عن الخادث، الا أن هذا لم يمنع من ورود وجهة نظر الزاوية بشكل أو آخر، ذلك أن الرواية الشفوية ترجح سبب الاصطدام إلى دسائس ممثلي المخزن في المنطقة ومؤامراتهم ضد الزاوية بسبب ما لحق نفوذهم وسلطتهم من انتقاص[181].. كما أنها لا تتفق مع مجريات حادث التحطيم، اذ تؤكد بان السلطان سيدي محمد بن عبد الله طلب من الشيخ العربي لقاءه خارج الزاوية، وأثناء خروج هذا الأخير للقائه، دخلت الجيوش المخزنية للزاوية واستباحتها ونكلت بالغرباء المحتمين بها[182] وعندما علم الشيخ بذلك، طمأنه السلطان بأن الأمر لا يتعلق «بشرقاوة» بل ضد الغرباء عنهم، وتذهب الرواية في خطة التخفيف إذ تشير إلى أن الجنود احترموا الأضرحة والمنازل التي توجد بينها[183]. في حين أن «صاحب الاعلام»

---

(180) الزياني : الروضة السليمانية، الورقة 144/أ

— الزياني : البستان الضريف في دولة أولاد مولاي الشريف. م.خ.ع. الرباط 1577د، ص.143.

(*) وان كنا نرجح ما ورد عند الضعيف الرباطي بسبب ما عرف عن الزياني من عدم الضبط في التواريخ.

(181) وهو ما نقله صاحب الاعلام موضحا أن الوشاة «من ولاة بني زمور من قبيلة ورديغة..» الذين منهم بصفة خاصة قائد المنطقة صالح بن الرضي الورديغي السابق الذكر.

(182) من الذين تبنوا هاته الرواية Eickelman (1976), p. 40

(183) المرجع السابق، نفس المكان.

يعتبر دخول الجيش السلطاني للزاوية تجاوزا للأوامر التي أعطيت له، والتي تحدد مهمتهم بتمشيط نواحي الزاوية، ما عدا الحرم «فدخل العسكر والقبائل وصاروا يأخذون الناس من الأضرحة من غير اطلاع المخزن على ذلك والمترجم (أي الشيخ العربي) بداره لا يعلم ما يقع»[184].

* إن عملية الهجوم على الزاوية سبقتها تحذيرات متكررة، بل أن «الضعيف الرباطي» يذهب أبعد من ذلك إذ يقر بأن السلطان طلب من الشيخ اخلاء الزاوية من أهل الفساد من جيرانها، ولما امتنع طلب منه ثانية مالا على ذلك، فقابل عرضه بالرفض أيضا[185].

واذا كان من الصعب تحديد هوية هؤلاء الذين وصفتهم المصادر «بأهل الزيغ والفساد» فان ما تجب الاشارة إليه، هو أنه كان من جملة وظائف الزاوية ومهامها التي تفخر بها ؛ هو حماية وتأمين الفارين من وجهة «عدالة المخزن»، وكان المخزن بدوره يقر لها بذلك، وقد تكررت أحداث هذا اللجوء في تاريخ الزوايا المغربية، بل وفي عهد السلطان سيدي محمد نفسه[186].

فهل كانت قضية الغرباء مجرد ذريعة تذرع بها المخزن لأخذ زمام المبادرة في منطقة باتت فيها موازين القوى غير متكافئة أو في طريق الرجحان لصالح الزاوية ؛ بسبب ما أصبحت تمثله من قوة مادية ومعنوية، حاول بعضهم مقارنتها بثروة المخزن[187] خاصة عندما اتخذت القبائل من

---

(184) ابن ابراهيم : الاعلام، . 5 ص.182.

(185) تاريخ الضعيف، ص.197.

(186) تكررت عمليات اللجوء إلى حرم الزوايا في مغرب القرن 18م، وكان من بينهم امراء وادعياء للسلطة. Histoire du Maroc (1967) p.264, 265.

(187) ايكلمان (1976)؛ 40 نقلا عن ايكورشفيل (1938).

حرم الزاوية مكانا لخزن أقواتها وفائض انتاجها، والذي يعتبر في حقيقة الأمر تفويت قسم هام من مداخيل المخزن لصالح الزاوية دون موافقته ورضاه[188]؛ وهو تناقض خطير ترجم حقيقة تخوف المخزن من جهة وحاجته لهاته الثروة من جهة أخرى.

* وتكاد المصادر تجمع على عنف الهجوم المخزني وما ترتب عنه.. في حين أن الزياني انفرد بوصف الشيخ العربي بصفات لا تمت للعلماء وأهل الفقر بصلة، وهو ما لم يستسغه أو يوافقه عليه بقية المؤرخين؛ وقد علق على ذلك أكنسوس بقوله :

«وقد تركنا من كلامه ما لا يليق، فإنه أطلق لسان الفحش والايذاء والسب والقدح في سيدي العربي بن المعطي على عادته في أولياء الله تعالى، فإنه لا أعدى له ممن له انتساب إلى جانب الله تعالى أودعا إلى حضرة الله تعالى، غفر الله لنا وله..»[189].

في حين اعتبر الناصري ما جرى بين السلطان والشيخ لا يعدو أن يكون من باب «ما ينقمه الأمير على المأمور، والانسان غير معصوم، والمخلوق ناقص إلا من أكمله الله...»[190].

إن ما يمكن أن يستنتج من كلام الزياني لا يخرج في نهاية المطاف عن بعض مهام الزاوية الرئيسية، التي لم يقع حولها التفاهم والاتفاق، ونعني بها دور التوسط بين القبائل لحل مشاكلهم مع بعضهم البعض أو بين بعضهم مع ممثلي المخزن في المنطقة.. وهو ما عبر عنه الزياني بقوله :

---

(188) جاء في الاعلام، .5، ص.182. «.. أن جل قبيلتهم (بني زمور) يدخلون للزاوية الأبي جعدية وما حواليها، ويمتنعون من أداء ما وظف عليهم بجانب المخزن..»

(189) اكنسوس : الجيش العرمرم.. ص.222.

(190) الناصري : الاستقصا، ج8، ص.59.

«واشتغال كبيرهم العربي بالفضول والدخول بين العامة بالزبون»[191]، وهي مهمة ازدادت اتساعا وتجذرا داخل المجتمع القبلي التادلي بسبب توالي فترات الاضطراب والفتن خاصة عندما أصبحت الزاوية هي الضامنة لاحلاف واتفاقيات الفرق القبلية (طاطا)، وهو ما أصبح في نظر المخزن تجاوزا لاختصاصاتها ومهامها.. بحيث اذا كان بالامكان السكوت وغظ الطرف عن هاته التجاوزات في فترات «السيبا» والأزمات مثل مجاعة 1190 — 1196هـ فانه يصبح من المتعذر التوفيق بين ممارساتها وسلطة المخزن التي يجب أن تمارس بفعالية في مناطق جد حساسة مثل «تادلة» مادام للمخزن القوة لاخضاع هاته المناطق وفرض كلمة قواده وموظفيه بها.. ذلك أن تخلي السلطان سيدي محمد ابن عبد الله عن الطريق الستراتيجي التادلي الرابط بين فاس ومراكش، ليس معناه التخلي عن المنطقة بصفة نهائية، في وقت باتت فيه القصبات الاسماعيلية معطلة عن مهامها.

* حاول البعض الربط بين تحطيم الزاوية، وبين ما يمكن أن يوصف بالتعامل مع أتراك الجزائر..[192] وهو ادعاء واستنتاج خاطىء من أساسه، مادام قد فهم من «الغرباء» شيء آخر يتجاوز غرباء الوطن.. وما كان للزياني أن يسكت عن مثل هذا، وهو المعاين والمعادي في آن واحد. بل إن خطاب المولى سليمان إلى سيدي العربي سمى الأشياء باسمائها،

---

(191) الزياني : الروضة السليمانية، ص.144. البستان الظريف؛ ص 143.

(192)
- Drague (1951) p.84. 85
- Cour. A; l'établissement..; p.224
- Histoire du Maroc (1967); p. 265.

تاريخ العالم الحديث. مقرر السنة الرابعة؛ ص.80.

«ثم لم يبرح يعفو ويصفح، وعن كل من أحدث حدثا وآويتموه يغض ويصفح...»[193].

* كما لا يمكن قبول وجهة النظر القائلة، بأن موقف السلطان سيدي محمد من الزاوية أملته عليه قناعاته الدينية والعقائدية في إطار ما يمكن تسميته بـ «الوهابية المبكرة»[194]، فبالاضافة إلى كون السلطان المذكور واحدا من أتباع الطريقة الناصرية، نجده في عام 1198 أي قبيل تحطيم الزاوية، وأثناء رجوعه من زيارته لميناء الصويرة، يعرج على رباط شاكر «وكان مجمعا للصالحين من قديم الزمان» ويأمر بتجديد مسجده وترميم مرافقه ثم بعدها قام بزيارة مدينة أغمات للترحم على صلحائها وفي مقدمتهم الشيخ الهزميري[195]، هذا عدا ما عرف عنه من عناية واهتمام ورعاية لأضرحة الصلحاء في طول البلاد وعرضها..[196]، بل انه بعد حادثة الزاوية أي في عام 1201هـ بعث برسالة تفويض وانابة للشريف مولاي علي بن أحمد الوزاني (شيخ الزاوية الوزانية) «نحب من سيدي علي.. أن تكون حاجزا بيني وبينهم في جميع امورهم..»[197].

* إن تحطيم زاوية أبي الجعد لم يكن حاجزا بين السلطان وشيخها، فمباشرة بعد انتقال سيدي محمد العربي الشرقاوي لمراكش، نجد السلطان

---

(193) الكناشة رقم : 1264ك،م.خ.ع. الرباط، ص. 362. (انظر، الملحق رقم 1) يتكلم هنا المولى سليمان عن والده سيدي محمد بن عبد الله.

(194) شارل أندري جوليان : تاريخ افريقيا الشمالية (المعرب)، ص.311، وقد نقل خطأ ما نسب إلى السلطان سيدي محمد من قوله : «إني مالكي المذهب، وهابي العقيدة» والأصح كما جاء عند الناصري، ج8، ص.68 «انه مالكي مذهبا حنبلي اعتقادا»)
.- Terrasse(H), Hist du Maroc (livre VII) p.295

(195) الناصري : الاستقصا، ج8، ص.55.

(196) المصدر السابق، ص.69.

(197) تاريخ الضعيف، ص.198.

يقربه منه ويلحقه بحاشيته ومجلسه وخاصته، فكان من بين الموقعين على شهادة أمير المومنين على نفسه بأن لا يجبر أحدا على التولية قهرا[198]. ثم بعثه السلطان للتوسط بينه وبين ابنه اليزيد الخارج عن طاعته، على الأقل مرتين، إحداهما برفقة شريف وزان..[199] وكان من جملة ما واجه به الأمير الشيخ العربي عندما قابله، قوله :

«لو كنت عنده في مرتبة عالية ما هدَّم عليك بوجعد..»[200].

ثانيا : الزاوية وأزمة 1204 ــ 1212هـ

عرف المغرب على عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله نوعا من الاستقرار. إلا أن الاضطرابات تجددت مباشرة بعد وفاته عام 1204 = 1790م.

فقد دفع التعطش للسلطة ابنه اليزيد إلى تزعم العصيان مدة طويلة في حياة والده، بويع خلالها من طرف عبيد مكناس..[201]، وعند وفاة والده، كانت القوات تحاصره وهو ملتجىء إلى حرم جبل العلم، وهي نفس القوات التي كانت السباقة لمبايعته، لتنظم إليها بعد ذلك باقي اقاليم البلاد «عربها وبربرها، حتى عصاة آيت أومالو ودجالهم مهاوش..»[202]

(198) ابن زيدان : الاتحاف، ج 3، ص.181، 182، ومن الموقعين أيضا الفقيه عبد القادر بن المعطي الشرقاوي، وهذه الشهادة مؤرخة بـ 14 ذي القعدة عام 1203هـ.

(199) تاريخ الضعيف، ص.214.

- Drague (1951). p.86 note N°22 et p.232.

- Eickelman; (1976), p.41.

(200) تاريخ الضعيف، ص.214.

(201) الناصري : الاستقصا، ج8، ص.45، 46، 47، وكذلك ص.72 وما بعدها.

(202) المصدر السابق، ص.76. خلف سيدي محمد أوناصر أباه سيدي علي أمهاوش. وقد وقف بجانب مولاي اليزيد في تمرده ضد أبيه.

وفي الوقت الذي ظهر فيه أن البلاد مجمعة على الالتفاف حول عاهلها الجديد، تراجع أهل مراكش والحوز عامة عن ولائهم وأعلنوا مبايعة أخيه المولى هشام بمراكش(203)، كما بايعت القبائل السوسية المولى عبد الرحمان(204)، فتراءت في الأفق معالم صورة لأوضاع عرفها المغرب بعد أحمد المنصور السعدي والمولى إسماعيل العلوي.. الا أنها هذه المرة ستكون محدودة في الزمان والمكان.

توفي المولى اليزيد عام 1206هـ/1792م متأثرا بجروحه، إلا أن هذا لم يكن كافيا لتصفية الجو لصالح المولى هشام، إذ بايعت أقاليم البلاد الشمالية والغربية المولى مسلمة في حين بايع أهل فاس وأعمالها المولى سليمان، الذي لم يجد كبير مشقة في إخضاع الشمال وإلحاق الهزيمة بالمولى مسلمة(205)، في حين أن توحيد باقي البلاد تأخر إلى عام 1211هـ/1797م وهي السنة التي دخل فيها السلطان سليمان مراكش عاصمة الجنوب وحاضرة المملكة.

إن القوى الدينية للبلاد لم تكن بعيدة عن هاته الأحداث، إذ ظهرت أهميتها الدينية والسياسية من خلال تردد أدعياء السلطة على رحابها والتعلق بأضرحتها، إما بهدف تعبئة سكان مناطق نفوذها، وعند الفشل الاحتماء بحرمها طلبا للنجاة والأمان.

لقد ظل السلطان سيدي محمد على اقتناع تام بأهمية شيخ زاوية أبي الجعد حتى بعد عام 1200هـ، إذ مثل مع شريف وزان قوة روحية لا يمكن الاستغناء عنها سواء في المنطقة المتعارف عليها «ببلاد المخزن» أو خارجها.

---

(203) المصدر السابق، ص.82.

(204) Histoire du Maroc, (1967) p.264.

(205) حول تفصيل ذلك انظر : الناصري : المصدر السابق، ص.86 ــ 93.

وتأكدت أهمية الزاوية الشرقاوية من الناحية السياسية بشكل أكثر وضوحا من ذي قبل، إبان الصراع بين أبناء السلطان سيدي محمد خصوصا عندما تركز التنافس عن السلطة بين مملكة مراكش ومملكة فاس؛ مما جعل لموقف شيخ الزاوية أهميته وخطورته نظرا لما تمثله زاوية أبي الجعد من نفوذ في كل من تادلة والشاوية كمنطقة فاصلة، وفي نفس الوقت كخط تماس لقوى الجانبين حتى عام 1797/1211. وهذا ما سنحاول توضيحه من خلال الأحداث التالية.

ما أن بويع المولى هشام بمراكش عام 1204هـ حتى أذن للشيخ العربي بالرجوع إلى زاويته، وهذا الأخير توجه في نفس السنة لتقديم بيعته للمولى اليزيد كاقتناع منه بشرعية بيعته وأسبقيتها من خلال إجماع الامة وممثليها(206)، وقابل المولى اليزيد موقفه هذا بالاكبار والامتنان، كما لبى طلبه بأن أذن للفقيه والعالم محمد بن أبي القاسم السجلماسي بالرجوع إلى زاوية أبي الجعد للمساهمة في تعمير حلقاتها العلمية. وعندما اطمأن سلطان الشمال إلى مساندة المنطقة الوسطى، قرر التوجه إلى حوز مراكش لجمع شتات المملكة وتصفية مشكل المولى هشام، وخلال تحركه أشيع في مراكش عن فشل حملته، وأنه اضطر إلى اللجوء إلى حرم زاوية أبي الجعد لانقاذ حياته..(208) وهو خبر كذبته جيوش المولى اليزيد وهو يعبر نهر تانسيفت ليدخل بعد ذلك مراكش ويهزم منافسه شر هزيمة، بيد أنه توفي متأثرا بجروحه في جمادى الثانية عام 1206هـ. وبذلك رجع الجنوب للتمسك ببيعة المولى هشام، في حين أن أهل فاس بايعوا المولى سليمان في 17 رجب من السنة. فواجهت الزاوية من جديد مشكل الاختيار.

(206) تاريخ الضعيف، ص.233.

(207) المصدر السابق، ص.235.

(208) المصدر السابق، ص.261، 262.

إن موقف الشيخ العربي المستجد كان يتمثل في اقتناعه بضرورة مبايعة المولى هشام، وهو الرأي الذي كان يميل إليه عدد من فقهاء وعلماء فاس وعلى رأسهم الشيخ التاودي بن سودة الذي كان يرى أنه يجب عدم التسرع في بيعة أي أحد من المطالبين بالحكم،

«حتى تجتمع كلمة المسلمين، ونبعث لأهل الحل والربط، ولسيدي علي بن أحمد[209] ولسيدي العربي بن المعطي[210]، ولأهل مراكش، ولأهل دكالة، لولد ابن العروسي[211] ولعبدة لعبد الرحمان بن ناصر[212]، ويقع الاتفاق على جمع واحضار أولاد سيدي محمد قاطبة وينظرون من يبايعونه منهم بعد التسليم أو بالقرعة أو بمن تعين، وكان أهلا، وإلا فالأحق بها هو مولانا هشام الذي حارب عليها وقاتل أخاه، وهو أيضا بالأرض التي مات فيها السلطان»[213].

تراجع القائد محمد وعزيز المطيري عن خطة هذا المشروع، وبدا له أن يبايع المولى سليمان معرضا عن رأي الفقيه التاودي ومن معه، ومنسقا مع القائد سعيد ومن معه من رؤساء العبيد، فما كان من أهل فاس إلا الاستجابة والموافقة[214]، في حين أن الشيخ العربي بقي متمسكا بشرعية

(209) وهو مولاي علي بن أحمد شريف وزان وشيخ زاويتها آنذاك.

(210) هو الشيخ العربي بن المعطي شيخ زاوية أبي الجعد الشرقاوية.

(211) هو أبو عبد الله محمد الهاشمي بن علي بن العروسي الدكالي البوزراري، قائد دكالة والحوز.

(212) هو القائد أبو زيد عبد الرحمان بن ناصر العبدي صاحب آسفي وأعمالها، توفي بعد عام 1212هـ.

(213) تاريخ الضعيف، ص.277، 278. وقد كان يتفق مع هذه الخطة القائد محمد وعزيز المطيري إلا أنه عدل عنها..

(214) المصدر السابق، ص.278.

الحمد لله وحده   وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

الفقيه الاجل العالم الافضل البركة الاكمل
محبنا في الله واعز ما لدينا من اجله سيدي العربي
المغطي ازكى سلام الله عليك ورحمته وبركاته
عن خير وعافية وبعد فاعلم انه ورد علينا حامله ابن عمك
الخير علي بن الصالح واخبرنا بانك تريد لنا جلب الخير
وتحض جميع عباد الله للطاعة والامتثال للكلمة
فمن لدنا اليك فيك محبة ومودة لان مثلك لا ينبغي
الا في الخير والصلاح والله يجازيك خيرا على ما سمعنا
عنك وبلغنا ونيتك في جانبنا وانا معك على محبة الله
الخالصة والله تعالى يحفظك بمنه والسلام في حادي عشر
شعبان المبارك عام 1206

وبيعة المولى هشام، بل إنه ندب نفسه لدعوة القبائل التي تحت نفوذه، لاعلان طاعتها وجمع كلمتها حول سلطان مراكش، وهو ما تؤكده وقائع المراسلة السلطانية الجوابية التالية[215].

«الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

الخاتم

الفقيه الأجل العالم الأفضل البركة الاكمل محبنا في الله واعز ما لدينا من أجله سيدي العربي بن المعطي أزكى سلام الله عليك ورحمته وبركاته عن خير وعافية وبعد. فاعلم انه ورد علينا حامله ابن عمك السيد علي بن الصالح وخبرنا بانك تريد لنا جلب الخير، وترشد جميع عباد الله للطاعة والامتثال للكلمة، فزادنا ذلك فيك محبة ومودة، لأن مثلك لا يسعى الا في الخير والصلاح والله يجازيك خيرا على ما سمعناه عنك وبلغنا من محبتك في جانبنا، وانا معك على محبة الله الخالصة، والله تعالى يحفظك بمنه والسلام.

في حادي عشر شعبان المبارك عام 1206هـ.

ويظهر أن سنة 1209هـ كانت تاريخا حاسما لبلورة موقف الزاوية من جهة، وتصفية أجواء الحياة السياسية في كل البلاد بصفة عامة.

رأى السلطان مولاي سليمان أن حل مشكل الشاوية وتادلة يجب أن يمر عبر زاوية أبي الجعد، الا أنه زاوج بين طلب بيعة شيخها له، والتلويح بأحد افراد الأسرة الشرقاوية في محاولة لخلق منافسة داخلية.. وبالفعل وجه

---

(215) من وثائق الزاوية المخزنية الرسمية. وقد امدني بها الحاج محمد إلشرقاوي المكلف بالزاوية حاليا (انظر صورتها المرافقة).

الحاج قدور ابن علي بن المعطي الشرقاوي (ابن الأخ) في أواخر جمادى الأولى عام 1209هـ إلى أبي الجعد لينذب الناس لبيعته، ولما أراد خطيب الجمعة ان يخطب بالمولى هشام صاح في وجهه الحاج قدور : «الذي أمرك أن تخطب بهشام الله (يهلكه)[216]، وقصد بذلك سيدي العربي»[217].

ولما رأى شيخ الزاوية افتراق الكلمة، واشتداد المنافسة بين ابناء عمه، خرج من الزاوية في اتجاه «بزو» في انتظار أن تتضح الأمور.. الا أن المولى سليمان شعر بخطورة هذا الخروج، مما جعله من جديد يوفد وفدا آخر إلى أبي الجعد يرأسه أخوه المولى عبد السلام مصحوبا بهدية، ثم اتبعه بالشريف محمد بن عبد الصادق الريسولي والقائد المكي بن الحبيب، فبعثوا في طلب الشيخ والأخذ بخاطره، ورغبوا منه التوجه معهم إلى السلطان، بعد أن أمنوه جانبه. وبالفعل بعث معهم ابنه سيدي محمد الذي قابله السلطان بمكناس[218]، وبعد شهور أي في 22 من ذي الحجة عام 1209هـ ورد على السلطان وهو برباط الفتح شيخ الزاوية سيدي العربي فاتحفه بمال كثير، هذا في الوقت الذي كانت فيه أوضاع المولى هشام قد آلت إلى الأفول بعد بيعة الرحامنة لأخيه المولى حسين بمراكش، فدخل الأخوان في معارك طويلة أضعفت قواتهما وفتت في عضضهما مما جعل المولى سليمان يرى في ذلك مؤشرا وحافزا لإخضاع الجنوب؛ خاصة بعد القضاء على ثورة المولى عبد المالك بن ادريس بالشاوية..

---

(216) اصلها «ايهلك».

(217) تاريخ الضغيف، حاشية بالصفحة رقم 300.

(218) تاريخ الضعيف، ص.300.

لقد كان السلطان مولاي سليمان يرغب من شيخ الزاوية أكثر من الحياد وذلك من خلال التودد والتقرب إليه... وهو ما ظل الشيخ مترددا فيه مما جعل مولاي سليمان يزاوج بين سياسة الليونة وسياسة التهديد والوعيد...

— ففي سنة 1210هـ وصل إلى فاس ابن الشيخ محمد الغربي الشرقاوي فأكرم السلطان وفادته ووجهه للرباط ؛ «فلما وصل سلا تزوج بنت الحاج بوعزة ولد القسطالي التي كانت زوجة السلطان سيدي محمد»(219).

— وفي مطلع عام 1211هـ وصل إلى فاس سيدي عبد السلام بن المعطي (أخ شيخ الزاوية) بصحبة ابن أخيه الحاج قدور ؛ فأظهر السلطان نحوهما كامل الرضى والاهتمام، وأعطى لسيدي عبد السلام «كسوة» ومنحة مالية بعضها له والبعض الاخر للشيخ العربي(220).

— وعندما عزم السلطان على الخروج لتصفية الجنوب ؛ كان من أول اهتماماته أن وجه وفدا هاما من كبار علماء وفقهاء فاس بصحبة ابنه المولى ابراهيم ومعهم ابن الشيخ الشرقاوي وأخيه عبد السلام ؛ إلى أبي الجعد وحمله رسالة هامة(221) تتضمن من جملة ما تتضمن الالحاح على خروج الشيخ العربي من زاويته كقرار لا يمكن بأي حال من الأحوال التراجع عنه أو رفضه مما جعل الشيخ محمد العربي يستجيب لرغبة السلطان ولطلب الوفد ؛ وأنشدهم(222) :

إن كان سفك دمي أقصا مرادكم   فما غلت نظرة منكم بسفك دمي

(219) المصدر السابق، ص.323، 325.

(220) نفسه؛ 335، 336 وهدية «الكسوة» لها مغزاها ودلالتها السياسية والمعنوية في اطار تغذية المنافسة داخل البيت الشرقاوي.

(221) نفسه، 356. وقد قمنا بادراج هذه المراسلة والتعليق عليها فيما يلي.

(222) الشرقاوي. ع : الفتح 205.

ثالثا : الزاوية في عهد مولاي سليمان 1212 ـ 1234(*) (97 ـ 1798)/(18 ـ 1819)

لقد أثّرت إلى حد بعيد ظروف تولية مولاي سليمان في علاقات المخزن بالزاوية... إلا أن هذه الأحداث نفسها أبرزت لنا بالفعل الحجم الحقيقي والجديد الذي أصبحت تحتله الزاوية الشرقاوية في الخريطة الدينية والسياسية على السواء؛ إذ أصبح حل المشاكل الكبرى مثل ولاية العهد والبيعة ؛ يأخذ بعين الاعتبار موقف وموقع الزاوية، ذلك أن شيخها أصبح يمثل عنصرا رئيسيا في التشكيلة الاجتماعية والسياسية على المستوى الوطني (أهل الحل والعقد) ؛ والتي تضم قوى دينية وصوفية وقبلية وعسكرية بل إن تولية مولاي سليمان جاءت في خضم تضارب أو توافق مصالح هذه القوى..

وتكتسي رسالة مولاي سليمان إلى شيخ الزاوية في هذا الظرف أهمية خاصة(224).. لأنها تغني الوقائع والأحداث السالفة، بل وترسم معالم واضحة لما ستتطور إليه العلاقات بين الجانبين.

اعتبارا لكل هذا، نبسط فيما يلي جوانب هذه الرسالة ـــ الوثيقة. والتي تطرح الاشكال التالي :

ما هي حدود ممارسات شيخ الزاوية ازاء سلطة المخزن الشرعية ؟ وهل هذه الحدود قارة وجامدة أم أنها تتحرك بين مد وجزر تبعا لواقع السلطة المخزنية من جهة وبارتباط مع النمو المادي والمعنوي لنفوذ الزاوية من جهة أخرى ؟

---

(224) انظر نص الرسالة في الملحق رقم 1 ص : 197.

(*) التحديد الزمني يهم بالدرجة الأولى الزاوية في عهد الشيخ محمد العربي (توفي 1234هـ).

مضمون الرسالة :

تُترجم مجموع التهم التي قُدمت بها الرسالة، ما وصلت إليه حدة غضب السلطان أو المخزن السليماني على شيخ الزاوية ؛ الذي حلته الرسالة بـ «الفقيه السيد العربي بن المعطي...» دون الاشارة إلى شيء من خصوصياته الصوفية...

وتُلخص هذه التهم : نقمة السلطان على مواقف شيخ الزاوية التي تجعله في نظره خارجا عن الجماعة ونابذا للبيعة.

إن مواقف شيخ الزاوية «الخارجة عن الجماعة» كانت السبب في عدة أمور خطيرة... منها على المستوى المحلي : فساد الوضع في تادلة ج الرعية عن طريق الرشاد... وعلى المستوى الوطني «الخوض في الفتنة الطامة».(225)

إن السلوك السني (في المجال السياسي) المطلوب من شيخ الزاوية، والذي يعتبر في نظر المخزن السليماني ؛ السلوك الايجابي الذي يترجم التزام الجماعة والقيام بفروض البيعة يتمثل في :

- السمع والطاعة
- تقديم المعونة للعمال المعينين على المنطقة.
- مساعدة الجباة للقيام بمهامهم الحيوية.

إن السلوك السني الذي لم يلتزمه الشيخ محمد العربي... مخالفا بذلك نهج آبائه وأجداده الذين كانوا ؛

«رحمة لتلك البلاد، لا ينقمون على الحكام بمجرد الخلاف والعناد، حسبهم الوقوف عندما حد لهم...»

تعني الصراع بين أبناء السلطان سيدي محمد على الحكم. وهو ما تمت الاشارة إليه سالفا.

تستعرض بعد ذلك الرسالة مجملا لتطور علاقات الشيخ الشرقاوي مع السلطان سيدي محمد بن عبد الله وخلفه مولاي سليمان إلى حين كتابة الرسالة.. لتخلص إلى أن التجربة في مجملها تجربة فاشلة.. كلها أزمات وصراعات، يتحمل فيها الشيخ محمد العربي كامل المسؤولية.. وهو ما دفع بالسلطان مولاي سليمان إلى اتخاذ قرار اخراج الشيخ من زاويته ؛ محتديا في ذلك حدو والده قبل هذا التاريخ.. على اعتبار أنه الاجراء الناجع والقمين باستعادة المنطقة لسابق عهدها، المتمثل في سيادة الاستقرار والأمن والخلود للطاعة.

إن نقطة الخلاف الرئيسية في كل الأحوال سواء في عهد المولى سليمان أو والده من قبله تتمثل في ضرورة اتخاذ الشيخ موقف «الحياد الايجابي» من أوضاع المنطقة، بما في ذلك اختيار الخروج من أبي الجعد إلى فاس للاشتغال بالله وبدينه القويم عن الناس... وهو ما عبرت عنه الرسالة بـ :

«الخروج معنا عن أسواق العامة...».

تُختم الرسالة بما بدأت به شكلا ومضمونا : إغلاظ في القول وتهديد وتحذير ووعد ووعيد.. من عاقبة التردد في الإستجابة للأمر السلطاني لأن ذلك معناه التأكيد والاصرار على مفارقة السنة والجماعة.

مناقشة الرسالة

1 — إن الفكرة المحورية في الخطاب السالف تتلخص فيما يراه السلطان خروج عن الجماعة ورفض للبيعة من طرف شيخ الزاوية وما يراه هذا الأخير عكس ذلك..

فأي جماعة ؟ وأي بيعة ؟

للإجابة على ذلك يجب الرجوع إلى ظروف المغرب التي أعقبت وفاة

السلطان سيدي محمد بن عبد الله ؛ والمتمثلة في الصراع بين أبنائه حول الحكم ؛ هذه الأزمة التي استمرت من 1204هـ إلى 1212هـ وعندما توفي المولى اليزيد عام 1206هـ (1792) انقسمت البلاد بين مبايعين للمولى هشام والمولى مسلمة والمولى سليمان... وهذا الواقع المعقد والمرتبك هو الذي جعل عددا من فقهاء وعلماء فاس وعلى رأسهم الشيخ التاودي بن سودة يترددون في مبايعة أي أحد من أبناء السلطان سيدي محمد بن عبد الله ؛

«حتى تجتمع كلمة المسلمين، ونبعث لأهل الحل والربط.. ويقع الاتفاق على جمع واحضار أولاد سيدي محمد قاطبة وينظرون من يبايعونه منهم بعد التسليم أو بالقرعة أو بمن تعين وكان أهلا، وإلا فالأحق بها هو مولانا هشام الذي حارب عليها وقاتل أخاه، وهو أيضا بالأرض التي مات فيها السلطان».

لقد كان شيخ الزاوية الشرقاوية.. من بين أهل الحل والربط، ومن جملة المقتنعين ببيعة المولى هشام.. وأنه بقي متمسكا بها حتى بعد أن تراجع عن ذلك أهل فاس تحت ضغط زعامات قبلية وعسكرية..

فكيف يمكنه والحالة هاته أن ينزع عن ربقته بيعة ملك مراكش السابقة ؟. وهل يعتبر بناء على هذا الموقف خارجا عن الجماعة ؟. فأي جماعة تعني الرسالة ؟. مادام الواقع السياسي موزعا إلى جماعات وإلى ولاءات..

2 ــ تحاول الرسالة بموازاة مع الفكرة الرئيسية رسم حدود شيخ الزاوية التي يجب أن يتحرك فيها وفي إطارها.. وقد يسر لنا تلمس هذه الحدود استشهاد الرسالة بسيرة والد شيخ الزاوية وجده.. والتي في مجملها

---

(226) تاريخ الضعيف؛ 277، 278.

لا تخرج عن إطار العمل لصالح السلطة الشرعية.. إلا أن ظروف المغرب والزاوية في عهد السلطان سيدي محمد والشيخ العربي تميزت بعدة مستجدات هي التي أفضت إلى الاجهاز على الزاوية عام 1200هـ دون الاستغناء عن شيخها وأدواره.. وهو ما تبلور بشكل ملموس خلال الأزمة السياسية التي أسفرت عن تولية مولاي سليمان؛ والتي تعتبر بدورها ظروفا استثنائية وغير عادية من تبعاتها الدفع بالزاوية وشيخها إلى المساهمة والمشاركة في أحداث وتفاعلات هذه الفترة عن اختيار أو غير اختيار منه، بحكم ما أصبحت تمثله زاوية أبي الجعد من أهمية في واقع الحياة الاجتماعية والسياسية لمنطقة تادلة وخارجها ؛ وهو ما تقربه الرسالة نفسها.

«فما قدرتم عن التقصي (بمعنى الابتعاد) عن العامة ولا رجعتم عن مكاتبة الحكام والخوض في الفتنة الطامة»

3 ـــ إن موقف شيخ الزاوية الذي تحاسبه عليه الرسالة.. لم يكن الهدف منه الرفض الكلي للبيعة والمؤسسة القائمة عليها.. كما لم يكن يعني تطلع شيخ الزاوية إلى «مغامرة كبرى» في هذا الاتجاه.. بقدر ما كان ضحية لظروف لم يساهم في بلورتها.. إلا أنها نفس الظروف التي جعلت من الزاوية وشيخها عنصرا رئيسيا في اعادة تنظيم الخريطة السياسية الجديدة تحت ظل العاهل الجديد والوحيد : مولاي سليمان.

كان خروج الشيخ من زاويته في أواخر ذي القعدة عام 1211هـ وهي نفس السنة التي تم فيها اتمام توحيد البلاد لصالح السلطان المولى سليمان بعد دخوله مراكش.. وهنالك وفدت عليه بيعة سائر مناطق الحوز، وحتى يدعم هذه الوحدة، جعل طريقه من مراكش إلى فاس عبر تادلة، فأمر قائده عبد المالك بالإغارة على قبائل «بني زمور»، خدام

الزاوية المجاورين.. فنهب أموالهم ثم احتال بالقبض على عدد من رجالهم وفرسانهم، فبعث بهم السلطان إلى مكناسة.

«فسجنوا بها حتى صلحت أحوالهم بعد ذلك فسرحهم».

وبذلك كان نفي الشيخ عن الزاوية ؛ إزاحة للستار المادي والمعنوي الذي كان يحمي القبائل المحيطة بالزاوية من قوة المخزن ؛ أو على الأقل هذا ما كان يتصوره ويقتنع به المخزن.. فإلى أي حد ستصمد هذه القناعة أمام اختبارات عملية واردة ومتوقعة ؟

أ ــ الزاوية في غياب شيخها (1212/1223هـ) ــ 97 ــ 1798/ 1808م.

ونعني بها المدة التي قضاها الشيخ مبعدا عن زاويته، بعد أن أمره المولى سليمان بسكنى مدينة فاس.. ومع ذلك فقد كان يتردد على الزاوية من وقت لاخرى في اطار مهام مخزنية ؛ وشهدت هذه المدة عدة تحولات نجملها فيما يلي :

* اتبع المولى سليمان نفس سياسة والده في معاملة الشيخ العربي، إذ سرعان ما ألحقه بحاشيته وأصبح مرافقا له في حله وترحاله، بل كلفه السلطان بعدة مهام سياسية إما بمفرده أو بصحبة شيخ وزان الشريف مولاي علي ؛ كما هو الشأن عندما أرسلهما لأخذ بيعة عبد الرحمن بن ناصر العبدي صاحب أسفي وعبدة عام 1212هـ. (1797م)[227] وعندما دخل السلطان مراكش من حملته هاته التي لم تكلفه أدنى مشقة ؛ نجد الشيخ العربي هو إمامه وخطيبه في صلاة الجمعة يوم 11 جمادى الثانية من العام[228]. وبفاس أنزله السلطان «بدار المرايا»، حيث

---

(227) تاريخ الضعيف؛ 364، 367.

(228) نفسه؛ 374.

كان المولى سليمان يتردد عليه من وقت لاخر في جملة من يزوره من كبار الفقهاء والعلماء..

* وشهدت هاته الفترة أيضا تركيز السلطان على منطقة تادلة، ففي عام 1215هـ بعث السلطان جيوشه بقيادة أبي عبد الله الحكماوي لغزو برابرة آيت أومالو، إلا أن هاته القوات هزمت هزيمة منكرة، وأسر القائد المذكور مدة إلى أن بعث به البربر إلى السلطان(229)، وهي نفس السنة التي اتفقت فيها عدة قبائل بربرية؛ بني مطير وآيت يوسي ومجاط وكروان على تعيين أبي عزة بن ناصر المطيري عاملا عليهم، وعلى نبد «ربقة الأحكام عن أعناقهم..»(230)، واشتغلوا في النهب والسلب إلى أن كانت سنة 1218هـ فغزاهم السلطان بمساندة أيت أومالو فالحق بهم هزيمة كبرى(231).

* ويظهر أن الاستقرار الذي كان ينشده السلطان في تادلة بعد اخراج شيخ الزاوية منها قد بات بعيد المنال، كما هو واضح من عدد الولاة الذي كلفهم بالمنطقة دون طائل..(232) فبعد تعيين أخيه المولى موسى عام 1214هـ نجده يعين محله في السنة الموالية أبا القاسم الزياني (المؤرخ) الذي أمره بالقبض على القائد صالح الرضي؛ إلا أن ورديغة وقبائل أخرى أرغموا الزياني على اطلاق سراحه قهرا مما جعل السلطان يكلف عامل تامسنا المدني بن الغازي المزمزي بتادلة، وهذا الأخير عين محمد بن البهلول خليفة له بأبي الجعد، وهو حل لم يحض بقبول القبائل التادلية مما جعلها تثور من جديد في وجه عاملها، بل وتغتنم فرصة تخاذل جيش

(229) نفسه ؛ 409، 410 وكذلك الناصري : الاستقصا. 8، ص 107.

(230) تاريخ الضعيف ؛ 413.

(231) الناصري : مصدر سابق ؛ 108.

(232) انظر لائحة قواد وعمال تادلة بالصفحة رقم : 188، 189.

العبيد عنه لتلحق به الهزيمة، وتجرد محلته من خيلها وسلاحها، في حين اعتصم القائد المدني بحرم زاوية أبي الجعد، وتحصن بها إلى أن وصل شيخ الزاوية وتدخل لدى قبائل المنطقة، فأرجعت إليه خيوله ورافقه الشيخ محمد العربي إلى أن عبر به المنطقة وأوصله لمكناس[233].

وأمام تردي أوضاع المنطقة، كلف المولى سليمان شيخ الزاوية بمرافقة قائد المنطقة الجديد، الحاج سليمان الوديي عام 1219هـ بعد أن عزل عاملها الحبيب البلغيثي، في محاولة لاستعمال نفوذ المرابط حتى تجتمع القبائل عليه، وتخلد إلى الاستكانة والادعان، وهو إجراء بات غير مأمول العواقب مادام كرسي الزاوية فارغا ودورها معطلا، وهذا فعلا ما أكدته الأحداث الموالية، فبعد أن ضاق السلطان درعا بتصرفات قبائل تادلة، خرج عام 1222هـ إليها غازيا، فأوقع بقبائل بني موسى ورفال وبني عياط «إلى أن اذعنوا إلى الطاعة وجبوا زكواتهم واعشارهم[234]» في حين نجده يتجاوز عن قبيلة آيت عتاب، وهو موقف له دلالته لما لهذه القبيلة من علاقة دموية وروحية مع الزاوية وشيخها..[235]، وفي السنة الموالية حرك من جديد من مراكش للمنطقة، يريد هذه المرة قبائل ورديغة التي خرجت عن طاعة القائد ؛ فتقدمت جيوش السلطان للمنطقة، حيث جعل السلطان مخيمه قريبا من أبي الجعد وشرع في تمهيد البلاد من حولها، فاوقع بقبائل السماعلة وبني خيران، في حين كلف قائده ولد محمد بن الصغير السرغيني ببني عياط وأرفال، ثم تحول السلطان إلى قصبة تادلة

---

(233) حول تفصيلات ذلك انظر : تاريخ الضعيف، ص.407 ــ 418.

(234) الناصري : المصدر السابق، ص.113.

(235) اشرنا فيما سبق إلى زوايا آل القيرواني التي أنشئت من طرف تلامذة الشيخ الشرقي كما أن الشيخ العربي تزوج بالسيدة الحقاوية من نفس الأسرة المرابطية.

وهناك أمر بقطع سبعة عشر رأسا من ورديغة، وبعثها تعلق بأبواب رباط الفتح(236).

* وفي الوقت الذي بات فيه إحكام المخزن قبضته على القبائل التادلية (السهل والدير) أمرا مؤكدا أو قريب المنال، نجد المولى سليمان بعد شهور قليلة يقرر العفو عن شيخ زاوية أبي الجعد(237)، ويأذن له بالرجوع إلى مقره وقراره في يوم السبت 22 جمادى الثانية عام 1223هـ، منعما عليه بكل مظاهر الرعاية والاحترام،

«وأعطاه السلطان ملف الكتان، وثلاث محاف وأعطاه إحدى وثمانين بغلة تحمل أثقاله، ونحو أربعة آلاف بين ذهب وفضة وطالبه في المسامحة، وأمره ان يردَّ كل من كان خرج من بجعد من أهله وأولاد عمه..»(238).

وكان من بين المودعين الشريف مولاي علي الوزاني الذي شيعه إلى وادي بهت.

ب ـــ فترة 1223هـ ـــ 1234هـ أو واقعية قرار العودة :

إن قرار العفو لم يكن إجراء تلقائيا، بل أملته ظروف المخزن من جهة،

(236) مهد لذلك بكتاب لأفراد الأسرة الشرقاوية يأمرهم بالخروج من أبي الجعد قبل أن تصل الجيوش المخزنية إليه. (تاريخ الضعيف، ص.451 ـــ 453).
وقد جعل صاحب الاستقصا عام 1224 كتاريخ لهذه الحركة.
ـــ الناصري : الاستقصا، ج8، ص.114.

(237) من الشخصيات التي توسطت لدى مولاي سليمان بغرض إرجاع الشيخ إلى زاويته، الفقيه والأديب حمدون ابن الحاج، الذي قال يوم ختمه لتفسير البقاعي مستشفعا للمولى سليمان، وأن يصلح ثغور الاسلام قصيدة مطلعها :
طاب المقام وطاب السير والسفر وما تشاؤه فيه النصر والظفر
ـــ ابن ابراهيم : الاعلام، ج5، ص.183.

(238) تاريخ الضعيف، حاشية بالصفحة رقم 453.

وظروف المنطقة من جهة أخرى، فقد اعتبر المؤرخ الناصري عام 1225هـ تاريخا فاصلا في حياة مملكة السلطان مولاي سليمان[239]، مما دفعه إلى التفكير في الاقتصاد جهد الامكان في آلة حربه وصندوق خزينته الذي ظل يعاني الخصاص طوال حكمه.. من هذا المنظور يجب فهم سياق قرار ارجاع الشيخ إلى زاويته، عله ينجح في المهمة الشاقة التي فشل فيها ولاة المنطقة الواحدة تلو الاخر، في حين أن حملاته العسكرية لم تكن لتحل المشكل من أساسه، إذ أن مفعولها ينتهي بمغادرة تلك القوات للمنطقة؛ وحتى يكون لهذا القرار مدلوله وفاعليته نجد السلطان المولى سليمان يفصل منطقة تادلة عن حكم القائد الغازي الشاوي، ونصب عليها القائد صالح الورديغي عام 1225هـ.

وبالفعل فقد استعاد الاقليم انسجامه، وخلد للأمن والاستقرار، وكان عبور السلطان لهاته الناحية عام 1227هـ بدون هدف عسكري دلالة على ما ذهبنا إليه، فقد خرج لاستقباله شيخ الزاوية مهنئا ومرحبا بمقدمه، كما قدم له المؤونة وأهداه فرسا «اشتراه بمائة مثقال»[240].

وفي السنة الموالية ظهرت أبعاد وواقعية هذا القرار، حين توسط شيخ الزاوية بين السلطان والبربر، مجنبا إياه متاعب حرب غير مأمونة العواقب، بل إن قبائل البربر أهدت إليه «بنتين من بناتهم، ودفعوا المال فعفا عنهم»[241].

لقد كان بالامكان أن يستمر جو الود والتعاون بين الزاوية والمخزن على وتيرته لولا مناورات ودسائس القواد وتحرشات قبائل المنطقة.

---

(239) الناصري : الاستقصا، ج8، ص.114 «ثم انعكست الأحوال وتراكمت الأهوال..».

(240) تاريخ الضعيف، ص.485.

(241) المصدر السابق، ص.498.

ففي عام 1230هـ هاجمت ورديغة محلة القائد محمد بن الصغير السرغيني، فلم يسعه إلا الهروب والنجاة بنفسه «وحلف أن لا يحلق رأسه إلا إذا أصاب غرضه من ورديغة»[242] مستغيثا بالسلطان وجيوشه، هذا في الوقت الذي وصل شيخ الزاوية بدوره لمراكش طالبا عفو السلطان، بل دفع له هدية ورديغة المالية..

تظاهر السلطان بقبول شفاعة الشيخ ووساطته، إلا أن هواه كان مع قائده، فخرج السلطان بعد عيد المولد النبوي ومعه سيدي العربي والأشراف أولاد سيدي علي الوزاني وفقهاء فاس وغيرهم يريد تادلة خصوصا ورديغة.. وحتى يتجنب الاصطدام بشيخ الزاوية أو تعكير صفو العلاقات بينهما، لجأ إلى الحيلة لتأديب القبيلة المذكورة.

فبعد أن قطع وادي أم الربيع، أقام بفسطاطه بغرض الاستراحة لبعض الوقت، في حين توجهت ثلاثة جيوش للقبيلة الورديغية؛ الباشا العربي بن بلال بعرب الويدان والباشا قرران (اكرران) مع قبائل الشاوية، وابن الغازي الزموري بمحلة البربر، فداهمت الجيوش ورديغة وهي بضواحي بجعد «مزاوكة» فأصابت منهم الجيوش غرضها «فأكلوهم أكلا لما.. وقطعوا من رؤوسهم مائة رأس واثنين وعشرين رأسا..»[243].

وبوصول السلطان كان كل شيء قد انتهى.. وحتى يمحو السلطان الآثار السيئة لهذا الحادث، نجده يستدعي أبناء الشيخ لمرافقة موكب الحج عام 1232هـ بصحبة ولديه المولى علي والمولى عمر.. إلا أن عودة هذا الركب عام 1233هـ اقترنت بدخول الوباء الذي انتشر أولا في السواحل الشمالية الغربية ومنها عم بقية انحاء البلاد، فاشتدت وطأته خلال عام 1234 وكان من بين ضحاياه شيخ الزاوية محمد العربي،

(242) نفسه، ص.528.

(243) تاريخ الضعيف، ص.529.

«وتوفي ولده سيدي الحاج عبد السلام، وتوفي جل أولاد الشيخ وعدد كثير من ذويه وحشمه»(244).

لتنتهي بذلك حياة الشيخ الحافلة والغنية بالأحداث والتقلبات، والتي قضى منها اكثر من خمسين سنة كرئيس للزاوية.

* ان ما يجب الاشارة إليه في حينه، هو ما يمكن اعتباره مساهمة تاريخية بالغة الأهمية من طرف المؤرخ الضعيف الرباطي.. إذ بدون مؤلفه، كان من المتعذر الاحاطة بحياة شيخ الزاوية محمد العربي بكثير من التفصيل، تلك التجربة الغنية التي أعطت للزاوية صورتها الكاملة في الزمان والمكان.. وبدون مؤلف الضعيف، كانت إشارات واماءات «الفتح الوهبي» وغيره، تبقى مجرد خطوط تفتقد الوضوح والتعبير، مما يجعلنا نتساءل عن حقيقة هذا الاهتمام والتركيز على شخص شيخ الزاوية في هذا الظرف، وهو تساؤل سرعان ما نجد تفسيرا له من خلال تحركات الشيخ وتردده المستمر، بل وأحيانا ملازمته لملوك عصره ملازمة طويلة.

* من النقط الجديرة بالاهتمام أيضا، التطور «الكيفي» لممارسة شيخ زاوية أبي الجعد، اذ لاحظنا توسعا هاما في مهامه وممارساته السياسية سواء على المستوى الجهوي أو الوطني، مع خفوت ملحوظ في مهامه الدينية والعلمية، وهي ظاهرة ستتأكد اكثر في تاريخ الزاوية اللاحق.. اذ ان مهام الشيخ الاجتماعية وتدخلاته وتحركاته السياسية جعلته يصرف جل اهتمامه لذلك، وكان لعدم الاستقرار الذي عرفته الزاوية في عهده، خاصة تغريب أطرها؛ أكبر الأثر في تعميق هذه الظاهرة.

* بررت مصادر الزاوية مواقف محمد العربي المتصلبة من المخزن وموظفيه بأنها لا تخرج عن اطار ما عرف به معظم الصلحاء والمتصوفة

---

(244) الشرقاوي ع : الفتح، ص.268.

من أمر بالمعروف ونهي عن المنكر، إلا أن هذا الدور قد اتسع نطاقه إلى الحدود التي أصبح فيها في تناقض مع المهام التي رسمها أولو الأمر لهؤلاء الأشياخ، خاصة عندما تتطور الزاوية إلى قوة مادية ومعنوية تهدد مصالح المخزن نفسه، في منطقة ظلت سلطة المخزن لا تبغي عنها بديلا مادام في إمكان «حركات» السلطان وجيوشه أن تمتد إليها بسهولة عكس مناطق الجبال التادلية المجاورة.

* وفي آخر حياة الشيخ العربي، وقع تحول آخر يتمثل في التزام الشيخ الكتاب والسنة كأساس للتربية الصوفية، ناصحا مريديه بقول الرسول عليه السلام : إذا أحب أحدكم أن يحدث ربه فليقرأ القرآن.. حتى كثرت الزوايا القرآنية في عهد الشيخ العربي، وهو تحول اقترن برجوعه من فاس بعد أن كان مبعدا عن زاويته حتى عام 1808هـ.. وهذا التحول لا يجب فصله عن التطورات الدينية بالمغرب في مطلع القرن 13 = 19م

فقد وصلت أصداء التعاليم الوهابية للمغرب بعد عام 1803م[245] وكان من الذين أظهروا تحمسا لها العلامة حمدون ابن الحاج الذي عرف بعلاقاته الوطيدة بالشيخ العربي أثناء اقامته بفاس، بل كان من الذين تشفعوا لدى السلطان لارجاعه لوطنه[246].

وهي نفس الشخصية العلمية التي كلفها السلطان بالرد على رسالة عبد الله بن سعود الوهابي عام 1226هـ، وحمل هذا الجواب ولده ابراهيم على رأس وفد العلماء والحجاج خلال ذلك العام.

(245) وهذا التاريخ يوافق استيلاء الوهابيين على مكة في المرة الأولى.. والتي وافقت رجوع الحجاج المغاربة، في حين أن توحيد الجزيرة العربية على يد آل سعود تم ما بين 1806 ــ 1808م. وهذا يخالف ما ذهب إليه البعض من أن السلطان سيدي محمد بن عبد الله تأثر بالأفكار الوهابية في أواخر حياته.
ــ انظر : ش.ا. جليان : تاريخ افريقيا الشمالية (المغرب)، ص.311.

(246) توفي حمدون ابن الحاج في 7 ربيع الثاني عام 1232هـ.

«فضمن الجواب عنها في قصيدة مدحه فيها، ولم يتعرض لبدعته وذمه والرد عليه..»[247].

وبرجوع الوفد تبلور موقف المولى سليمان، اذ نراه يتحمس للأفكار الوهابية مهاجما من اسماهم بـ «متفقرة الوقت» في خطبته المشهورة، التي قرئت في سائر مساجد البلاد، مرشدا، ومحذرا، ومنذرا أصحاب البدع وأهل الاهواء الذين «أحدثوا في دين الله ما استوجبوا به صقرا»[248].

فهل كان موقف شيخ الزاوية نابعا من قناعات دينية وعقائدية محضة ؟ أم أنه كان مسايرا للخط الجديد الذي تبنته السلطة الرسمية في إطار الحفاظ على الانسجام والتعايش بين الزاوية والمخزن؛ في وقت لم يمض على رجوع الشيخ من منفاه أكثر من ثلاث سنوات،[249].

وبوفاة كل من محمد العربي الشرقاوي عام 18 ــ 1819هـ وقبله الشيخ أحمد التجاني عام 1230هـ فقد السلطان سندين هامين، في وقت أجمعت فيه أهم قوى البلاد الدينية بمساندة أتباعها وقواعدها القبلية على مناهضة السلطان والتصدي لمشروعه الاصلاحي بزعامة شيوخ كل من الطريقة الدرقاوية[250] والزاوية الوزانية[251]؛ بالاضافة إلى الثائر : أبو بكر

---

(247) الزياني : الترجمانة الكبرى.. تحقيق ع.الكريم الفلالي، ص.396.
وقد كان الزياني من المناهضين للأفكار الوهابية، محبذا موقف التونسيين منها.

(248) انظر مضمون الخطبة في الملحق رقم (2)، ص. 202.

(249) حول مناظرة علماء المغرب مع الوهابيين، وأصداء دعوتهم بالمغرب انظر كنموذج ما كتبه الناصري : الاستقصا، ج 8 ص 121 ــ 124.

(250) ونعني به الشيخ محمد العربي الدرقاوي المتوفى عام 1239 = 1822م.

(251) ونعني به الشيخ الحاج العربي بن علي الوزاني، ت 1267 = 1850م.

أمهاوش[252]. وهي الأزمة الداخلية الخطيرة التي كان من تبعاتها ذهاب ما تبقى لحكم السلطان مولاي سليمان من هيبة.

إن مواقف الزاوية إزاء المخزن العلوي يمكن اجمالها كالتالي :

1 ــ حالة الشيخ محمد الصالح : إن قوة المخزن المتبلورة في أكثر من مظهر زمن السلطان مولاي اسماعيل؛ دفعت بالزاوية إلى الانصراف الكلي إلى النشاط العلمي والديني.. مع إظهار التأييد لأعمال المخزن؛ وفي نفس الوقت التحرك بطريقة أو أخرى اتجاه موظفيه الجهويين قصد التخفيف عن الرعية.

2 ــ حالة الشيخ محمد المعطي : إن وجود المخزن في حالة انقسام وصراع أدى إلى توسع دور الزاوية الاجتماعي والسياسي المتمثل في الصلح والمهادنة والتخفيف من الأزمة المتعددة الأوجه؛ وأحيانا المشاركة المعنوية في الصراع بدعوة بعض القبائل لمساندة قائد ما.. (القائد الرضي ضد الشاوية).

كما نجد أن الملوك وأدعياء العرش يتنافسون على كسب ولاء الشيخ وتأييده سيما عندما تصبح البلاد مقسمة بين عاهلين : عاهل مراكش وعاهل فاس ــ وربما أكثر ــ نظرا لوجود الزاوية ومجال نفوذها في منطقة متوسطة وعازلة بين إمارة الشمال وإمارة الجنوب.

وفي نفس الاطار وعلى المستوى الجهوي؛ نجد قائد المنطقة يعمل على كسب تأييد شيخ الزاوية بمختلف الوسائل؛ حتى تلتئم القبائل

(252) كان أبو بكر أمهاوش وراء انتفاضات البربر المتوالية أواخر حكم المولى سليمان خاصة معاركه وحروبه عام 1234، 1235 في وقت كان الوباء يجتاح المغرب وذهب بقسم كبير من سكانه.
ــ الناصري : الاستقصا، 8ص؛ 116، 117 و 134 ومن بعدها.

المتنافرة من حوله وهذا ما تم بالفعل وبأقل ما يمكن من الجهد بالنسبة للقائد الرضي الورديغي.

3 ـــ **في حالة الشيخ محمد العربي** : نجد أن قوة الزاوية المادية والمعنوية تجاوزت المجال التقليدي لها باتساع مجالات عملها وتدخلها، وأن هذا التدخل اتخذ عدة أشكال؛ كان أبرزها دور الزاوية في رسم الخريطة القبلية المحيطة بالزاوية أو البعيدة عنها، واعتماد القبائل على الزاوية إلى حد كبير في حل مشاكلها الحيوية من خلال تسهيل عمليات الاستطان والانتجاع، أو من خلال تقنين وضمان التحالفات المصلحية من نوع (طاطا).

كيف يمكن التوفيق إذا بين هذه المعطيات التي تحولت إلى ممارسات متجدرة بالنسبة للزاوية والقبيلة، وبين تطلعات المخزن في عهد سيدي محمد بعد انقشاع الأزمة.. والذي يريد أن يستعيد المبادرة في منطقة جد حيوية وحساسة؛ باعتبار مجاورتها لمنطقة جبلية تعذر التحكم فيها بعد وفاة مولاي اسماعيل.. بيد أن هذا لا يعني السماح باتساع دائرة انحصار النفوذ في مجال جغرافي وقبلي بإمكان الجيوش المخزنية أن تبسط نفوذها وكلمتها فيه، وأن دور الزاوية الحقيقي هو تيسير وتدعيم هذا النفوذ وربما إلى مناطق استعصت عن الآلة العسكرية، بهدف تقليص الحدودي لمن بمستطاعهم «نبذ ربقة الأحكام المخزنية عن أعناقهم».

لقد أصبحت سلطة القائد الجهوي ـــ في ظل تطلعات المخزن الجديد ـــ سلطة سلبية ؛ على اعتبار أن أهم عقبة في ممارسة سلطته وسلطة المخزن بفعالية هي الحاجز المادي والمعنوي للزاوية ؛ ولذلك كان من الضروري الإقدام على حل حاسم في هذا الاتجاه.

إن اجراء اخراج الشيخ من الزاوية لصالح تدعيم سلطة القائد لم يحل المشكل، بالرغم من «الحركات» المتوالية وبالنظر إلى تعيين العديد من الولاة وتغييرهم الواحد بعد الاخر بما في ذلك افراد أسرة آل الرضي ذات النفوذ التقليدي والقبلي بالمنطقة..

لقد استخلص المخزن في آخر عهد مولاي سليمان ــ على الأقل ــ النتيجة التالية : ضرورة إيجاد جو من التفاهم والتعايش بين القائد وشيخ الزاوية لصالح المخزن، وهو ما تم بالفعل. وأن على السلطان أن يضمن ويظهر أكبر ما يمكن من المساندة للطرفين ــ وإن كان ذلك صعبا أحيانا. إذ هي الوسيلة الوحيدة المتبقية لاحتواء المنطقة صوفيا وقبليا؛ مادامت ظروف المخزن المالية والعسكرية في انحصار مستمر منذ وفاة مولاي اسماعيل.. لتتوقف دائرة نفوذه الفعلية في حدود الزاوية والقصبة التادلية دون أن تتجاوزهما؛ وإذا حدث فإن ذلك من باب المغامرة التي لا تعرف عواقبها.

ولاة منطقة تادلا[253] ابان الحكم العلوي[254]
(من عهد المولى اسماعيل إلى عهد المولى سليمان)

* المولى احمد بن اسماعيل (1111هـ 1139هـ)
  كان ينوب عنه : القائد المحجوب والقائد موسى الجراري.
* القائد الرضي الورديغي
* مولود ولد الحبيلي (1147 ــ 1149هـ)
* القائد الرضي الورديغي. (عزله السلطان سيدي محمد في أول حكمه)
* البوزراري الجابري
* محمد بن حدو الدكالي توفي 1176هـ
* محمد بن احمد البوزراري الدكالي.
* صالح بن رضى الرديغي (عين عام 1183)
* محمد بن احمد البوزراري (عزل عام 1188هـ)

---

(253) نشير إلى انه خلال حكم السلطان احمد المنصور السعدي (986هـ ــ 1012هـ) اناب عنه بتادلة ابنه زيدان بـ «القصبة الزيدانية».

(254) اقتصرت هنا على ذكر اسماء القواد الولاة الذين عثرت عليهم خلال البحث. وهذا يعني وجود اسماء اخرى..

* صالح بن رضي الورديغي (اعيد عام 1188هـ وبقي إلى بداية التسعينات هـ)

— اناب عنه بزاوية ابي الجعد اخاه عبد القادر.

* مولاي مــوســى (كان عام 1214هـ)

* بلقاسم الزياني (المؤرخ) كان عام 1215هـ

* المدني بن الغازي المزمزي (عام 1216) بالاضافة إلى [illegible].

— اناب عنه بزاوية أبي الجعد محمد بن البهلول.

* الحاج الحبيب البلغيثي (عام 1218هـ)

* الحاج سليمان الوديي (عام 1219هـ)

* المدني المزمزي (كان عام 1223هـ)

* صالح الرضي الورديغي (اعيد عام 1225هـ)

* محمد بن الصغير السرغيني (كان عام 1230هـ)

خلاصة

إلى أي حد ساهمت هاته الدراسة عن زاوية أبي الجعد في إعطاء فرص أوسع للتعريف بمؤسسة من أهم التنظيمات الاجتماعية التي أفرزها مغرب القرن 10هـ/16م.. ثم تواصل ترسيخها وتجذرها عبر باقي مراحل التاريخ المغربي.

فبالاضافة إلى المرتكز الديني الصرف الذي كان منطلق إنشاء الزاوية؛ وجب أيضا عدم إغفال الاطار القبلي الذي أفرز هؤلاء الصلحاء.. فظهر ما يشبه مشروع توسع بشري له أبعاد وطموحات اقتصادية، اتخذ كرمز له محاولات هؤلاء الأشياخ تأسيس زاويتهم في مناطق أكثر طمأنينة واستقرارا وايجابية.. إلا أن فشل هذا المشروع لم يكن يعني الفشل الكلي والنهائي للقبيلة والشيخ معا؛ إذا استطاعت الايديولوجية الدينية أن تحتوي وبشكل حاسم التفاعلات القبلية وتوجهها لصالحها. وكنتيجة للوضع الجديد؛ أصبح لزاما على الزاوية أن تلتزم جهد الامكان الحياد والترفع عن الصراعات، حتى يكون بإمكانها البث فيها وتوجيهها وفق مقتضيات ظروف المنطقة من جهة والبلاد عامة من جهة أخرى. وهذا لا يعفينا من البحث عن العلاقة بين خريطة الصلاح في شكل زوايا، ومزارات وأسر مرابطية أو شريفة وبين تموضع الخريطة البشرية التي نحت منحى الاستقرار النسبي أو الكلي، منذ أن سدت في وجهها المنافذ التقليدية للانسياح.

لقد واجهت الزاوية كمؤسسة دينية صعوبات أكبر، تتمثل في موقف زوايا مشابهة.. بسبب ماضي منطقة تادلة الديني، فكان نجاح محمد

الشرقي ومن جاء بعده، مرهونا بمدى أهمية حركة الاستقطاب الصوفي إزاء تنظيمات مماثلة ومنافسة؛ بحيث لا يمكننا بتاتا نفي دور موقعها البعيد نسبيا عن بؤرة الفتن والعصيان في ترشيح الزاوية الشرقاوية لتلقي الدعم المادي والمعنوي من المخزن القائم.. على اعتبار أنها تنتظم داخل نسق متكامل أكثر ارتباطا بالمشروعية؛ يبدأ بقبائل الكيش، ثم القصبات وأخيرا الزاوية؛ بل أن دور هاته الاخيرة أضمن بقاء وفعالية، إذ يعطي «لحركات» السلطان ولجيوشه المصداقية والشرعية ويكسب لعملها الاستمرار، وفي أوقات أخرى يجنب هاته المناطق المشاركة في مغامرات سياسية ما. كما يوفر على المخزن طاقات مادية هامة في أمس الحاجة إليها لمواجهة أوضاع مختلفة عن هاته.

وازاء عمل في مثل هذه الخطورة، كان لزاماً على المخزن أن يراقب ويتعهد باستمرار هذا النوع من التنظيم، وهو عمل يتدرج من إضفاء مظاهر التوقير والاحترام إلى التنازل عن قسم من مداخيل الخزينة لصالح الزاوية؛ مما يجعل هاته الأخيرة تدخل في نسق اقتصادي يتحول من الإنعامات ذات الصبغة الإحسانية إلى قوة اقتصادية متجذرة تنمو وتتوسع بتعدد مهامها ومختلف أنشطتها.

إن هذا الوضع لا يجب فصله عن العلاقات التي تربط كلا من الزاوية والأتباع؛ فبقدر عطاءات الزاوية كان تجاوب هذا الوسط معها، فهي لم تبخل عليه بمختلف المساعدات وأنواع الخدمات من تعليم وتربية ووعظ وارشاد، لتلبية سائر متطلباته الروحية والمادية؛ مثل التوسط لطلب الغيث، إلى التوسط لدى المخزن وممثليه للتخفيف من أعباء التكاليف، أو الحصول على عفو وكذلك التخفيف من حدة الأزمات وحالات الضيق والعسر المتعددة الأوجه وما إلى ذلك.. وهي مهام إذا كانت قد زادت من تماسك وتجذر نفوذ الزاوية في مجالها القبلي، إلا أنها خلقت لها وضعا

حرجا إزاء ممثلي السلطة الجهويين، خاصة ما له علاقة بمواردهم المالية، إذ أن تفويت قسم منها للزاوية يعتبر انتقاصا لنفوذهم وسلطتهم، مما جعل حاكم تادلة يواجه أحد رسل الشيخ الشرقاوي بقوله :

«دار الحكومة إن كانت لسيدنا الصالح ياتي إليها، وإن كانت لي فليتركها إلينا..»

وهذا التناقض سرعان ما يتسع ليدخل في حلبة صراع أوسع ونعني به المخزن المركزي، كما حدث زمن الشيخ محمد العربي.. مما أجبر المخزن على الإقدام على حل اعتبره الوحيد والكفيل بإرجاع الأوضاع إلى منطلقاتها.

وفي غياب خطر سياسي محيق، نجد المخزن يسعى بمختلف الوسائل لخلق أسلوب تعايش وتساكن بين الإدارة المخزنية وبين السلطة الروحية الفعلية كما يجسدها أشياخ الزاوية.. وهو نهج عمل على خلق توازن مرغوب فيه بسبب تعقد التشكيلات القبلية والدينية في منطقة تادلة.

وهذا الاتجاه سيزداد استحكاما كلما دخل المخزن في مرحلة ضعف أو واجه أزمة ما، خاصة بعد أن أثبت أشياخ الزاوية الشرقاوية زهدهم في السلطة وترفعهم عن طلب الملك والرياسة، حتى في أقصى حالات ضعف المخزن وتشتته؛ مقابل بلوغ الزاوية أقصى اتساع لممارسة نفوذها وسلطتها في مختلف المجالات الدينية والدنيوية.

إلى أي حد حافظ المخزن من ناحية، والزاوية الشرقاوية من ناحية أخرى على هذه المعادلة، في ظرف له مستجداته وخصوصياته؛ وأعني به مغرب القرن 19م..؟

ملحق

1 ـ رسالة المولى سليمان إلى الشيخ محمد العربي.

2 ـ خطبة المولى سليمان ضد بدع الطوائف والزوايا.

الملحق رقم (1)

رسالة المولى سليمان إلى الشيخ محمد العربي[1]

(361) باسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله.

هذه رسالة وقفت عليها أنشأها أمير المؤمنين مولانا سليمان للشيخ البركة الأجل فريد عصره، الأفضل سيدي العربي بن المعطي رحم الله الجميع...

«الحمد لله وحده. إلى الفقيه السيد العربي بن المعطي الذي لازالت فراستنا فيه تصيب ولا تخطى، جعلنا الله وإياكم ممن لم يتخذ إلاها سواه، وسلام عليكم ورحمة الله، أما بعد.. أيها السائر على غير طريق في الليالي المدلهمة، طال ما أردتم أن تطفو نور الله بأفواهكم، ويأبى الله إلا أن يتمه. أما للعاقل في قول تاج الدين ما يكفيه، ما ترك من الجهل شيئا من أراد أن يظهر في الوقت غير ما أظهره الله فيه. خرجت أولا عن الجماعة[2] ثم خدعتنا في الله بلسان الضراعة، فسترنا عورتك وأقلنا عثرتك، وقابلنا إساءتك بالاحسان.. هل البيعة التي كانت في رقبتكم إلا السمع والطاعة، ولزوم السنة والجماعة وامحاض النصيحة جهد

---

(1) تم العثور على هاته الرسالة بالكناشة رقم : 1264ك بالخزانة العامة بالرباط من الصفحة 361 إلى الصفحة 365 وكما هو موضح بالنص أعلاه.

(2) يشير بذلك إلى توجه شيخ الزاوية ببيعته إلى مولاي هشام بمراكش بعد وفاة المولى اليزيد.

الاستطاعة.. ومن خرج عن الجماعة قدر شبر فقد خلع ربقة الاسلام من عنقه إلا أن يرجع، فلأنك في سكرة الخواطر الكاذبة عما عليك للسلطان من الحقوق الواجبة، لقد جئت شيئا فريا، ونبذت عهد الله وراءك ظهريا، أين العهد والميثاق، والقوي يأكل الضعيف بين ظهرانك في الأسواق، بل لولاك ما فسدت تلك البلاد، ولا خرج أهلها عن طريق الرشاد، حتى شاركت في الدماء شعرت أو لم تشعر. فيا خسارة من يريد الربح، ولا يدري أين يتجر.. ولا أظن يسعك الانكار، والأمر أوضح من شمس النهار.

(362) كم رفعنا ألوية الولاية بتادلا، فما أعنت جابيا ولا وافقت عاملا، وكانوا ما بين ولد أخ وصهر، وحاضر أوباد من عبد وحر كل ذلك لايسبر غورك[3]، فما حصلت من جهدك على ما يوافق سرك، ولا رجع أحد منهم عنك راضيا، ولا بما حفظه من سوء سيرتك ناسيا[4]. الم تراقب الله تعالى في ذلك الوطن، الذي ثارت فيه بسببك الفتن. ما كان آباؤك إلا رحمة لتلك البلاد، لا ينقمون على الحكام بمجرد الخلاف والعناد، حسبهم الوقوف عندما حد لهم، وأرجو ان يزكي الله بذلك عملهم[5]. فلما

---

(3) اشارة إلى العديد من الولاة الذين تم تعيينهم بتادلا أثناء وجود الشيخ محمد العربي بالزاوية ؛ حيث كان سبب الخلاف بينه وبينهم يتمثل في عنصرين :
- جباية الضرائب.
- سلوك العمال.

(4) من عوامل فشل هؤلاء الولاة ؛ أنهم جميعهم — تقريبا — ليسوا من المنطقة؛ عكس ما كانت عليه الأوضاع زمن السلطان سيدي محمد بن عبد الله. كما أن تصرفاتهم كانت تتجه بالدرجة الأولى إلى إضعاف مكانة الشيخ بالانتقام من القبائل الموالية والقريبة منه (الخدام والأتباع).

(5) يعني بذلك الشيخين : محمد الصالح ومحمد المعطى... ومع ذلك يبقى توضيح ماهية هذه الحدود ومداها من الصعوبة بمكان على اعتبار أن ذلك تتدخل فيه عدة عناصر..

صار الأمر إليك، وتعين القيام بطريقتهم عليك، واستهل هلال إقبالك، وأنت من الشباب ترفل في أديالك، كان ذلك في استحفال مملكة مولانا الوالد الغالب بالله أمير المومنين محمد بن عبد الله... وكان أحلم الناس، معاوية زمانه في الرحمة والبأس، أحلك على ضخامة ملكه محل الوالد لا الأخ الشقيق والولد المساعد، ثم لم يبرح يعفو ويصفح، وعن كل من أحدث حدثا وآيتموه يغض ويصفح، حتى جعل غض الطرف عن جنابكم، والصفح عما يقع من المناكر ببابكم من أعظم ذنوبه التي يستغفر منها مولاه[6]... وأنتم لم تراعوا ذلك كله حق رعايته، حتى أوقعتم أهل بلادكم في شرك الهلاك وحبالته ونجيتم بأنفسكم وما نجيتم عند الله بتسببكم. انشدكم الله ثم انشدكم الله، أفي رقبة مولانا الوالد ما وقع أم في رقبتكم[7]. فعدتم عليه باللوم، ولم تنظروا من الملوم.. ولما أفضى الأمر إلى نجله هذا العبد سليمان المرتجي من الله جميل العفو والغفران، لم يقتصر في أمركم على ما كان عليه والده من بركم بل تلمذ وتحبب وبر بأنواع البرور[8] وتقرب، عساه أن يردكم عما عودتم به أنفسكم.. فلم تشكروا النعمة، ولم تحذروا مجيئة النقمة، ولولا ما نرجوه من البر الكريم لوقع على يده أكبر مما وقع بكم على يد أبيه من العذاب الأليم، طلبنا منكم ما فيه عند الله نجاتكم... من الخروج معنا عن أسواق العامة، التي لا يعمرها من له المروءة التامة[9] أو الخروج حسا إلى مدينة فاس[10]. واشتغالكم

---

(6) في هذا تصريح بحقيقة وسبب تحطم السلطان سيدي محمد بن عبد الله للزاوية؛ عكس ما حاول بعض المؤرخين أن يربطوه بعلاقات تواطؤ مع أتراك الجزائر (ش.أ. جيليان مثلا).

(7) اشارة إلى حادث التحطيم وما ترتب عنه.

(8) يعتبر الشيخ محمد العربي من شيوخ السلطان مولاي سليمان الذين تتلمذ عليهم وأجازوه في ذلك.

(9) أي التخلي عن دور الوسيط بين المخزن والرعية وهي النقطة الرئيسية في الخلاف

(363) بالله وبدينه القويم عن الناس، فما قدرتم عن التقصي عن / العامة ولارجعتم عن مكاتبة الحكام والخوض في الفتنة الطامة[11]. وكنتم طلبتم الذهاب لتفقد زرعكم وضرعكم، ونقل أولادكم أن أذن لكم. على أنه خرج بسببكم من تعلمون. وأنتم وما وقع لهم في رقبة من تظنون فذهبتم وقر لكم القرار. وبعدما وعدتم أن ترجعون في أيام قصار وبعد أن خرج الاخوة والأخوات، وأبناء الأعمام والعمات. ومن له هنا لكم شأن من الفقهاء والأعيان ومن ليس لخروجه سبب، ولا كان في انتقاله أرب. واغتنمتوها فرصة باقامتكم. وقد خرج من كانت عليه منكم غصة وأظهرت التهاون بكلام من وجبت عليكم طاعته... وصرتم إلى ما كان يظن بغيركم من المخالفة.. ما عذركم في الجلوس بجعيدان[12]، بعدما خرج من هو أضعف منكم بالأهل والولدان. وانما طولبتم بالخروج بأنفسكم فخسرت صفقة الظنون في نظركم.. فاتق الله وأرض بقضائه ولا تعاند القدر فتصيب ببلائه واصبر كما صبر الذين خرجوا من ديارهم قهرا لما علموا أن الله عوضهم عنها خيرا. فانظروا لما وقع للقاضي عياض.. وأنظروا أيضا لحال القطب أبي مدين وأين دفن.. وكذلك الشيخ الغزواني أخرجه الواسطي[13] من زاوية بني زكار. وأشخص إلى مراكش فكانت له دار قرار.. فان شئت

مادامت حدود هذه الوساطة التمثيلية أصبحت ليست في صالح المخزن وموظفيه الجهويين بصفة خاصة.

(10) معنى ذلك أن هذه الرسالة وجهها السلطان إلى الشيخ قبل انتقال هذا الأخير إلى فاس عام 1211هـ / 1797م.

(11) إشارة إلى مراسلات الشيخ مع مولاي زيدان في المرحلة الأولى ثم مع مولاي هشام في المرحلة الثانية كما لا يستبعد مراسلاته إلى أمراء آخرين، وقد اشرنا إلى نص الجواب الذي بعثه إليه السلطان مولاي هشام في هذا الاطار.

(12) من أسماء الزاوية بصيغة الاستحسان ؛ وقد وردت نفس التسمية في نشر المثاني للقادري.

(13) ربما يقصد الوطاسي نسبة إلى بني وطاس فاس الذين أخرجوا الشيخ الغزواني (مول =

كان لك اسوة حسنة في بعضهم[14] (364) على أنهم لم يكونوا لمثل ما تفعل فاعلين ولا للرعاع السفلة مجالسين ../.. وأحمد الله أن جعل خصمك عاقلا، متحققا بحب الخير لعباد الله مفضولا وفاضلا.. وأنا بريء ممن يلقي بنفسه في المهالك ولولا مكان الشفقة عليك ومحبة الخير كله إليك، لتركتك ترعى هملا، وتهيم في كل واد من الأخسرين عملا.. ولكن الدين النصيحة، ولا يكون المومن مومنا حتى يحب لأخيه المومن كما يحب لنفسه.. إنا نأمركم ولا نعدل عن أمرنا بالسكن بمدينة فاس، ولا تخرجوا منها إلى أبي الجعد أصلا. ولا ترتقبوا (365) بعد القطع عنها أصلا[15]. ومن يشق عليكم رحيله من ضعف الذرية والبنات والبنين / أتركوهم في جملة من بقي بها من المستضعفين، وبادروا بالاجابة والامتثال والاتابة قبل أن تعظم (كذا) فتسد باب التوبة.. وليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم. ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة بكثرة الأعذار. وقد سجل الحكم عليكم بعد تعذر الأعذار والانذار على أن عذركم كان كسراب بقيعه. وحصونه المبنية على الباطل غير منيعة فان امتثلتم نجوتم. وإن أبيتم خذلتم. فلا عهد لكم ولا طاعة وكنتم ممن فارق السنة والجماعة. وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون. كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون. وحسبي الله ونعم الوكيل. ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم. انتهى.

= القصور) ونفوه إلى مراكش حيث كانت الامارة السعدية الناشئة، وقد توفي ودفن بمراكش وهو من رجالات المدينة السبعة.

(14) تدخل هذه الرسالة في إطار دعوة السلطان للشيخ في الخروج من زاويته إلى فاس، وهو ما تم بالفعل

(15) كانت هذه رغبة السلطان الأولى.. اذ نجده بعد ذلك يأمر الشيخ بالعودة إلى زاويته مكرما محترما بعد ما ظهرت له نتائج وحقيقة الوشايات والتقارير التي أبلغها عنه قواد وولاة المنطقة والتي كان لها من يساندها في البلاط المخزني.

ملحق رقم (2)

خطبة المولى سليمان ضد بدع الطوائف والزوايا(1).

«باسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد واله وصحبه وسلم

يقول لكم أمير الؤمنين، وناصر الدين المتمسك بسنن المهتدين وسنة الخلفاء الراشدين،

الحمد لله الذي تعبدناه بالسمع والطاعة، وأمرنا بالمحافظة على السنة والجماعة، وحفظ ملة نبيه الكريم، وصفيه الرؤوف الرحيم، من الاضاعة إلى قيام الساعة، وجعل التآسي به أنفع الوسائل النفاعة، أحمده حمدا ينتج اعتماد العبد على ربه وانقطاعه، وأشكره شكرا يقصر عنه لسان البراعة، واستمد معونته بلسان المذلة، والضراعة، وأصلي على مولانا محمد رسوله المخصصون بمقام الشفاعة، على العموم والاشاعة والرضى عن آله وصحبه الذين اقتدوا بهديه بحسب الاستطاعة، أما بعد.

أيها الناس شرح الله لقبول النصيحة صدوركم، وأصلح بعناية أموركم واستعمل فيما يرضيه أمركم، ومأموركم، فان الله قد استرعانا جماعتكم وأوجب لنا طاعتكم، وحذرنا اضاعتكم «ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله، وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم» سيما فيما أمر الله ورسوله، أو هو محرم بالكتاب والسنة النبوية، واجتماع الأمة المحمدية «الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة» الاية.

(1) أوردها الزياني : الترجمانة الكبرى.. ص.446 ـ 470.

ولهذا نرثي لغفلتكم، وعدم إحسانكم، ونغار من استيلاء الشيطان بالبدع على أنواعكم، وأجناسكم، فألقوا لأمر الله آذانكم، وأيقظوا من نوع الغفلة أجفانكم، وطهروا من دنس البدع أيمانكم، وأخلصوا لله أسراركم، واعلانكم، واعلموا أن الله بمحض فضله أوضح لكم طرق السنة لتسلكوها، وصرح بذم اللهو والشهوات لتملكوها، وكلفكم لينظر عملكم، فاسمعوا قوله في ذلك وأطيعوه، واعرفوا فضله عليكم وعوه، واتركوا عنكم بدع المواسم التي أنتم بها متلبسون، والبدع التي يزينها أهل الأهواء ويلبسون، وافترقوا أوزاعا، وانتزعوا الأديان، والأموال انتزاعا، بما هو صراح كتابا وسنة واجماعا، وتسموا فقراء وأحدثوا في دين الله ما استوجبوا به سقرا.

«قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا» الآية. وكل ذلك بدعة شنيعة وفعلة فظيعة وشيمة وضيعة، وسنة مخالفة لأحكام الشريعة، وتلبيس وضلال، وتدليس شيطاني، وخيال زينه الشيطان لأوليائه فوقتوا له أوقاتا، وانفقوا في سبيل الطاغوت في ذلك دراهم وأقواتا، وتصدى له أهل البدع من «عساوة وجلالة» وغيرهم من ذوي البدع والضلالة والحماقة والجهالة وصاروا يرتقبون للهوهم الساعات، وتتزاحم على حبال الشيطان، وعصبه منهم الجماعات، وكل ذلك حرام ممنوع الانفاق فيه إنفاق في غير مشروع فأنشدكم الله عباد الله، هل فعل رسول الله (صلعم) لحمزة عمه سيد الشهداء موسما، وهل فعل سيد هذه الأمة أبو بكر لسيد الارسال صلوات الله عليه، وعلى جميع الأصحاب والآل موسما، وهل فعل عمر لأبي بكر موسما، وهل تصدى لذلك احد من التابعين، رضي الله عنهم جميعا، ثم أنشدكم الله، هل خرمت على عهد رسول الله (صلعم) المساجد، أم زوقت أضرحة الصحابة، والتابعين الأماجد، وكأني بكم تقولون في نحو المواسم المذكورة، وزخرفة أضرحة الصالحين وغير ذلك من أنواع الابتداع حسبنا الاقتداء والاتباع.

«إنا وجدنا آباءنا على أمة : الآية.

وهذه المقالة قالها الجاحدون، هيهات، هيهات لما توعدون، وقد رد الله مقالهم، ووبخهم، وما أقالهم، فالعاقل من اقتدى بآبائه المهتدين وأهل الصلاح والدين «خير القرون : الحديث» وبالضرورة أنه لن يات آخر هذه الأمة باهدى مما كان عليه أولها «فقد نص رسول الله (صلعم)، وعقد الدين قد سجل، ووعد الله باعماله قد عجل «اليوم أكملت لكم دينكم : الاية «قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : «أيها الناس قد سنت لكم السنن، وفرضت لكم الفرائض، وتركتكم على الجادة، فلا تميلون بالناس يمينا ولا شمالا» فليس في دين الله، ولا فيما شرع نبي الله أن يتقرب لله بغناء وشطح، والذكر الذي أمر الله به هو على الوجه الذي كان يفعله (صلعم)، ولم يكن على طريق الجمع، ورفع الأصوات على لسان واحد، فهذه سنة السلف، وطريقة صالحي الخلف، فمن قال بغير طريقهم، فلا يستمع، ومن سلك غير سبيلهم فلا يتبع «ومن يشاقق الرسول، ويتبع غير سبيل المؤمنين، الاية» «قل هذه سبيلي أدعو إلى الله الاية» فمالكم يا عباد الله ولهذه البدع أآمنا من مكر الله، اتلبيسا على عباد الله، أم منابذة لمن النواصي في يديه، أم غرورا بمن الرجوع بعد إليه، فتوبوا واعتبروا وغيروا المناكر واستغفروا، فقد أخذ الله بذنب المترفين من دونهم، وعاقب الجمهور لما اغضوا عن المنكر عيونهم، وسادت بالغفلة عن الله عقبى الجميع ما بين العاصي والمداهن المطيع، افي لكم الشيطان وكتاب الله بأيديكم أم كيف يضلكم وسنة نبيه تناديكم، فتوبوا إلى رب الأرباب، «وانيبوا إلى ربكم واسلموا، الاية» ومن أراد منكم التقرب بصدقة، أو وقف لمعروف اطعام أو نفقة فعلى من ذكر الله من كتابه[2]، ووعد فيهم بجزيل

(2) ما علاقة ذلك بتحول العديد من المتصوفة وشيوخ الزوايا إلى اعتماد قراءة القرآن وشرحه كأساس لطريقتهم؛ ومنهم شيخ الزاوية الشرقاوية محمد العربي. حيث كثرت الزوايا القرآنية في عهده والتي أنشأها بإذنه عدد من تلامذته.

توابه، كذوي الضرورة الغير الخافية، والمرضى الذين لستم بأولى منهم بالعافية ففي مثل هذا تسد الذرائع، وفيه تمثل أوامر الشرائع «إنما الصدقات للفقراء الاية».

ولا يتقرب إلى مالك النواصي بالبدع والمعاصي، بل بما يتقرب به الأولياء والصالحون والاتقياء المفلحون، لكل الحلال، / وقيام الليالي، ومجاهدة النفس في حفظ الأحوال، بالأفعال والأقوال، البطن وما حوى، والرأس وما وعى وآيات تتلى، وسلوك الطريقة المثلى وحج، وجهاد، ورعاية السنة في المواسم والأعياد، ونصيحة تهتدى، وأمانة تؤدى، وخلق على خلق القرآن يحتذى، وصلاة وصيام، واجتناب مواقع الاثام، وبيع النفس والمال من الله: «إن الله اشترى من المؤمنين. الاية». «ولكن البر من آمن بالله» «وأن هذا صراطي مستقيما» الاية. الصراط المستقيم كتاب الله، وسنة رسول الله وليس الصراط كثرة الرايات، والاجتماع للبيات، وحضور النساء والأحداث وتغيير الأحكام الشرعية بالبدع والأحداث، والتصفيق والرقص، وغير ذلك من أوصاف الرذائل والنقص «أفمن زين له سوء عمله. الاية» عن المقدام ابن معدي كرب، سمعت رسول الله (صلعم) يقول: يجاء بالرجل يوم القيامة، وبين يديه راية يحملها، وأناس يتبعونه، فيسئل عنهم، ويسئلون عنه. «اذ تبرا الذين اتبعوا من الذين اتبعوا. الاية». فيجب على من ولاه الله من أمر المسلمين شيئا من السلطان والخلائف أن يمنعوا هؤلاء الطوائف من الحضور في المساجد، وغيرها، ولا يحل لأحد يدين لله، واليوم الاخر أن يحضر معهم أو يعينهم على باطلهم، فاياكم ثم إياكم والبدع فانها تترك مراسم الدين خالية خاوية، والسكوت على المناكر يحيل رياض الشرائع ذابلة ذاوية، فمن المنقول على الملل، والمشهور في الاواخر، والأوائل بان البدع والمناكر، إن فشت في قوم أحاط بهم سوء كسبهم، وأظلم ما بينهم وبين ربهم، وانقطعت عنهم الرحمات، ووقعت فيهم المثلات، وشحت السماء، وسبحت النقما، وغيض الماء واستولت الأعداء، وانتشر الداء،

وجفت الضروع ونقصت بركة الزروع، لأن سوء الآداب مع الله، يفتح أبواب الشدائد، ويسد طريق الفوائد، والآداب مع الله ثلاثة :

1 ــ حفظ الحرمة بالاستسلام والاتباع.

2 ــ رعاية السنة من غير اخلال ولا ابتداع.

3 ــ مراعاتها في الضيق والاتساع، لا ما يفعله اليوم هؤلاء الفقراء.

فكل ذلك كذب على الله، وافتراء «قل إن كنتم تحبون الله، الآية»

عن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال، «وعظنا رسول الله (صلعم) موعظة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب، فقام إليه رجل فقال : يا رسول الله كأن هذه موعظة مودع، فما تعرض الينا، فقال أوصينا، قال أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة لمن ولاكم وان كان عبدا حبشيا فإنه من يعيش بعدي فسيرى اختلافا كثيرا بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي، تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجد وإياكم ومحدثات الأمور، فان كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة. وها نحن عباد الله أرشدناكم، وحذرناكم، وأنذرناكم، فمن ذهب بعد لهذه المواسم، أو أحدث بدعة في شريعة نبيه أبي القاسم، فقد سعى في هلاك نفسه، وجر الوبال عليه وعلى أبناء جنسه، وثله الشيطان للجبين وخسر الدنيا والآخرة، «ذلك هو الخسران المبين، فليحذر الذين يخالفون عن أمره، الآية»[3].

---

(3) هذه الخطبة جاءت في إطار مشروع إصلاح ديني واجتماعي وسياسي في آن واحد.. وقد تجاوبت معها الزوايا الخاضعة للنفوذ المخزني المباشر؛ في شكل «زوايا قرآنية» عكس زوايا أخرى ناهضت المشروع كما ناهضت السلطة المركزية.. لكن؛ هل كان هذا الاصلاح يحمل بوادر تغيير في المضمون الاحتماعي والسياسي للزاوية كمؤسسة..؟

فهرس عام

فهرس عام

(يهم الجزء الأول والثاني)

أولا : فهرس الأعلام

أ ــ أعلام الأسرة الشرقاوية العمرية.

ب ــ الأعــلام عــامــة.

أعلام الأسرة الشرقاوية العمرية

ـــ أفردنا قسما منفصلا لهؤلاء الأعلام حتى نيسر عمل الباحثين.

ـــ (*) ترمز هذه الإشارة * إلى أن الصفحة أو الصفحات الموالية تتضمن معلومات مستفيضة عن العلم أو القبيلة أو الزاوية أو المكان.

ـــ (2) تعني الجزء الثاني.

ـــ أسقطنا (سيدي) تسهيلا للترتيب والفهرسة.

* * *

ب ــ الأعلام عامة[1]

(1) أرفقنا أحيانا بعض أسماء الاعلام بمهنتهم أو شهرتهم العلمية أو المخزنية أو القبلية كلما كان ذلك ضرورياً تيسيراً للقارىء.

* * *

* * *

ثانيا : فهرس القبائل والمجموعات

ثالثا : فهرس الأماكن والمعالم والبلدان(*)

رابعا : فهرس لأسماء المصنفات الواردة في متن الكتاب

خامسا : فهرس الملاحق

الجزء الثاني :

سادسا : الخرائط والرسوم

الجزء الثاني :

سابعا : الصور الشمسية

الجزء الثاني :

ثامنا : التصويبات

بالرغم من المراقبة والمراجعة : بقيت بالجزء الأول بعض الأخطاء نورد هنا تصحيحاتها.

الخطأ	الصفحة	السطر	الصواب
متشبعة	12	3	متشعبة.
تحلق	30	22	تلحق.
من عواد الزمن	83	4	من عوادي الزمن.
سيدي الزعمي	85	13	سيدي الزعيمي.
تسيير	106	17	تيسير.
إن الدنيا	165	10	بأن الدنيا.
للتلميذ	166	16	لتتلمذ.
الراسلة	175	6	الرسالة.
(حذفت بضعة أسطر)	265	بعد الأخير	استعراض لبقية عناوين أسفار الذخيرة وهو ما تم اثباته بالكشف الموالي بالصفحات 271، 272، 273، فمعذرة.
وإن	267	4	إن الشيخ.
كام	267	19	كأن.

تاسعا

ـــ المصادر والمراجع

أهم مصادر الكتاب

أ ــ المصادر العربية :

* ابن ابراهيم عباس المراكشي (1959/1378)
1 ــ الاعلام بمن حل بمراكش واغمات من الاعلام.
المطبعة الحجرية بفاس 1936/1355 (5 اجزاء).

* ابن خلدون عبد الرحمن (2406/808)
2 ــ كتاب العبر
دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر 1959

* ابن الزيات يوسف التادلي (29/267 ــ 1230).
3 ــ التشوف إلى رجال التصوف. (ادولف فور بالرباط 1958).

* ابن زيدان عبد الرحمن العلوي (1946/1365)
4 ــ اتحاف أعلام الناس بجمال اخبار حاضرة مكناس (5 أجزاء)
الرباط 1929/1347.

5 ــ المنزع اللطيف في التلميح لمفاخر مولاي اسماعيل بن الشريف
مخطوط خ.ع. الرباط. رقم 595ج.

* ابن سودة عبد السلام
6 ــ دليل مؤرخ المغرب الأقصى (جزآن)
دار الكتاب، الدار البيضاء 1960.

* ابن سودة محمد التاودي (1795/1209)
7 ــ الفهرسة، مخطوط خ.ع. بالرباط رقم 725ك، 3251ك.

ابن عسكر محمد بن علي الشفشاوني (1578/986)

8 ــ دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر تحقيق ذ.محمد حجي. دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط 1976/1396.

اكنسوس محمد (1877/1294)

9 ــ الجيش العرمرم الخماسي في دولة اولاد مولانا علي السجلماسي.

مخطوط خ.ع. بالرباط رقم 83 خ.

* ابن الموقت محمد بن محمد (1953/1373)

10 ــ السعادة الابدية في التعريف برجال الحضرة المراكشية (جزآن). المطبعة الحجرية بفاس.

أبو محلي احمد السجلماسي (1614/1022)

11 ــ إصليت الخريت في قطع بلعوم العفريت.

مخطوط خ.م. رقم 100.

* بروفنصال. ل (1956م)

12 ــ مؤرخو الشرفاء.

تعريب عبد القادر الخلادي. دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر الرباط 1977/1397.

13 ــ شـرقـــاوة.

تعريب الشفشاوني، دائرة المعارف الاسلامية (مجلد 13 ص.203 ــ 204 بيروت.

* بوجندار محمد الرباطي (1926/1345)

14 ــ الاغتباط بتراجم أعلام الرباط

مخطوط خ،ع، بالرباط رقم 1287د.

* التامنارتي عبد الرحمن (1070/59 ــ 1660)

15 ــ الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة

تاريخ عجائب الاثار في التراجم والاخبار (3 أجزاء)

دار الجبل ــ بيروت.

* الجراري عباس بن عبد الله.

17 ــ الزجل في المغرب ــ القصيدة.

مكتبة الطالب (الرباط) 1390/1970.

* الجراري عبد الله.

18 ــ ورقات في أولياء الرباط ومساجده وزواياه

م.النجاح. الدار البيضاء (1399).

* جلبي ملا كاتب (حاجي خليفة) (1067/1657)

19 ــ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (جزآن)

الطبعة الأولى، اسطمبول 1311هـ.

جليان ش.أ.

20 ــ تاريخ افريقيا الشمالية (جزآن)

تعريب محمد مزالي والبشير بنسلامة.

الدار التونسية للنشر (تونس) 1399/1979.

* حجي محمد.

21 ــ الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي.

المطبعة الوطنية (الرباط) 1384/1964.

22 ــ الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين (جزآن)

فضالة 1397/1977.

* الحضيكي محمد (1189/1775)

23 ــ طبقات الحضيكي. مخطوط خ.ع. بالرباط رقم 2328ك.

الأخضر محمد.

24 ــ الحياة الأدبية في المغرب في عصر العلويين.
الدار البيضاء 1977.

* الخطابي محمد العربي.

25 ــ الطب والصيدلة والبيطرة.
فهارس الخزانة الملكية بالرباط (مجلد II) الرباط 1982/1402

* الزياني أبو القاسم)1833/1249)

26 ــ البستان الظريف في دولة أولاد مولاي الشريف.
مخطوط خ.ع. بالرباط رقم 1577د

27 ــ الترجمان المعرب عن دولة المشرق والمغرب.
مخطوط خ.ع. بالرباط رقم 658د.

28 ــ الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا.
تحقيق عبد الكريم الفلالي. نشر وزارة الأنباء (الرباط) 1967/1387.

29 ــ الروضة السليمانية في ذكر ملوك الدولة الاسماعلية.
مخطوط خ.ع. بالرباط رقم 1275 د.

30 ــ شرحه على جمهرة الثيجان.
مخطوط خ.ع. بالرباط رقم 1920ك

* زيغور علــي.

31 ــ العقلية الصوفية ونفسانية التصوف.
دار الطليعة ــ بيروت، 1979.

* الشرقاوي محمد الصالح (26/1139 ــ 1727)

32 ـ كناشة. مخطوط خ.ع. بالرباط رقم 1108ك.
33 ـ الكناشة الشرقاوية. مخطوط خ.م. بالرباط رقم 3415.

* الشرقاوي العربي بن داوود (1898/1316).
34 ـ الفتح الوهبي في مناقب الشيخ العربي.
مخطوط أبي الجعد وكذلك مخطوط خ.ع بالرباط رقم 2312ك.

الشرقاوي محمد العربي بن السايح (91/1309 ـ 1892)
35 ـ الكناشة. مخطوط خ.ع. بالرباط رقم 147ج.

* الشرقاوي محمد المعطي (1766/1980).
36 ـ أحزاب الشيخ المعطي. مخطوطات الحاج عبد اللطيف الشرقاوي بأبي الجعد.

37 ـ ذخيرة المحتاج في الصلاة على صاحب اللواء والتاج.
مجموعة اسفار (انظر الكشف المفصل بداخل الدراسة).

* الشرقي محمد (1601/1010).
38 ـ ملحونات في التصوف والحكمة.
مخطوط خ.ع. بالرباط مجموع رقم 3027ك.

الشرقاوي محمد المكي (كان حيا حتى عام 1776/1190)
39 ـ اختصار يتيمة العقود الوسطى.
مخطوط خ.ع. بالرباط رقم 509ج.

* الشادلي عبد اللطيف.
40 ـ الحركة العياشية. حلقة من تاريخ المغرب في القرن 17م
منشورات كلية الاداب بالرباط (ط1) 1982

* شفيق محمد
41 ــ في أن أسماء الأماكن في المغرب جلها أمازيغية.
مجلة البحث العلمي. السنة 14ع : 27
الصفحة 329 ص.357 الرباط 1397/1977.

* الصومعي عبد الرحمن (من رجال القرن (هـ)
42 ــ التشوف الصغير.
مخطوط خ.ع. (الرباط) رقم 1103د.

* الضعيف الرباطي محمد بن عبد السلام (كان حيا في عام 1136/1820).
43 ــ تاريخ الدولة العلوية
مخطوط خ.ع. بالرباط رقم 660د، 758د.

* العبدوني محمد بن عبد الكريم (توفي حوالي 1189/1775)
44 ــ يتيمة العقود الوسطى في مناقب الشيخ المعطي.
مخطوط أبي الجعد. ومخطوط خ.ع. بالرباط رقم 305ك 283د.

* العروسي عبد الخالق (من رجال القرن 12/18)
45 ــ المرقي في مناقب سيدي محمد الشرقي.
مخطوط أبي الجعد ومخطوط خ.ع. بالرباط رقم.

* العروي عبد الله.
46 ــ تاريخ المغرب.
ترجمة دوقان قرقوط بيروت (ط.الأولى) 1977.

* عفيفي أبو العلاء
47 ــ التصوف : الثورة الروحية في الاسلام
دار الشعب بيروت.

* العلوي القاسمي هاشم
48 ـــ مقدمة تحقيق كتاب التقاط الدور لمحمد بن الطيب القادري
دراسة وتحقيق، دار الافاق بيروت 1981/1401

* العلوي مولاي سليمان (السلطان) 1822/1238
49 ـــ عناية أولي المجد بذكر آل الفاسي ابن الجد
المطبعة الجديدة (فاس) 1347.

* الفاسي عبد الرحمن (1685/1096).
50 ـــ ابتهاج القلوب بخبر الشيخ أبي المحاسن وشيخه المجذوب
مخطوط خ.ع. بالرباط رقم 326ك.

* الفاسي محمد العربي (1642/1052)
51 ـــ مرآة المحاسن في أخبار الشيخ أبي المحاسن.
مخطوط خ.ع. بالرباط رقم 316ك

* الفاسي محمد المهدي (97/1109 ـــ 1698)
52 ـــ ممتع الاسماع في ذكر الجزولي والتباع وما لهما من الاتباع
المطبعة الحجرية بفاس 1313هـ.

* القادري محمد بن الطيب (1773/1187)
53 ـــ نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني (جزآن)
المطبعة الحجرية بفاس 1892/1310.

54 ـــ نشر المثاني (المحقق) جزآن.
تحقيق الاستاذين محمد حجي، أحمد التوفيق
الرباط 1397، 1977/1402، 1982.

55 ـــ حوليات نشر المثاني
تحقيق نورمان سيكار المعهد الجامعي للبحث العلمي
بالمغرب 1978.

* الكتاني عبد الحي (1962/1382)
56 ــ فهرس الفهارس والاثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسات (جزآن) فاس 1346.
* الكتاني محمد بن جعفر (26/1345 ــ 1927)
57 ــ سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس.
(3 أجزاء) المطبعة الحجرية بفاس 1316هـ
* كريم عبد الكريم
58 ــ المغرب في عهد الدولة السعدية.
الرباط 1977/1397.
* الكلاباذي أبو بكر محمد (990/380)
59 ــ التعرف لمذهب أهل التصوف.
دار الكتب العلمية بيروت. 1980/1400.
* كناشة.
60 ــ مخطوط خ.ع. بالرباط رقم 1264ك
* المعداني الحسن بن محمد (توفي بعد عام 1766/1180)
61 ــ الروض اليانع الفائح في مناقب الشيخ محمد الصالح
مخطوط أبي الجعد، ومخطوط خ.م. بالرباط رقم 61.
* المنوني محمد
62 ــ الكناشات المغربية ودورها في الكشف عن الدفائن التاريخية
مجلة المناهل ع.م. صفر 1395 مارس 1975 الرباط من ص.196 إلى 232.
63 ــ ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين
منشورات كلية الاداب بالرباط 1979/1399

64 ــ المصادر العربية لتاريخ المغرب.

القسم الثاني مجلة كلية الاداب بالرباط ع : 8 (1982)

القسم الثالث نفس المجلة ع : 9 (1982). من ص.225 إلى ص.292.

* مؤرخ مجهول

65 ــ الدر المنضد

مخطوط خ.ع. (الرباط) رقم 1584.

* الهبطي محمد (1555/963)

66 ــ الفية الهبطي.

مخطوط خ.م. (الرباط) رقم 2808

* الوزان الحسن (1552/959)

67 ــ وصف افريقيا (جزء أول)

تعريب الاستاذين محمد حجي، محمد الأخضر. الرباط 1980/1400.

* الناصري أحمد بن خالد (1897/1315)

68 ــ الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى (9 أجزاء)

دار الكتاب الدار البيضاء (جزآن)

المطبعة الحجرية بفاس.

* الناصري محمد المكي (كان حيا عام 1745/1958)

70 ــ الدرر المرصعة بأخبار أعيان درعة

مخطوط خ.ع. بالرباط رقم : 265ك

* نجمي عبد الله

71 ــ العكاكزة مجلة كلية الاداب بالرباط ع.5، 6 (مزدوج) 1979 من الصفحة : 59 إلى ص.94.

72 ــ الملامتية مجلة تاريخ المغرب العدد 1، ربيع 2 (1401)
فبراير (1981) من الصبحة : 15 إلى ص.57.

* اليفرني محمد الصغير (1140/27 ــ 1728)

73 ــ نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي
هوداس، باريس 1888.

74 ــ صفوة من انتشر من صلحاء القرن الحادي عشر.
المطبعة الحجرية بفاس.

* اليوسي الحسن بن مسعود (1102/1690)

75 ــ المحاضـرات
أعدها للطبع ذ.محمد حجي مطبوعات دار المغرب للتأليف
والترجمة والنشر
الرباط 1396/1976آ

ب ـــ المصادر الأجنبية

- Aïche (G);

  1 - Le sentiment national dans le Maroc du 19e siècle in Etude d'histoire marocaine; S.M.E.R (1979) pp.177-183

  2 - La fonction d'arbitrage du Maghzen.
  in Recherches recente, sur le Maroc moderne
  B.E.S.M (1979) n°Double 183, 189; pp.5-21.

- Bel (A);

  3 - La religion musulamne en Berberie.
  Paris; 1938.

- Berque (J);

  4 - Etude de l'histoire rurale maghrebine.
  Tanger - Fes; 1938.

- Burghelle (J);

  5 - Boujad, Ville Sainte.
  R.Automobile. oct 1930; pp.31-35.

- Braudel (F);

  6 - La méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de l'Philippe II; 2.T; (2ème E). Paris 1949.

- Cour (A);

  7 - L'établissement des dynasties des cherifs au Maroc et leurs rivaletés avec les Turcs de les régence d'alger.
  Paris, 1904.

- Cimetière (J);

  8 - Notice sur Boujad.
  R.M.M; T.24 (1913) pp.277-290.

- Depont (O) et Cappolani (X);

  9 - Les confreries religieuses musulmanes.
  Alger 1897.

- Dermenghem (E);

  10 - La culte des saints dans l'Islam maghrebin.
  Gallimard, Paris; 1954.

- Deverdun (G);

  11 - Marrakech des origines à 1912.
  Rabat 1966.

- Doutté (E);

  13 - Note sur l'Islam maghrebin

- Drague (G);

  14 - Espuisse d'histoire religieuse du Maroc.
  Confereries et Zaouias.
  Peyrsnnet, Paris; 1951.

- Eickelman, D,F;

  15 - Quelque aspects de l'organisation politique et économique d'une Zawya marocaine au 19e siècle.
  B.S.H.M; N°4-5, (1971, 1973).
  C.U.R.S; Rabat. pp.37-50.

  16 - Islamic Myths from western Marocco.
  in Hesp. T; vol. XIV (1973) pp.42-50.

  17 - Maroccan Islam. Tradition and Society in a Pelgrimage Center
  Texas press 1976.

  18 - Forme Symbolique et espace Social urbain; le cas de Boujad.
  R.Lamalif, N°97 Mai (1978) pp.42-50.

- Foucauld (ch, le Pére);

  19 - Reconnaissance au Maroc.
  Paris, 1939.

- Gellner (E)

  20 - Saint of Atlas.
  London. «Wein de Fald» and Niclsm; 1969.

  21 - Pouvoir politique et fonction religieuse dans l'Islam Marocain.
  Traduit par : L.Valensi in «A.E.S.C»
  Mai - Juin 1970, pp.699-712.

- Hammoudi (A);

  22 - Segmentarité, Strati fication Sociale, pouvoir politique et Sainteté.
  Reflexions sur la thèse de Gellner. in Hesp. T, vol.XV (1974) pp,147-179.

  23 - Sainteté, pouvoir et Société;
  Tamgrout au XVIIe et XVIIIe Siècles.
  in (A.E.S.C) Mai - Aout (1980) pp.615-641.

• Hart (D.M)

24 - Segmentary Systems and the role of «Five fifths» in the rural Morocco.
R.de l'accident musulman et de le mediterranée
Aix en provence, N°3, 1èr Semestre 1967.

• Laroui (A);

25 - L'histoire du Maghreb.
F. maspero, Paris 1970.

26 - Les origines Sociales et culturelles du nationalisme marocain (1830-19127.
F. Masper, Paris 1980.

• Lazareve (G);

27 - Les Concessions foncières au Maroc.
(A.M.S); 1968. pp.99-135.

• Le coz (J);

28 - Le Gharb, Fellah et colons.
2 vol Rabat, 1964.

• Martinet (G), Brignon (J) et d'autre :

29 - Histoire du Maroc ; Hatier, 1967.

• Moamol (L.C. de)

30 - Description gencrale de l'Afrique.
grenacle 1573.

• Massignon (L);

31 - Le Maroc dans les premières années du 16e Siècle. Alger, 1906

• Michaux - Bellaire;

32 - «Le Gharb».
in AR.MAR, vol XX, 1913.

33 - Les Confréreies religieuses au Maroc.
Rabat. 1923.

• Mission Scientifique du Maroc.

34 - Archives marocains, Paris 1904 et Suiv.
35 - Villes et tribus du Maroc; Paris 1915 et Suiv.

• Montagne (R);

36 - Les Berbères et le Makhzen dans le Sud du Maroc.
Alcan, Paris 1930.

- Montel (E);

  37 - Les Confrèries religieuses de l'Islam marocain.
  (R.H.R) 1902 pp.1-35.

- Morsy (M);

  38 - Les A Hansaïs, Examen du rôle historique d'une famile maraboutiques de l'Atlas marocain.
  Mouton, Paris La Haye 1972.

- Niègle;

  39 - La Medersa et les bibliothèque de Boujad.
  In R.H.M; T.24 (1913); pp.290-297.

- Pascon;

  40 - Le Haouz de Marrakech.
  2 Tomes,

- Renand (D.H.P.J);

  41 - Medcine et medcins marocains au Siècles de My Ismaïl. in A.I.E.D, T.3 1937; pp.89-109.

- Rinn (L);

  42 - Marabouts et Khouane.
  Etude sur l'Islam en Algerie. Alger 1884.

- Rosenberger (B) et Triki (H);

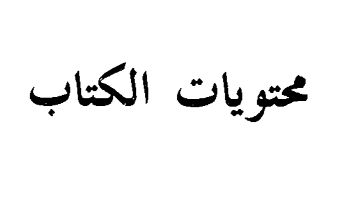
  43 - Famines et épidemies au Maroc au 16e et 17e Siècle. 1ère partie, Hesp T; vol.XIV (1973) pp.109-175.
  2ème partie, Hesp T; vol.XV (1974) pp.5-103.

- Terrasse (H);

  44 - Histoire du Maroc des Origines à l'établissement du protectorat français (2 vol)
  éd. Altantides, Corablance, 1949.

- Ziou Ziou (M);

  45 - Le culte des saints à Titwan et son inpact sur la vie Sociale des Tetouanais.
  thèse inedite (3ème Cycle);
  Aix-en-Provence (1980).


محتويات الكتاب

الجزء الأول

الباب الأول
ظروف تأسيس زاوية أبي الجعد

محتويات الجزء الثاني

دور الزاوية الشرقاوية الاجتماعي والسياسي

الباب الخامس
الزاوية والمخزن
أو
الدور السياسي للزاوية

ببليوغرافيا تكميلية

في إطار اغناء موضوع الزوايا والتصوف.. وبهدف توسيع ومناقشة بعض الأفكاروالموضوعات الواردة في الكتاب.. أورد هنا بعض المساهمات الثقافية المرتبطة بالموضوع والتي نشر البعض منها والبعض الآخر في طريق النشر.

ــ الأعمال المنشورة :

* دور الزاوية المغربية في تدعيم المذهب السني.
- في إطار ندوة الطرق الصوفية، فاس 1406 ــ 1985.
- نشر بمجلة دعوة الحق : ع : 257، يوليوز 1986، ص 113 ــ 117.

* مصادر تاريخ الزاوية الشرقاوية.
مجلة المناهل : ع : 33، دجنبر 1985، ص 306 ــ 319.

* البحث التاريخي بالمغرب : واقع وآفاق.
مجلة دعوة الحق : ع : 266 (1408 ــ 1987) ص : 59 ــ 62.

* كتب التراجم كمصدر لاغناء المعرفة بتاريخنا.
مجلة المناهل : ع : 36 (خاص بمؤرخي الدولة العلوية الشريفة) 1407 ــ 1987 ؛ ص : 243 ــ 258.

ــ مساهمة أخرى[1] :

* الزاوية الشرقاوية خلال القرن 19م، مشروع دراسة لدورها الاجتماعي والسياسي.
- في إطار الجامعة الصيفية بالمحمدية (1987).

* إشكالية الزوايا بالمغرب.
- في إطار الأيام الثقافية للمركز التربوي الجهوي ــ بمراكش 27، 28، 29 أبريل 1987.

* الاعلام بمن حل بمراكش من الشرقاويين الاعلام.
في إطار ندوة تكريم الأستاذ أحمد الشرقاوي إقبال بمراكش (مارس 1987).

* التواصل الثقافي بين الحاضرة الاسماعيلية والزاوية الشرقاوية.
في إطار ندوة الحاضرة الاسماعيلية 16 ــ 19 أكتوبر 1986، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ــ مكناس.

* الزاوية الشرقاوية في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله.
في إطار ندوة كلية الآداب والعلوم الإنسانية ــ الجديدة (مارس 1988).

* خواطر تاريخية : نشرت في حلقات بجريدة العلم ؛ (الصفحة الأخيرة) كالتالي :
بمناسبة الذكرى الأربعمائة لتأسيس أبي الجعد : الزاوية ــ المدينة.
أ ــ في التاريخ والإنسان : ع 13915 بتاريخ 1988/9/06، ص : 8.
ب ــ مجاهدون ومتصوفة : ع 13919 بتاريخ 88/9/10، ص : 8.
جـ ــ تادلة في خضم تحولات العصر : ع 13924 بتاريخ 88/9/15، ص : 8.

* الحركة الصوفية بالمغرب خلال القرن 19م.
دراسة لتراثها الفكري ولمختلف ممارساتها الاجتماعية والسياسية، في إطار تهيء أطروحة جامعية (مسجلة 1987).



الايداع القانوني رقم 1989/2


مطبعة النجاح الجديدة
الدار البيضاء